حديث المساء

لطه حسين

تحقيق وتقديم

محمد سيد كيلانى

الطبعة الأولى

دار العرب

للبستانى

٢٨ شارع الفجالة ت ٩٠٨٠٢٥

القاهرة

مقدمة

أرادت وزارة اسماعيل صدقى أن تكسب الرأى العام أو على الأصح خيل إليها أنها قادرة على ذلك إذا هى أقصت طه حسين عن الجامعة وذكرت أنها تفعل ذلك تحقيقا لرغبة الأمة التى أبدتها حينما نشر طه كتابه « فى الشعر الجاهلى » ، ولم تجد مسوغا قانونيا لفصله فاكتفت بنقله إلى ديوان وزارة المعارف ليشغل وظيفة كبير مفتشى اللغة العربية التى كان يشغلها الشيخ محمد حسنين الغمراوى بك الذى كان سيحال على المعاش فى ١٩٣٣/٥/٢١ ، وذكرت بعض الصحف أنه سيعهد إلى الدكتور طه بحث مناهج اللغة العربية ووضع تقرير عن الكتب المقررة لتدريسها متضمنا ما يراه من التعديلات التى يجب ادخالها .

إلا أن الدكتور طه عميد كلية الآداب رأى فى نقله إلى وزارة المعارف اعتداء صارخا على استقلال الجامعة فرفض قرار النقل، فقرر مجلس الوزراء بتاريخ ٢٠ مارس ١٩٣٣ فصله من هذه الوظيفة .

★★★

وتقدم عبد الحميد سعيد ومعه حافظ رمضان رئيس الحزب الوطنى وعبد العزيز الصوفانى عضو الحزب المذكور ، ويحيي سليم أبو سحلى عضو حزب الشعب وآخرون باستجواب إلى وزير المعارف محمد حلمى عيسى باشا ولما حل موعد مناقشة الاستجواب ، نهض عبد الحميد سعيد فألقى البيان التالى :

نشأ هذا الرجل عدوا للدين وتعاليمه ، يشوه كل ما هو منسوب إليه . ومن يتتبع سلسلة حياته العلمية وجده يذهب فى كل مسألة تتعلق بالدين الإسلامى مذهب أعداء الدين وخصومه الألداء . إن ضرر الدكتور طه

بعقول الناشئة لم يقف عند حد الجامعة ومصر ، بل جاوزها إلى البلاد العربية المجاورة .

ثم ذكر أن الدكتور كان يكلف طلبته أن ينتقدوا القرآن ، وأن يسجلوا آراءهم فى كراسة فيذكرون أن هذه الآية ضعيفة وتلك ركيكة . وتلا عبد الحميد من كراسة لأحد الطلبة أن طه حسين يحث الطلبة على نقد القرآن ويذكر لهم أن فى القرآن أسلوبين مختلفين كل الاختلاف ، أحدهما جاف وهو مستمد من البيئة التى نزل فيها القرآن أول ما نزل فى مكة . ففى هذا الأسلوب تهديد ووعيد ، وزجر ، واستشهد على ذلك بآيات : « تبت يدا أبى لهب .. إلى آخر السورة .

وكان طه يحث الطلبة على أن ينظروا إلى القرآن كأى كتاب عادى يجرى عليه من النقد العلمى ما يجرى عليها ، وأن يغضوا النظر عند البحث عن قدسيته .

ولقد شاع هنا وفى البلاد العربية أن هناك صلة بين طه حسين وبين دعاة التنصير . وألقى عبد الحميد اللوم على الحكومات حتى بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطبيين .

قالت صحيفة(١) كوكب الشرق « ومن لطيف ما ذكره نائب الحزب الوطنى — أى عبد الحميد سعيد — أنه وصف نقل طه حسين من الجامعة إلى وزارة المعارف بمثابة نقل جيش الاحتلال من القاهرة إلى ضفة القنال».

وقد أرسلت صحيفة كوكب الشرق مندوبها لطفى عثمان إلى شارع المنيا بمصر الجديدة حيث كان يسكن طه حسين ، فأجرى معه الحوار الآتى :

س — جاء فى خطاب عبد الحميد سعيد أفندى أنكم كنتم تكلفون طلبتكم أن ينتقدوا القرآن ، وأننا يسجلوا آراءهم فى كراسة فيذكروا أن

---

(١) ١٩٣٢/٣/٢٩ عدد ٢٣٢٧

هذه الآية ضعيفة(١) ، وأخرى ركيكة ، وأنكم تحثون الطلبة على نقد القرآن ، وأن فى القرآن أسلوبين مختلفين ، أحدهما جاف وهو مستمد من البيئة التى نزل فيها القرآن أول ما نزل فى مكة ، ففى هذا الأسلوب تهديد ووعيد وزجر . ولما هاجر النبى عليه السلام إلى المدينة تغير الأسلوب بحكم البيئة أيضاً إلى آخر أقواله . فما مبلغ ما ينسبه إليكم عبد الحميد سعيد أفندى من الصدق ؟

ج : هذا كذب وتزوير . وكل ما قلته هو ما يقوله العلماء المسلمون من أن السور المكية كانت قبل كل شىء سور إنذار وتبشير ، فكانت فيها شدة على المشركين ، بينما السور المدنية يغلب عليها التشريع فيظهر فيها الهدوء .

س : نسب عبد الحميد سعيد أفندى إليكم أنكم فسرتم للطلبة الحروف التى فى أوائل السور فى القرآن بعدة آراء ، منها أنها معميات ، ومنها أنها كانت فى الأصل علامات مميزة لمصاحف الصحابة ، فهل هذا صحيح ؟

ج : المسلمون والمستشرقون مختلفون فى فهم هذه الحروف ، فبعضهم يجد لها معانى ، وبعضهم يقول إنها من المتشابهات التى لا سبيل إلى فهمها . وبعض المستشرقين رأى رأيا شخصيا ، وهو أن هذه الحروف كانت

---

(١) فى كتاب « فى الصيف » لطه حسين ما نصه .

« إذا كان من حق الناس جميعاً أن يقرأوا الكتب الدينية ويدرسوها ويتذوقوا جمالها الفنى ، فلم لا يكون من حقهم أن يعلنوا نتائج هذا التذوق والدرس والفهم ما دام هذا الإعلان لا يمس مكانة هذه الكتب المقدسة من حيث هى كتب مقدسة ، فلا يغض منها ، ولا يضعها موضع الاستهزاء والسخرية والنقد . وبعبارة أوضح : لم لا يكون من حق الناس أن يعلنوا آراءهم فى هذه الكتب من حيث هى موضع للبحث الفنى والعلمى بقطع النظر عن مكانتها الدينية » .

فعبد الحميد سعيد لم يكن كاذبا ولا مزوراً .

علامات لبعض المصاحف . فلم أزد فى الدروس عن أن قلت آراء المتقدمين والمستشرقين ،ونددت بهذا الرأى السخيف كما ندد به العلماء من المستشرقين أنفسهم . فما يقوله عبد الحميد كذب وتزوير أيضاً ، ويمكنكم أن تستشهدوا بالطلبة أنفسهم .

س : يتهمكم أيضا فى خطابه بالطعن على الدين فى كتبكم (فى الأدب الجاهلى) و « حديث الأربعاء » فهل تعتقدون أنه استطاع أن يفهم ما قرأه فى هذين الكتابين قبل أن يكون هذا الرأى فيهما ؟

ج : لو عرفت أنه(١) يستطيع أن يفهم هذه الأشياء لناقشته ، ولكنه دون هذا . وكل ما أتمناه هو أن يريح الله المسلمين من أشدنا شرا على الإسلام ، وأكثرنا كيدا للدين ؛ سواء أكان هذا الرجل النائب المحترم (!!) أم أنا .

س : يزعم عبد الحميد سعيد أفندى أنه شاع هنا وفى البلاد العربية أن هناك صلة بينكم وبين دعاة التبشير ، فماذا تقولون عن هذه الإشاعات؟

ج : تستطيع أن تؤكد أن هذا كذب صراح ، وإنى لا أعرف مبشراً، ولم ألق مبشراً ، ولا ينتظر أن يكون بينى وبين مبشر ما صلة ما ، وتستطيع أن تسأل من شئت من المبشرين فى أقطار الأرض جميعا ، فستعلم علم اليقين أن الصلة لم توجد ولا يمكن أن توجد بينى وبينهم .

---

(١) فى سنة ١٩٢٧ تشكلت لجنة فى وزارة المعارف مكونة من محمد حسنين الغمراوى بك ، وأحمد العوامرى بك ، والشيخ محمد عبد المطلب وكتبت تقريرا عن كتاب الأدب الجاهلى وكان ما جاء فيه ضد طه حسين ، وذكرت أن كثيراً مما جاء فى هذا الكتاب يناقض الدين الإسلامى فى أصوله وفروعه .

ثم ألفت لجنة أخرى مكونة من محمد حسنين الغمراوى بك ، وعبد الحميد حسن ، وأحمد أمين ، فجاء فى تقريرها أن الكتاب حوى نقطا تمس أصول الدين الإسلامى انظر كتابنا (طه حسين الشاعر الكاتب)

س : كلنا نعلم أن الخلاف القائم بينكم وبين وزارة المعارف ينحصر فى أمر واحد فقط ، هو أن وزير المعارف أصدر قراراً بنقلكم من كلية الآداب إلى وزارة المعارف . والبحث يدور فى : هل يملك الوزير حق نقلكم أم لا يملك ؟ فما الذى أخرج إذن هذا الخلاف القانونى إلى الجدل والمناقشة حول كتبكم وتعاليمكم ؟ وهل تظنون أن هناك من يعمل على إثارة هذه الضجة حولكم من جديد ؟

ج : لاتسلنى عن هذا ، وسل الذين يثيرون هذه الضجة ، ماغرضهم منها ، وماذا يقصدون من ورائها .

وسئل طه حسين مرة أخرى عن رأيه فى اتهامات عبد الحميد سعيد أولا وشيخ الأزهر ثانيا وأخيراً فقال :

رأيى أنهم قوم لم يبيعوا أنفسهم من الله ، وإنما باعوها من السلطان ، فهم يؤدون بهذه التجارة المنكرة ثمن ما يمنحهم صدقى باشا من المنفعة العاجلة ، ولقد ينطبق عليهم قول الله تعالى :

(فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مماكسبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون).

* * *

وفى ١٩٣٢/٤/٧ أقام الطالب عزيز فهمى حفلة شاى فى فندق ميناهوس تكريما لطه حسين ، حضرها حافظ إبراهيم ، والدكتور محمد حسين هيكل والشيخ مصطفى عبد الرازق ، والآنسة ملك . وطافت أباريق الشاى والحليب وصحاف الحلوى على الحاضرين .

واعتذر العقاد عن تخلفه بالبرقية الآتية :

أنتم أحق من يكرم (بكسر الراء المشددة) والأستاذ طه أحق من يكرم (بفتح الراء المشددة) ولكنكم أحق من يعذر المتخلف عن واجب هو أول الساعين إليه لولا مانع يمنعه . وتحياتى إليكم أجمعين .

ونهض حافظ إبراهيم والقى بيتين استعيدا مرارا وهما(١) :

أجدبت دار الحجى والنهى بعدك من آرائك النافعه

أخصبت أرجاء مصر بمن صير مصر كلهـا جامعه

★★★

وأقام(٢) طلبة كلية الآداب حفلة تكريم لطه حسين وأحمد لطفى السيد فى كليتهم حضرها عباس محمود العقاد ، وألقى خطبة هذا نصها : إنكم تحيون أستاذيكم ، وأنا أحييهما ، ولست أخالف التقاليد فى هذه التحية ، بل أنا سائر على سنة التقاليد المثلى . كل ثناء إلى الطلاب إنما هو ثناء يتجه إلى الأساتذة من أقرب طريق . إن أكبر فخر للأستاذ فى معاهد التعليم العليا هو أن تكون الصلة بينه وبين طلابه صلة احترام قوامه محض الكفاءة العلمية ، ومحض المناقب الشخصية .

وليس للأستاذ لطفى بك ، ولا للدكتور طه الآن سلطان عليكم ، وليس لهما إلا مكانة العالم بين أساتذته فأنتم الآن تقيمون الدليل على أنهما حقا فخر الأساتذة فى الجامعة .

أنتم تقيمون الدليل على منزلة هذين العالمين الجليلين بهذا الاجتماع الذى تقيمون ، لا مسخرين ولا مسوقين ، ولا مأجورين ، ولا مسحوبين كما يسحب الآخرون .

أنتم تقيمون الدليل بهذا الاجتماع الذى تعقدونه بمحض ارادتكم وبمحض الغيرة على الكرامة ، وعلى العلم ، لا تلك الغيرة الزائفة التى يدعيها مخلوقات ينتسبون إلى الآدمية ظلما يا حضرات الإخوان .

---

(١) هذان البيتان لا وجود لهما فى ديوان حافظ .

(٢) كوكب الشرق فى ١٤/٤/١٩٣٢ عدد ٢٣٤٠ .

كل ما يحيط بنا فى زماننا هذا يقول لنا إن الحياة حقيرة ؛ وإن الدنيا ضئيلة ، وان هذه الحياة لا تستحق العناء ومشقة التفكير ، ولكن الذى أراه شيئا آخر .

أرى هنا وفاء واعجابا ، وما دام فى الدنيا وفاء ففيها ولا شك سبل طلب الكمال وفيها أيضا سبل المثل الأعلى .

عندنا وفاء وقد أظهرتموه ، وعندنا ثقة فى امكان الوصول الى المثل الأعلى فى حياتنا ، فحسبنا من ذلك عزاء عما نحن عليه الآن .

أيها الإخوان : لقد أساء التصرف أولئك الذين تصرفوا فى مسألة الجامعة ، ولكنهم أحسنوا من حيث لا يشعرون .

إن كل عالم عامل هو فى الحقيقة جامعة تنتقل حيث ينتقل ، ويصدر عنها العلم حيث كان . واذن فصلة الجامعة الروحية بالأستاذين قائمة ، وهى صلة قوية لها فى النفوس أبلغ الأثر ، وستظهر آثارها فى دائرة التعليم الحر ، وسترونها قريبا إن شاء الله .

***

وألقى طه حسين الخطبة الآتية :

أصدقائى :

اسمحوا لى أن أهدى إليكم باسم أستاذنا الجليل لطفى بك السيد أجمل الشكر وأصدق التقدير لهذا الشعور الحى القوى الذى مهما تكن ثقة الأستاذ بى ، واعتماده على طلاقة لسانى فإنى عاجز عن أن أوفيه حقه ، ولكنى كما قلت قبل الآن لبعض الطلبة إنى لست فى حاجة لشكر الطلاب على شعورهم ، كما أن الأساتذة ليسوا فى حاجة لشكر الطلاب لهم ، لأننا معشر الجامعيين — واستعمل هذه الكلمة وان رغمت أنوف — نؤمن بأن لا كلفة بين أعضاء الأسرة الجامعية .

لطفي السيد : تريبيان [TRES BIEN]

الدكتور طه : نعم ، لسنا فى حاجة لأن يشكر بعضنا بعضا ، ولكن لبعضنا على بعض حقوقا هى أن نبذل ما نستطيع من قوة ، بل أن نضحى حتى فى الحياة فى سبيل هذه الرابطة المقدسة التى جمعت بين المدير والأساتذة والطلبة .

إنها رابطة العلم وليست أملا من تلك الآمال التجارية . وأنا أذكر الأسرة الجامعية وأؤكد لكم أنى ما شككت لحظة مهما بلغت نقمة الناقمين علينا ، ومهما بذلوا من الحيلولة والتفريق بيننا ، ما شككت لحظة فى أننا جامعيون وأننا من أسرتكم وفى أن لنا اليوم وغدا من الحقوق مثل ما كان لنا عليكم بالأمس وصدقونى فيما سأخبركم به ، فقد حسبوا أيضا أنهم يتبذلون الجامعة فيما يتخذونه من الإجراءات لكى يحملوا رجلا أبيا كالأستاذ لطفى بك على أن يستقيل .

كانوا يكرهون مكان الأستاذ من الجامعة . وكانوا يكرهون مكانى فى كلية الآداب بعد خيبة أملهم فى ، وقد أظهرت ما يختص بى . وأما خيبة أملهم فى الأستاذ فكم كنت أود أن أخبركم عنها لولا أن الأستاذ لم يسمح بذلك بعد .

ثقوا بأنهم كانوا يكرهون مكاننا فى الجامعة والكلية ، وثقوا بأنهم كانوا يدبرون هذا من زمن بعيد .

وما كنا نلتقى نحن الملحدين إلا ونردد الآية الكريمة :

(وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين (١) .

---

(١) الانفال — ٢٩

لقد قرأتم بعض ما كتبت بعد أن أخرجت من الجامعة فلاموني لأني لم أكن رفيقا بالحكومة . نعم ، ولقد تحدث إلى في ذلك بعض الأصدقاء ، وقالوا لى إنهم ائتمنوك على أسرار فأذعتها ، وكنت للسر خائنا . هذه هى سيئتنا عندهم .

ولكن لو جاءك رجل ينبئك بأنه قاتلك غداً ، وأمرك بألا تخطر النيابة ، أفتكون خائنا للسر إذا أنت أخطرتها ؟

تلك هى سيئتنا الخلقية أيها الأصدقاء ، ولكنها سيئة مصطنعة متكلفة أما السيئة الخلقية الحقيقية فهى نفاقهم .... هذا النفاق الذى يتخذ وسيلة لإفساد الناس وإضلال العقول والقلوب ... هذا النفاق الذى تستخدم فيه أدنأ الوسائل وأحطها .

ولقد حاول بعض الأصدقاء أن يمنعونى من التصريح بالحقائق فقلت لبعض أولئك الذين حدثونى إنى لم أتعود قبل اليوم أن أكون مومسا ، ولن أكونه اليوم لأجل أن أبقى عميداً لكلية الآداب .

ولقد لامنى أستاذى مدير الجامعة لأنه من أشد الناس سيطرة على نفوسهم وسيطرة على ألسنتهم .

هو يعبر بلغة أرسطو ، وأنا أعبر بلغة الشعراء ، جاهليين أو إسلاميين .

أيها السادة ، إنى لسعيد جدا بأن أتيحت لى هذه الفرصة لأؤكد لكم بأننا وإن بعدت المسافات بيننا وبين الجامعة فنحن فيها دائما ، وليس أدل على هذا من قصة أسردها عليكم لتعلموا أن الأستاذ لطفى بك لا يستطيع أن يكون بعيدا عن الجامعة . كان الأستاذ وزيرا مستقيلا(١) ، وكان الحكم

---

(١) كان أحمد لطفى السيد وزيرا للمعارف فى وزارة محمد محمود الأولى سنة ١٩٢٩ مع احتفاظه بمنصب مدير الجامعة . ولما استقالت هذه الوزارة خلفتها وزارة عدلى يكن باشا المحايدة ، وعاد لطفى إلى إدارة الجامعة .

لدولة عدلى يكن باشا . وكنت وكيلا لكلية الآداب ، وظهر أن عالما ألمانيا مستشرقا قد توفى وترك مكتبة فخمة ، وأن هذه المكتبة تعرض للبيع وأن أمريكا تريد أن تشتريها .

بحثت فإذا ميزانية الجامعة لا تسمح لنا بشرائها ، وإذا نحن على أبواب فتح البرلمان ، فإذا ما انتظرنا البرلمان بيعت المكتبة إما لأمريكا وإما للهند .

ذهبت إلى مدير الجامعة السابق(١) وأنبأته النبأ ، فلم يحتج إلى تفكير ولكنه طلب منى رفع مذكرة بذلك ، وذهب إلى رئيس الوزراء توا ، وتحدث معه فى هذا الشأن ، وبعد أيام صدر المرسوم باعتماد المبلغ اللازم لشراء المكتبة . من ذلك ترون أنهم مهما باعدوا بيننا وبين الجامعة فنحن لها وفى خدمتها . لكم حياتنا العلمية تستطيعون أن تفعلوا بها ما تشاءون .

أيها السادة :

لقد سمعتكم تهتفون حين نهض الأستاذ العقاد بحياة البطل السياسى . ولعلى هتفت معكم ، ثم كررت الهتاف بحياته كبطل جامعى أيضا . فإن له عندكم من حيث إنكم جامعيون يدا سابقة ، وله عندى هذه اليد ، فهو الذى وقف فى البرلمان .. البرلمان الذى يمكن أن يسمى بهذا الأسم ، وقف يدافع بطبيعته عن حرية الرأى ، وعنى أنا وعن حرية الجامعة واستقلالها .

أما بعد فقد أطلت عليكم فاذا لم تسمح لنا الظروف اليوم أن نتحدث ونطيل الحديث فثقوا بأن ظروفا مقبلة ستضطرنا إلى أن نتحدث ونتحدث طويلا . أما الدين فأنتم تعلمون أنى كنت أتحدث إليكم عنه فى كلية الآداب ، وكنا نتحدث عن القرآن ونعجب بما فيه من جمال . وما أرى أنهم يفهمون من الدين ومن القرآن وجمال القرآن شيئا . وإنى لأذكر يوم أن كنا ندرس

---

(١) يقصد أحمد لطفى السيد الذى استقال احتجاجا على إبعاد طه عن كلية الآداب.

محاضرة عن سورة الأنفال ، وكم كنت أحب أن يقرأها صاحب اللحية والعصا(١) كما سماه خطيبكم .

أما الآن فاندع هذا الحديث ويكفى أننا استطعنا أن يسمع بعضنا بعضا، وأن يلتى بعضنا بعضا ، وأؤكد لكم أنى دهش من أن الذين يكرهون الجامعة تركونا نجتمع (أصوات من الطلبة : هم لا يعرفون مكان الحفلة) ولو قد فكروا قليلا لحالوا بين أنفسهم وبين ما صنعوا بنا ، ولتركوا لطفى حيث كان ، وطه حيث كان . فقد كان لنا نزعة سياسية نخفيها كما قال صدقى باشا .

وختاما فلكم عن الأستاذ الجليل لطفى بك وعنى وللأستاذ الجليل العقاد بنوع خاص تحيتنا وشكرنا الخالص ؟

★★★

وأخيرا وقف الأستاذ إبراهيم المازنى وألقى خطبة هذا نصها :

أيها السادة :

أظن أنه بعد فيض العقاد وطه يكون من الإحراج أن أدعى إلى الكلام، ولست أظن أن الذى دعانى أراد إحراجي . ولكن الواقع أن الخطابة شيء لا أستطيعه . ولقد تركت التعلم من زمن طويل ، والتعليم بعض مراتب الخطابة . ولقد تركت فكرة الخطابة . لأنى أولا كما ترون قصير ، والقصير لا يصلح للخطابة إلا على كرسى مثلا (ضحك) والكرسى يذهب بروعة الخطيب .

ثم إن صوتى خافت قد يصلح للمناجاة أو الوسوسة « ضحك » ثم إنى عيي ، لا يحضرنى الكلام بسرعة ، والخطابة تحتاج لسرعة البديهة واختيار الألفاظ الموافقة : ☆☆☆

---

(١) يقصد عبد الحميد سعيد

وأؤكد لكم أنى بعد أن اخرج وقبل أن أصل إلى جريدة « السياسة » ستخطر لى خطبة أبدع من كل ما سمعت (ضحك) .

العقاد : إننا سنرافقك (ضحك)

المازنى (مستطردا) : والسبب بسيط ، وطبيعى أيضا لأن معتاد الكتابة يعتاد أيضا البطء فى التفكير . أظن هذا اعتذارا كافيا .

العقاد : هذا تمهيد (ضحك)

لطفى السيد : ليه ؟ كويس كده ؟

المازنى (مستطردا) : بمناسبة اضطهاد الجامعة يخطر ببالى اضطهاد الأمويين للعلويين ، وأنتم تعرفون من غلب .

إن الذين بطشوا بحرية الجامعة واستقلالها قوم لا يقدرون إلا المعدة . المعدة فى نظرهم كل شىء . للكرامة ثمن ... للشرف ثمن ... للحرية ثمن ... لكل شىء فى نظرهم ثمن ، وكلما كبر الواحد منهم كبرت معدته فأصبح الإذلال والإرغام فى نظرهم أيسر ، لأنهم لا يستطيعون التفريط فى كل هذا من أجل المعدة .

ومن حسن حظ الإنسانية أن أصحاب نظرية المعدة ينتهون إلى شر مما يبدأون ، وتكون حياتهم فى أكل وشرب ... حياتهم كلها فى هم المعدة ، ثم ينتهون .

ولذلك لم أر فيما أصاب الجامعة إلا صدمة مؤقتة ، لأن الظرف الذى أقال طه واستقال فيه لطفى بك لا يضر الجامعة ، لأن العبرة بالروح التى نجح الأستاذ فى إيجادها بين طلاب الجامعة » وأشاركم تحية أستاذنا لطفى بك والدكتور طه ، وأؤكد لكم أن انتفاعنا بهما سيكون أعظم من انتفاع الجامعة بهما وحدها .

★★★

وفى شهر مارس سنة ١٩٣٣ دعته صحيفة «كوكب الشرق» لينضم إلى هيئة التحرير بها . ولم يكن طه حسين غريبا عن أحمد حافظ عوض

صاحب الكوكب ، فقد عرف كل منهما الآخر من قبل أن يسافر طه إلى أوربا . وقد نشرت صحيفة الكوكب صفحة كاملة(١) أشادت فيها بطه حسين ومواهبه وقلمه الفياض . قالت « حدث سياسى حقا ، قمين بأن نحفل له أيما حفيل ، وخليق بأن نؤبه به لجد خطورته وبليغ أثره فى الصحافة المصرية . ذلك أن طه حسين يشترك بقلمه الفياض ، وإيمانه الفياض وعقله الفياض فى الصحافة المصرية ، وفى السياسة المصرية فى الأزمة المصرية الحالية .

وطه حسين جدير بأن يرسل اسمه إرسالا بلا بهرجة لقب ، ولا تزويق جاه ، لأن الشخصيات البارزة فى وجودها وأثرها والتى خلقت لتقود ، لا لتقاد ، ولتنفع الناس بخصافتها وعبقريتها يحلو دائما ذكر أسمائها مجردة من النعوت . طه حسين موهبة فذة اختص بها ذلك الرجل الفذ ، تلك هى أنه منطقى بالطبيعة ، ذكاوة لا يشق غبارها بغبار ، وجبروت ذهن فوق كل تقدير واعتبار » .

وفى رسالة خطية للزعيم مصطفى النحاس إلى «كوكب الشرق» جاء فيها : « وإنى لمغتبط باشتراك النابغة الكبير الدكتور طه حسين فى تحريره — يعنى الكوكب — على المبدأ الوفدى الذى دلت الحوادث على أنه مبدأ الحق ودين الأمة الذى قامت عليه فى نهضتها نحو غايتها السامية فى الحرية والاستقلال » .

انضم طه حسين إلى هيئة تحرير الكوكب . وكان يطالع الجمهور كل يوم بمقال طويل فى أكثر من عمودين . وكان يختار للمقال كلمة واحدة يجعلها عنوانا . وقد قلده بعض الشباب فى ذلك الوقت .

ينتمى طه حسين إلى مدرسة المجددين فى النثر العربى ، وهى مدرسة متأثرة بالآداب الأوربية ولا سيما الفرنسية والأنجليزية . وتمتاز بتحليل المعانى واستقصائها والتعليل لها . كما تمتاز بالسهولة والوضوح .

---

(١) ٨ — ٣ — ١٩٣٣ عدد ٢٣٢٧

والخصائص الفنية لأسلوب طه حسين هي التطويل والتفصيل، والتكرار المعنوى واللفظى : كما يلاحظ القارىء التأنى فى اختيار الكلمات واللباقة فى الهجوم على الوزارة الصدقية حتى لا يقع تحت طائلة العقاب كما حدث للعقاد وتوفيق دياب .

ولم يلجأ طه حسين فى هذه المقالات إلى العبارات الرنانة الصاخبة التى تحرك العواطف وتثير المشاعر . وإنما غلب عليه الهدوء ومخاطبة العقل والإقناع بالحجة واستخدام الأسلوب المنطقى . وكثيرا ما يلجأ إلى السخرية، ويضمن مقالاته شيئا من الأدب القديم ، من الشعر والحكمة أو المثل : وهو يعبر عن عقيدة وطنية راسخة . كما يوجه الخطاب إلى القارىء جذبا لانتباهه ، وتنشيطا لحواسه .

فى هذه المجموعة من المقالات ترى طه حسين يعبر عن آلام الأمة وأحزانها وما عانت منه فى تلك الفترة من أزمة اقتصادية خانقة ، وانفراد اسماعيل صدقى بالحكم ومن ورائه الأنجليز والملك فؤاد . جاهد طه حسين بقلمه كما جاهدت الأمة شيوخها وشبانها وسقط القتلى والجرحى من أبنائها، ولم تهدأ أو يقر لها قرار حتى انقشعت هذه الغمة ، وجاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا .

فهذه المقالات إذن من الأدب السياسى .

★★★

تشكلت وزارة إسماعيل صدقى فى ٢٠ يونيه سنة ١٩٣٠ وظلت فى الحكم زهاء ثلاثة أعوام . وقد ألف إسماعيل صدقى حزبا أراد أن يطلق عليه اسم حزب الإصلاح ، ولكن بعض الأعضاء تشاءم من هذا الأسم نظرا للمصير السيء الذى انتهى إليه حزب الإصلاح الذى أنشأه الشيخ على يوسف صاحب المؤيد قبل الحرب العالمية الأولى . وأخيرا استقر الرأى على أن يسمى الحزب الجديد « حزب الشعب » تيمنا بحزب الشعب التركى واقتداء بأقطابه وإن لم يكونوا مثلهم .

تولى إسماعيل صدقى الوزارة باتفاق انعقد بين الملك فؤاد والإنجليز سنة ١٩٣٠ ، قالت صحيفة « المانشستر جارديان »(١) « والانجليز فى مصر يحبذون الحكم الغير دستورى فيها . فقد سبق لهم أن حبذوا حكومة محمد محمود باشا . وهم يحبذون الآن حكومة صدقى باشا . ومما لا ريب فيه أن هنالك جماعة فى هذه البلاد — أى انجلترا — لا تزال تود أن تستخدم العصا الغليظة فى مصر بحيث إذا قامت مشاغبات من جراء الأزمة الحاضرة استدعيت الجنود البريطانية إلى التدخل لتأييد حزب الملك » .

وفى مقال لصحيفة « الإيفننج ستندارد البريطانية » (٢) « النحاس باشا لا يمكن أن يقتنع بأية معاهدة ينالها ، وإنه لابد وأن يتقدم بصفته ممثلا للعنصر المضاد لبريطانيا فى مصر بمطالب أكثر فأكثر حتى يتوصل إلى إبعاد آخر جندى بريطانى وآخر موظف ملكى انجليزى عن البلاد » .

ومن مقال(٣) افتتاحى لصحيفة الإيفننج نيوز « تتجه الحوادث المصرية الآن إلى الثورة . وسواء كانت هذه الثورة تتخذ شكل مسعى فى سبيل تشييد جمهورية يديرها الوفد أو ترمى فقط إلى تحويل جميع السلطات السياسية التى كانت للملك إلى الزعماء السياسيين فان ذلك أمر يعنينا ، لأن الغاية التى يعمل لها الثوار إنما هى طرد الانجليز من مصر . والمتطرفون المصريون كهذا النوع من الأطفال الأشقياء الذين إذا ما أدبوا بيد قوية مرة أو اثنتين فانهم يصبحون مثالا للطاعة » .

* * *

فمن هنا نعلم أن إسماعيل صدقى وكل من تعاون معه من شيوخ ونواب ورجال إدارة وصحفيين قبلوا على أنفسهم أن يكونوا أداة طيعة لتنفيذ السياسة البريطانية ضد المواطنين .

---

(١) الأهرام فى ١٦ — ٧ — ١٩٣٠

(٢) المصدر السابق فى ٣ — ٥ — ١٩٣٠

(٣) الأهرام فى ١٥ — ٧ — ١٩٣٠

ولم تتورع الوزارة الصدقية فى إستخدام أحط الوسائل لهذا الغرض . فحينا أعلن مصطفى النحاس أنه سيزور المنصورة ، بادرت الوزارة فأرسلت إلى المنصورة أورطة المشاة الأولى من الجيش وعدد أفرادها ٦٠٠ جندى ، واستقدمت أورطة أخرى من الاسكندرية . وسافر إلى المنصورة الأميرالاى فوربس بك رئيس هيئة أركان حرب العمليات العسكرية ، والأميرالاى عبدالعظيم على بك قائد اللواء الأول ، والقائمقام لوكاس بك مساعد حكمدار العاصمة ، وعدد كبير من الهجانة ورجال الشرطة . وخرجت جموع الشعب لتحية الرئيس وصحبه ودارت معركة عنيفة بين عساكر الجيش وبين المواطنين انجلت عن إصابة ١٤٥ جريحاً نقلوا بوساطة رجال الإسعاف ، وعدد آخر كانت إصاباتهم خفيفة . وعدد كبير من القتلى ، منهم من كان متعلقاً بسيارة زعيم الوفد . وكانت النية مبيتة على قتل مصطفى النحاس . وحينما وصل النحاس إلى منزل محمد بك الشناوى ألقى خطبة جاء فيها :

« لا أريد هتافاً ، وإنما أودعكم وصية . لقد رأيتم أنهم يقصدوننى ويتعطشون لإسالة دمى لأنى أدافع عنكم ، فاعلموا أنى مضح بنفسى قبلكم ، ووصيتى لكم من بعدى أن يقوم كل منكم مدافعا عن دستوره » .

وفى الإسكندرية قامت مظاهرات ضخمة انجلت عن إصابة ٤٠٠ بين قتيل وجريح . وقد أظهرت الصحف البريطانية الفرح والابتهاج مما حدث . وقال أحد الانجليز إن انجلترا يجب أن تحتفظ بيد قوية من الإسكندرية إلى سنغافورة .

هذه صورة من الجو السياسى الذى كتبت فيه هذه المقالات . إن الملك فؤاد دق مسماراً فى نعش أسرة محمد على فذهبت غير مأسوف عليها.

محمد سيد كيلانى

القاهرة فى يناير ١٩٨٣

(١)

عهد

أعترف بأنى لا أهاب شيئا كما أهاب رضى الناس عنى ، ولا أشفق من شىء كما أشفق من حسن ظنهم بى . فأنا – شهد الله – قلما أرضى عن نفسى أو أحسن الظن بها وما أذكر أنى كتبت شيئا أو أتيت شيئا من الأمر إلاوأنا مؤمن بأنه دون ماكان ينبغى أن أكتب ، ودون ما كان ينبغى أن آتى من الأمر ، ودون ما ينبغى أن يرضى هؤلاء الأصدقاء الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم ، والذين يتفضلون على فيرضون عنى ويحسنون الرأى فى ، وأعجز أنا عن تصديق هذا الرأى أو تصويب هذا الرضى .

كذلك كنت منذ بدأت أكتب ، ومنذ بدأت أنهض بشىء من أعباء الحياة العامة . ويظهر أنى سأظل كذلك أبدا . فقد جاوزت من أطوار الحياة هذا الطور الذى يستطيع الناس أن يغيروا فيه آراءهم فى أنفسهم ، ويحسنوا بها الظن ، وينتظروا لها النمو والرقى والتقدم نحو الكمال .

لذلك لا أدرى كيف ألقى هؤلاء الأصدقاء الذين عرفوا أنى سأكتب فى « الكوكب » فأحبوا ذلك ، ورضوا عنه ، وغلا بعضهم فاغتبط به وابتهج له : نعم ، ولا أدرى كيف ألقى هؤلاء الذين تفضلوا فدعونى إلى الكتابة فى الكوكب ، وألحوا على فى ذلك إلحاحاً ملؤه المودة والبر ، والرغبة فى الخير لى ، وللقراء مما سأكتبه .

كوكب الشرق فى ١٩٣٣/٣/٩ ، عدد ٢٣٢٨

نعم ، لا أدرى كيف ألقى أولئك وهؤلاء ، لأنى شديد الإشفاق من العجز عن تصديق أولئك وهؤلاء ، وتحقيق القليل أو الكثير مما ينتظرون . ومع ذلك فقد أجبت شاكرا دعوة الداعين ، وقبلت مغتبطا رضى الراضين وأقبلت إلى أولئك وهؤلاء ، وأنا واثق مطمئن إلى أنى لم أبلغ ما يأملون فى ، ويرجون منى ، فلن أقصر عن الإخلاص الذى ليس فوقه إخلاص ، ولن أفتر عن النصح الذى ليس بعده نصح ، ولن أضن بقوة أملكها ، أوجهد أقدر عليه ، وإنما أبذل هذا كله صادق الرأى ، ماضى العزم ، قوى الأمل كأحسن ما يكون الرجل استعدادا لاستقبال الخطوب ، واحتمال الآلام فى خدمة هذا البلد الحزين .

وما أظن أن المصرى يملك فى هذه الأيام شيئا يستطيع أن يقدمه إلى وطنه خيرا من الإخلاص والنصح وصدق العزيمة ، وحسن الاستعداد لاستقبال الخطوب ، فإن كان هذا هو الذى ينتظره منى أصحاب الكوكب وقراؤه ، فهم واثقون منذ الآن بأنهم سيبلغون منه ما يريدون ، وإن كانوا ينتظرون منى غير هذا فليعذرونى إذا لم أعدهم بشىء .

وأى شىء يستطيع العاملون أن يقدموه إلى مصر فى هذه الأيام التى قصت فيها الأجنحة ، وشدت فيها الألسنة فلا تقول إلا بحساب ، وعقلت فيها الأقلام فلا تجرى إلا بمقدار ، وضيق فيها على الناس فهم مضطرون إلى أن يفكروا ويطيلوا التفكير قبل أن يقولوا أو يكتبوا ، وإلى أن يقدروا فيطيلوا التقدير قبل أن ينشطوا لأمر من الأمور . كل شىء ضيق من حولنا ، فقد استكشفت الوزارة منذ نهضت بالحكم أو منذ همت أن تنهض بالحكم أن الدستور أوسع مما ينبغى ، فضيقته وبالغت فى تضييقه . ولم تكد تعلن إلينا هذا التضييق وتأخذنا بتصغير عقولنا ، وتقصير ألسنتنا والكبح من أقلامنا ، والحجر على آمالنا لتلائم حياتنا الدستور الجديد ، حتى استكشفت أن هذا الدستور الجديد نفسه يكفل لنا حريات أكثر مما ينبغى وإذا هى تضيق هذه الحريات بألوان التشريع مرة ، وبسلطانها الإدارى مرة أخرى ، وإذا هى قد اتخذت موازين

دقيقة شديدة الدقة ، رقيقة مسرفة الرقة ، حساسة حادة الحس ، تقيس بها ما نرى وما نقول وما نفعل ، وتأخذنا بما تنكر هي من ذلك كله ، لا بما ينكر العرف ، ولا بما ينكر الدستور ، ولا بما تنكر الديمقراطية الغالية في الضيق. وإذا انتقالنا في الغدو والرواح يرصد ويرقب ويقدر فيباح أو يحظر . وإذا كلامنا يؤول على وجهه حينا ، وعلى غير وجهه أحيانا . وإذا تفكيرنا يتهم ، وإذا كل شيء نأتيه مرغوب عنه ، وكل شيء نأباه مرغوب فيه . وتمضى الأسابيع والأشهر وإذا الوزارة تستكشف أن هذا السياج الضيق الذى أحاطتنا به وحصرتنا فيه لا يكفى لأن عقولنا لا تزال واسعة أوسع من هذا السياج ، وإرادتنا لا تزال قوية أقوى من سلطان الوزارة . فلابد إذن من أن تضيق العقول ، وتضعف الإرادة ، وتنحل العزائم : وأى وسيلة أدنى إلى تحقيق هذا من تضييق التعليم ومراقبته والسيطرة الشديدة المحرجة عليه فى جميع فروعه وألوانه ، وإذن فلتبسط الوزارة سلطانها (وقد فعلت) على التعليم ، ولتجمعه كله إليها ولتحصره كله فى يدها ، ولتضغطه ما وسعها الضغط ولتقبضه ما وجدت إلى قبضه سبيلا .

هذه مدارس لم يكن لها عليها سلطان ، فيجب أن تظلها بجناحها ، وهذه مدارس حرة قد يجد التعليم فيها من السعة ما لا تحب ، فلتشرع لها القوانين التى تردها إلى حيث تريد هى من الضيق . وهؤلاء أبناء الشعب يقبلون على التعليم أفواجا ، فلتتخذ العدة لمقاومة هذا الإقبال الخطر . وأى شيء أخطر على مثل هذا السلطان الذى لا يريد أن يكون له حد من إقبال الناس على فروع التعليم الراقى .

هذا وزير المعارف يعلن فى مجلس النواب أن لابد من تضييق التعليم الثانوى والعالى لأنهما يخرجان لمصر من الشبان المثقفين أكثر مما ينبغى . فلنتوسع فى التعليم الأولى لنحارب الأمية ، ولنتشدد فى التعليم الثانوى والعالى لنقلل من عدد العاطلين فى ظاهر الأمر ، ولنضعف الخطر على السلطان الذى لا حد له فى حقيقة الأمر ، ولندع التفكير فى أن التعليم على اختلاف ألوانه حق للناس جميعا يريدونه متى شاءوا وما استطاعوا أن يريدوه ، لا يقيدهم فى ذلك إلا الامتحان والقدرة على النهوض بأثقاله .

نعم ، ولندع التفكير فى أن الرقى الصحيح لأمة من الأمم رهين بانتشار الثقافة الصحيحة الخصبة التى يجدها الشبان فى المدارس الثانوية والعالية وفى الجامعة ، وإن الخطر المنكر على النظام الاجتماعى والسياسى معا إنما يأتى من الغلو فى نشر التعليم الإلزامى والتقصير فى نشر التعليم الراقى ، لأنه يهيىء فى البلاد جيشا من أنصاف المتعلمين أو أثلاث المتعلمين أوأرباع المتعلمين الذين لا يرون الأشياء كما هى ولا يقدرونها كما ينبغى أن تقدر . ثم لا يهيىء لهذا الجيش الخطر من المثقفين قادة مهرة يردونه عن الشطط ، ويقودونه إلى الرقى والخير .

لندع التفكير فى هذا كله ، فهناك ما هو أهم من هذا كله وأجل خطرا ، وهو أن يستطيع السلطان الذى لا حد له أن يستغرق كل شىء ، ويستأثر بكل شىء ، ويوجه الأمة إلى حيث يريد هو ، لا إلى حيث تريد آمالها ومنافعها ومثلها العليا فى الحياة .

كل شىء ضيق من حولنا ، وليس الغريب أننا لم نرق فى هذا العصر الذى خضعنا فيه لهذا السلطان ، وإنما الغريب أننا لم نتأخر ، بل ثبتنا حيث كنا حين أنعم الله علينا بالوزارة القائمة ، وليس الغريب أن عقولنا لم تزدد سعة ، وأن إرادتنا لم تزدد قوة ، وأنا لم نشق لأنفسنا طرقا جديدة فى العلم والسياسة وغيرهما من فروع الحياة ، وإنما الغريب أن عقولنا وإراداتنا ماتزال بحيث كانت من السعة والقوة ، وأنا ما زلنا نقاوم ظافرين هذه العوادى المختلفة التى سلطت علينا من كل ناحية ، وأخذت علينا كل سبيل . نعم خير ما يستطيع المصرى أن يقدمه لوطنه فى هذه الأيام إنما هو الإخلاص فى القول والعمل ، والصدق فى الرأى ، والمضاء فى العزم ، والقوة على المقاومة ، والاستعداد لاحتمال المكروه ، فإن الصراع بيننا وبين الحوادث التى تدهمنا مهما يطل أو يقصر فإنما الفوز فيه لصاحب الإرادة القوية ، والعزيمة الماضية ، والقوة على المقاومة .

وأنا أعاهد الذين سيقرأوننى أنى سأكون من هذا كله بحيث يحبون ، وما أظن أنى أستطيع أن أشكر لهم ترحيبهم بى ، وحسن لقائهم لى بأحسن من أن أعطيهم على نفسى هذا العهد .

(٢)

خصومتان

ثارت(١) فى مجلس النواب خصومتان عنيفتان فى هذا الأسبوع ، ذهبت إحداهما لغوا كأن لم تكن ، وكادت الأخرى تفسد الائتلاف بين حزبى الحكومة ، لولا أن الذى بيده عقدة هذا الائتلاف لم يأذن بعد بالطلاق بين الحزبين الشقيقين ، كما تسميهما بعض الصحف .

فأما الخصومة العنيفة التى ذهبت لغوا كأن لم تكن فهى التى أثيرت حول سياسة التعليم . فقد خطب نواب ، ورد عليهم نواب آخرون ، وتكلم وزير المعارف ، وخيل إلى الذين قرأوا أولئك وهؤلاء أن تغييرا عظيم الخطر سينال سياسة التعليم فى أصولها وفروعها ، ثم سكنت العاصفة وصفا الجو ، وابتسمت السماء ، ومضت سياسة التعليم كما تريد وزارة المعارف أن تمضى ، إن كانت وزارة المعارف تعرف وجها تمضى فيه بسياسة التعليم .

والواقع أن وزارة المعارف فى هذا العهد السعيد قد اضطربت بين سياستين : إحداهما سياسة الوزير السابق(٢) ، وكانت تعتمد على التجديد والرقى ، وكانت تعتمد أيضاً على تعرف العلل التى يشكو منها التعليم فى

---

(١) كوكب الشرق ١٥/٣/١٩٣٣ عدد ٢٣٢٩

(٢) الوزير السابق هو مراد سيد أحمد ، وكان وزيراً للمعارف وقد أخذت له صورة فى شهر رمضان والسيجارة فى فمه ، فأبعد من منصبه ، وعين وزيراً لمصر فى بلجيكا .

مصر ، لذلك ألف الوزير السابق لجنة لسياسة التعليم ، وألفت هذه اللجنة لجانا فرعية ، وكتبت مذكرات ، واشتغلت اللجان ، وكانت مناقشات ، وخيل إلى الناس يومئذ أن أمور التعليم ستنقلب رأسا على عقب ، وأن مصر ستجد آخر الأمر لنفسها سياسة تعليمية معقولة ملائمة لحاجاتها وآمالها ، ولكن وزير التعليم السابق ذهب إلى بروكسل ، وخلفه الوزير القائم . فذهبت إلى بروكسل أيضاً سياسة التعليم الأولى ، وقام التقليد مقام التجديد ، فأقفلت معاهد ، وألغيت أعمال ، ونامت اللجنة الأصلية ، وتفرقت اللجان الفرعية ، وقام الفرد مقام الجماعة . واستغنى وزير المعارف(١) بنفسه ووكيله عن هذه اللجنة التى لو أمهلت لقلبت سياسة التعليم فى مصر رأسا على عقب . وأجمل ما فى هذا الأمر ، وأدعاه إلى الابتسام ، بل إلى الضحك أن جماعة من النواب كانوا يطالبون أثناء هذه المناقشة فى سياسة التعليم بتأليف لجنة لتقرير سياسة للتعليم كأن هذه اللجنة لم تكن ألفت من قبل ، ولم تكن قد بدأت أعمالها ، وكأن النواب لم يسمعوا بها ، ولم يذكر الوزير هذه اللجنة ، ولا أشار إليها ، وإنما أجاب بأن الوزارة تستطيع أن تمضى فى سياسة التعليم الأولى ، وتضييق التعليم الثانوى والعالى. وقبل النواب هذا الكلام ، وانتهت الخصومة بسلام كما تنتهى الأحلام .

أما الخصومة الثانية فقد كانت محرجة وممضة ؛ وكانت خطرة ، أدارت الرءوس ، وأذهلت النفوس ، وأقضت المضاجع ، وأضاعت يوما كاملا على كثير من النواب ورجال الأحزاب . وليس من شك فى أن موضوعها كان أجل خطرا ، وأعمق أثرا ، وأمس بحياة الشعب الآن وغدا من سياسة التعليم ، وهو إعانة الأوبرا الملكية : أتمنح الحكومة أم لا تمنح إعانة للممثلين والممثلات ، والمغنين والمغنيات ، والراقصين والراقصات . والظريف الطريف أن الدفاع عن منح هذه الإعانة لهؤلاء الأجانب الذين يفدون علينا كل يوم لتسلية الأجانب الذين يقيمون بيننا ،

---

(١) هو محمد حلمى عيسى باشا .

قد نهض به وزير التقاليد الذى أقفل معهد التمثيل وألغى الرقص وحارب اختلاط الجنسين فى المدارس . نهض وزير التقاليد فدافع دفاع الأبطال عن الفن والجمال ، يصول ويجول ، ثم يسكت ويقول ، ثم يرفع يده فى الهواء ويهوى بها على المائدة ، والنواب ينظرون ويسمعون ويعجبون، ومنهم من يدافع ويمانع ، ومنهم من يؤيد ويسرف فى التأييد ، والوزير ثابت فى موقفه ، مصمم على أن يشهد الأجانب فى مصر كل عام على حساب الدولة تمثيل الممثلين والممثلات ، والراقصين والراقصات ، ويسمعوا غناء المغنين والمغنيات .

ومع أن الخصومة بلغت أقصاها ، وكان حزب الشعب عدو التمثيل والرقص والغناء ، وكان حزب الاتحاد صديق هذه الفنون الجميلة ، فقد انتهى الأمر بفوز وزير التقاليد ، وانتصار حزب الاتحاد . وسيدفع المصريون طوعا أو كرها هذه الآلاف ليسلوا الأجانب ويعينوا جماعة من أهل الفن الأوربيين على الحياة ، ويمكنوهم من السياحة والاستمتاع بما فى مصر من صفو السماء فى فصل الشتاء ، ومن اعتدال الجو وجمال النيل .

وما كنت أظن أن سياسة التعليم تثير عاصفة لا تلبث أن تهدأ ، وأن دار الأوبرا تثير عاصفة تتجاوز مجلس النواب إلى أندية الأحزاب ، وإلى دور الوزراء القائمين والمستقيلين ، وتزعج حتى رئيس الوزراء الذى هو فى أشد الحاجة إلى الراحة وهدوء البال ، ولكن الله يريد أن تنعكس الأشياء دائما فى مصر ، فيهون التعليم كله ، وتعز الأوبرا ، ويلقى وزير التقاليد فى الدفاع عن التجديد (وأى تجديد) ما يطاق وما لا يطاق من خصومة الشعبيين .

انتهى الأمر فى مجلس النواب إلى ما أراد الوزير ، وانتهى الأمر خارج المجلس إلى صفو وسلام بعد جفاء وخصام ، ولكن من يدرى لعل مسألة أخرى أشد خطرا من سياسة التعليم تمر غدا ، أو بعد غد مرور النسيم ، ولعل مسألة أخرى أقل شأنا من مسألة الأوبرا تحطم الائتلاف

حطها ، وتمضى بالشعبيين إلى اليمين حيث المحافظة على السنن الموروثة والعادات والتقاليد ، وبالاتحاديين إلى الشمال ، وإلى أقصى الشمال حيث الغلو فى التجديد والإغراق فى مسايرة العصر الذى نعيش فيه . وما دام الليل يمر ، والنهار يكر ، فلن يثبت لهما شىء حتى ائتلاف الاتحاديين والشعبيين ، وحتى دفاع وزير التقاليد عن السنن والعادات .

فلننتظر فقد رأينا إلى الآن عجبا ، وما أرى إلا أننا سنشهد منذ الآن ما هو أدعى إلى العجب ، وأبلغ فى الغرابة ، ولكن صدقنى أنك تخطىء كل الخطأ إذا نظرت إلى حياتنا العامة نظرة الجد .

(٣)

موقفان

الناس(١) يقولون ويسرفون فى القول ، ويؤكدون ويلحون فى التأكيد أن صاحب المعالى وزير الأشغال لا يحب خزان جبل الأولياء(٢) ،

---

(١) ١٩٣٣/٣/١١ ، عدد ٢٣٣٠

(٢) لم تكن مصر فى ذلك الوقت فى حاجة إلى إنشاء خزان جبل الأولياء ، فقد هبطت أسعار المحصولات الزراعية هبوطا فاحشا . فاضطرت الحكومة إلى تحديد مساحة الأرض التى تزرع قطنا . وزادت مساحة الأرض التى تزرع قمحا ، وأصبح لدى مصر مليون أردب قمحا زيادة عن طاقتها الاستهلاكية ، وثلاثة ملايين قنطاراً بصلا . وعجز الفلاح عن دفع إيجار الأرض وعن دفع الضرائب . وتراكمت الديون على أصحاب الأرض وعلى المستأجرين . وكثرت حوادث الإفلاس بين التجار . فلم يكن مقبولا لدى الرأى العام أن تنفق الحكومة أكثر من ١٢مليون جنيه فى إنشاء الخزان ،ولكن صدقى باشا إرضاء للانجليز صمم على المضى فى هذا المشروع . قال فى إحدى خطبه (وأما الزعم بأن وجود خزان لنا فى السودان يمكن الانجليز من أعناقنا ومن حبس المياه لمضايقتنا عند كل خلاف فزعم باطل . أولا لأن الإنجليز إذا أرادوا مضايقتنا فعندهم وسائل عديدة ، وهم ليسوا

ولا يطمئن إليه ، ولا يرى على أقل تقدير العجلة فى إقامته وتشييده ، وتكلف ما سيتكلفه من النفقات فى تلك الإقامة وهذا التشييد ، وفى هذه الأيام التى تشتد فيها الحاجة ، لا أقول إلى الاقتصاد والتدبير ، بل إلى البخل والتقتير .

والناس يذكرون لانصراف وزير الأشغال عن هذا الخزان وتنكره له أسبابا فنية ، أفهم بعضها فى مشقة وعسر ، ولا أفهم من بعضها الآخر شيئا . والناس يزعمون أن وزير الأشغال يرى كما يرى غيره من الفنيين أن فى إقامة هذا الخزان خطرا غير قليل ، وعبثا لاحد له إذا لم تتخذ ضروب من الاحتياط فى مصر ، فتقوى قناطر وجسور ، وتعمق ترع وتوسع أقنية ، إلى غير هذا الكلام الذى هو أشبه بالعبرية أو السريانية أو لغات الواق الواق ، ولكنه يرضى خصوم الخزان ويدفعهم إلى المضى فى المطالبة بالعدول عن الخزان ، أو اصطناع الريث والأناة فى إقامته . على أن وزير الأشغال تفضل فأراح أنصار الخزان وخصومه من الجدال والنضال حول رأيه فى إقامة الخزان اليوم أو غدا ، وبعد أعوام ، أو العدول عنه جملة .

=فى حاجة إلى وسيلة جديدة . وثانيا لأن ضمير العالم لا يسمح قط لأية أمة أن تحبس المياه عن أمة أخرى فتسبب لها الجدب والشقاء والفناء . وثالثاً لأن فى مصر من المصالح الأجنبية المتشابكة وفى مقدمتها مصالح الإنجليز أنفسهم ما لا يمكن لانجلترا أن تفكر فى تعريضه للضياع والبوار . إنهم يزعمون أننا مضطرون إلى إقرار هذا المشروع لأن الانجليز يريدونه ، وإننا ندفع هذا الثمن لهم لبقائنا فى الحكم ، على أنى لا أفشى سرا إذا أعلنت أننا نحن الذين قمنا من ناحيتنا بمهمة إقناع حكومة السودان والحكومة الإنجليزية بقبول مشروعنا . إن مشروعا يساعدنا على استصلاح ٣٠٠ ألف فدان فى الوجه البحرى ، ٢٥٠ ألف فدان فى الصعيد لمشروع جليل النفع حقا . وهم يعلمون — يعنى المعارضين — أن الكثير من مديريات القطر المصرى قد اكتظ سكانها ، حتى صار كل ثلاثة أو أربعة أنفس يقومون باستغلال فدان واحد ، بينما نجد أن لكل نفس فى الولايات المتحدة خمسين فدانا) .

انظر جريدة الشعب فى ١٩٣٢/١/١٧ .

أراح الوزير خصوم الخزان ، لأنه كذب تكذيبا صريحا كل ما ذاع وشاع ، وملأ الأسماع من تردد الحكومة : ومن رأيه هو فى خزان جبل الأولياء ، أيقام أم ينام ؟

فلن يتناقش الناس منذ اليوم فى موقف وزير الأشغال من الخزان ، ولن يحتج به الخصوم والأنصار ، ولن يتكلف الأنصار الحيل والأعذار للوزير الذى يعمل فى وزارة لا يتفق معها فى الرأى ، وفى أشد المسائل اتصالا به ، بل فى مسألة يجب أن يكون أمرها إليه قبل كل إنسان .

فرغ الناس من هذا كله بهذا البلاغ اللبق الظريف المرن الذى أصدره وزير الأشغال ، وإن كان الذين يريدون أن يفهموا — ليفهموا ليس غير ، لا ليخاصموا ، ولا ليؤيدوا ، لم يتبينوا فى جلاء رأى الوزير فيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين فنه ، وفيما بينه وبين تقديره لحاجة مصر وطاقتها ومنفعتها .

لم يفهم هؤلاء الناس رأى الوزير : أهو من أنصار الخزان أم من خصومه ؟ وإنما فهموا (وهذا يكفى) من الجهة العملية أن الوزير لا يعارض ولا يمانع فى إقامة الخزان ، وإنه لم يحل ولن يحول دون الحكومة وما تريد من ذلك . وهذا معقول ، فقد اتخذت الحكومة قرارها ، ووزير الأشغال بعيد عن الحكم ، فهو إذن لا يحتمل تبعة هذا القرار . وقد لا يكون من الظرف ولا من حسن المجاملة أن يأتى فيعطل شيئا أو يحاول تعطيل شىء مضت فيه الوزارة قبل أن يشترك فيها .

هذا إذن شىء مفروغ منه ، أظهر وزير الأشغال موقفه من حيث إنه وزير ، واحتفظ برأيه الخاص لما بينه وبين الله ، ولعله ذكر وهو يصدر هذا البلاغ قول الشاعر القديم :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد؟

ولكن الناس لم يكونوا يتحدثون عن وزير الأشغال وحده ، ولا عن مجلس الوزراء وحده ، وإنما كانوا يتحدثون عن المستشار المالى الإنجليزى أيضاً .

كانوا وما زالوا يقولون ويؤكدون ويلحون فى القول والتأكيد إن المستشار المالى يرى أن طاقتنا المالية لا تسمح بإقامة هذا الخزان الآن .

والمستشار المالى كوزير الأشغال له بالطبع موقفان قد يتفقان فيصبحان موقفا واحداً . وقد يختلفان فيشتد بينهما الاختلاف ، أحدهما موقفه فيما بينه وبين نفسه ، والآخر موقفه فيما بينه وبين الحكومة التى يعمل فيها ويشير عليها . وقد يكون المستشار المالى ميالا جداً إلى إقامة الخزان لأنه إنجليزى لا يستطيع أن يهمل منافع الإنجليز ، ولا أن يمحو العاطفة الإنجليزية من نفسه . والناس يقولون إن للإنجليز فى إقامة هذا الخزان منفعة واضحة لا تحتمل الشك ، ولكن المستشار المالى رجل يقدر فيما يظهر موقفه الفنى وما يقتضيه هذا الموقف من النصح والأمانة ، وهو يعلم أن المستشار مأمون ، فيظهر أنه لم يتردد رغم إنجليزيته فى أن يشير على مصر بالتأنى فى إقامة هذا الخزان ، لأن طاقتها المالية لا تسمح بمثل هذه المغامرة الآن .

يعجبنى جداً هذا النحو من الشجاعة الذى يتيح للرجل أن يحب الشىء ويتمناه ، ويحرص عليه ولا يتردد مع هذا ، بل رغم هذا فى أن ينصح بالعدول عنه ، لأن الأمانة الفنية تأمره بذلك ، فهو يؤثر أمانته الفنية على إرضاء ميوله الخاصة وعواطفه القومية . والناس يؤكدون ويلحون فى التأكيد أن المستشار المالى قد وقف من خزان جبل الأولياء موقفا أقل ما يوصف به أن فيه نصحا للحكومة المصرية بالتريث والأناة .

وليس يعنينى أن يكون المستشار المالى قد قدم هذه النصيحة وهو يتمنى أن تقبل لتتحقق منفعة مصر ، أو ترفض لتتحقق منفعة الإنجليز ، وإنما الذى يعنينى أنه قدم هذه النصيحة بالفعل ، وأنه أظهر للحكومة المصرية منذ قدم نصيحته هذه واجبا واضحا جليا .

وقد يكون من الحق على الحكومة لنفسها أولا ، ولمصر ثانيا وللانجليز ثالثا أن تصدر بلاغا تريح الناس فيه من الكلام حول موقف المستشار المالى فى هذه المسألة ، كما أراحتهم من الكلام حول موقف وزير الأشغال .

فهل نصح المستشار المالى بالتأنى فى إقامة الخزان ، فإن كان الجواب: نعم ، فيجب أن يعلمه الناس ، ويجب أن تبين الحكومة حججها أو معاذيرها فى الإعراض عن هذه النصيحة . وإن كان الجواب : لا ، فيجب أن يعلمها الناس حتى لا يوصف المستشار المالى بغير ما فيه ، وحتى لا تتهم الحكومة بأنها تعرض عن نصيحة قد يكون فيها الخير ، وبأنها تميل إلى إرضاء الإنجليز أكثر مما يميل الإنجليز إلى ارضاء أنفسهم .

لقد أزعج الحزبان المؤتلفان رئيس الوزراء على حاجته الشديدة إلى الراحة والهدوء ، حين ثارت الخصومة فى مجلس النواب بين الاتحاديين والشعبيين حول إعانة الأوبرا ، ونستطيع أن نؤكد للحكومة أن موقف المستشار المالى من خزان جبل الأولياء له خطره ، وهو خليق بأن يتحدث فيه إلى رئيس الوزراء – على شدة حاجته إلى الراحة والهدوء – وهو خليق أن يسأل رئيس الوزراء عن الطريقة المثلى المعقولة التى ينبغى أن تسلك لتجليته وتوضيحه أمام الرأى العام .

لقد كان وزير الأشغال لبقا ظريفا فى بيان موقفه هو ، ولكن بيان موقف المستشار المالى يحتاج فيما يظهر إلى لباقة رئيس الوزراء نفسه . فلعنا نقرأ اليوم أو غدا بلاغا يكشف للناس عن وجه الحق فى هذه المسألة : أقال فيها المستشار شيئا أم لم يقل ؟ فإن تكن الأولى فماذا قال ؟

(٤)

كلام

أما أن نقول ونكثر القول فذلك شىء يسير ، وربما كان محببا إلى النفوس ، وأما أن نجتمع ونعددالاجتماعات فذلك شىء شاق بعض الشىء ، ولكن السبيل إليه سهلة أيضا ، وله مزاياه ، فقد نلتقى وقد يتحدث بعضنا إلى بعض ، وقد تتاح لنا فرصة القول والإكثار فيه .

١٢/٣/١٩٣٣ ، عدد ٢٣٣١

وأما أن ننشر أخبار الاجتماعات وما كان فيها من كلام فأمر لابد منه ليعلم الناس أنا لا ننفق أوقاتنا فى لعب وعبث ولكنا نجتمع ونلتقى ونسعى إلى هذا الاجتماع من أقصى أطراف المدينة ، ثم نتكلم ونتحمس ونصفق للكلام والحماسة ،ونتفق على وجوب الكلام والحماسة، ونجمع على قرارات فيها الإنكار والاحتجاج ، ثم ننتخب من يبلغ القرارات والاحتجاجات ويسعى هؤلاء إلى الوزراء والرؤساء ، وينشر سعيهم وحديثهم وما تلقوا من إقبال وإعراض .

كل هذا نفعله ، وكل هذا نرغب فيه ونحرص عليه ، وكل هذا يراه القراء فيرضون ويعلنون الرضى ، أو يسخطون ويكتمون السخط ، وكذلك أدت الصحافة واجبها ، وقامت بحق زميلها السجين ، ودافع الصحفيون عن أنفسهم يوم تدور عليهم الدائرة ، وتدول من حولهم الدول، ويتعرض كل واحد منهم لمثل ما يتعرض له توفيق دياب الآن ، وماتعرض له غيره من قبل .

أما وزير الحقانية فيبتسم ويطرق، ثم يرفع رأسه ويقول كلاما قديكون حلوا ، وقد يكون مرا ، ولكنه يدع توفيق دياب حيث هو ، ويبقيه فيما هو فيه .

وأما رئيس النواب ووكيل الشيوخ فيتظرفان ويتلطفان ويقولان كلاما قد يكون عذبا سائغا ، وقد يكون ملحا أجاجا ، ولكنه يدع توفيق دياب حيث هو الآن ، ويبقيه فيما هو فيه . ويعرض الصحفيين جميعا لمثل ما يلقاه هذا الصديق .

وأما النواب فنهم من يظهر العطف ، ومنهم من يظهر الاستهزاء ، ومنهم من يظهر الشماتة ، ولكنهم جميعا يحبون الأناة ، ولا يرون بأسا بأن يظل توفيق دياب حيث هو الآن ويبقى فيما هو فيه ، وأن يتعرض الصحفيون لمثل ما يتعرض له .

ولكن هناك قوة أخرى لا تدع توفيق دياب حيث هو ، وهى قوة الآلام والمرض التى قد تلح على صحته فتضنيها ، ولكن هناك قوة أخرى لا تبسط سلطانها على توفيق دياب وحده ، وإنما تبسطه على قوم آخرين ، هم أسرة توفيق دياب وأصدقاؤه وزملاؤه الذين يألمون ويشفقون على تفاوت فى الألم والإشفاق . ولكن هناك شيئا آخر قد يكون أعز من توفيق دياب ، وقد يكون أحوج إلى أن يدافع عنه من توفيق دياب ، وهو كرامة الرأى والصحافة التى تمتهن حين يعامل المفكرون والصحفيون معاملة اللصوص وقطاع الطريق العام : كل هذا فى حاجة إلى أن يعمل الصحفيون شيئا ، ولكن الصحفيين قد اجتمعوا غير مرة ، وخطبوا غير خطبة ، وقد زاروا الوزراء والرؤساء ، وقد نشروا فى الصحف أنباء هذا كله ، وهم يرون فيما يظهر أن هذا يكفى . أما الحقائق الواقعة فترى غير ما يرون ، فما زال توفيق دياب حيث هو يعامل معاملة المجرم العادى ، وما زالت كرامة الصحافة ممتهنة تدعو الصحافيين إلى استنقاذها من هذه الذلة ، وما زال شرف الصحفيين المصريين معرضا لسخرية الصحفيين الأجانب ، وما زالت حاجة الصحفيين المصريين إلى التضامن الصحيح الذى يقوم على الشعور الصادق بكرامة المهنة وكرامة النفس ، وحق الرأى فى أن يحترم ، ما زالت هذه الحاجة قائمة ، ولن يرضيها الكلام .

وإذن فما الذى يرضيها ؟ وما الذى يجب أن يصنع ؟

الذى يرضيها والذى يجب أن يصنع شىء يسير ، يسير جدا ، لا خروج فيه على نظام ، ولا مخالفة فيه لقانون ، وإنما هو شىء طبيعى مألوف يعمله الصحفيون جميعا إذا أهدرت حقوقهم ، أو انتهكت كرامتهم أو أبت السلطات أن تنصفهم . وهذا الشىء قد لا يحقق للصحافة ما تريد ، ولكنه يشعر السلطة ويشعر الشعب أن الصحافة قوة حقيقية ، لا تتكلم فحسب ، ولا تتخذ الكلام غاية لوجودها ، وإنما هى تتكلم لأنها ترى الكلام وسيلة إلى العمل .

هذا الشيء يحتاج إلى شجاعة يسيرة ، وتضحية يسيرة ، وشيء يسير جدا من الإيثار (١) الذى هو أقرب إلى الأثرة ، هذا الشيء هو احتجاب الصحف يوما أو أياما ، ولكنى واثق بأن الصحف لن تحتجب لأنها لن تتضامن مع الأسف الشديد فى تقدير ما يصيب كرامتها من الذلة والامتهان .

يوم تشعر الصحافة بكرامتها شعورا قويا واضحا يمكنها من التضحية ، ويهون عليها الاحتجاب يوما أو أياما تتخذ كل وسيلة لإرضائها ، وتقرير حقوقها ، وتصبح خليقة فى مصر بأن تسمى كما فى غير مصر صاحبة الجلالة الصحافة . فأما قبل هذا فلتسم نفسها ولتسمها أنت بما شاءت وشئت من الأسماء .

(٥)

عناد

زعم المصريون أن المستشار المالى نصح للحكومة المصرية ألا تتعجل إنشاء خزان جبل الأولياء ، ثم أكد المصريون هذا الزعم وجعلوه يقينا ، ثم نشرته الصحف وطلبت وطلبنا معها إلى الحكومة أن تبين للناس وجه الحق فيه . وقد أخذ الانجليز يزعمون وينشرون كما كان المصريون يزعمون وينشرون أن المستشار المالى لا ينصح بالمضى فى هذا المشروع الآن . وكل شيء يدل على أن الانجليز سيستيقنون بعد ما زعموا كما زعم المصريون ثم استيقنوا ، وإذن فمن المحقق (إلى أن تقول الحكومة المصرية غير هذا) أن الرجل الذى تصر الحكومة الانجليزية على بقائه فى منصبه بمصر رقيبا على تصرفات مصر المالية ، لا يريد أن يحتمل تبعة الصمت على هذا التصرف الغريب فى هذه الأزمة المنكرة ، ومعنى هذا كما قلنا من قبل أن المستشار الإنجليزى لا يتردد فى أن يقهر عواطفه الإنجليزية ، ويعرض عن المنافع الإنجليزية ، ويعلن إلى الحكومة رأيه مكتوبا ، وهو النصح بتأجيل المشروع الآن .

---

(١) الإيثار : أن تقدم مصلحة الآخرين على مصلحتك . والأثرة : حب الذات

(١) ١٣/٣/١٩٤٣ عدد ٢٣٣٢

كل هذا حق إلى أن تنفيه الحكومة نفيا صريحا واضحا ، لا يحيط به من الغموض والإبهام مثل ما أحاط بموقف وزير الأشغال من هذا المشروع .
وإذن فقد تمضى الحكومة فى إنشاء الخزان دون أن يحتمل الإنجليز فى ذلك تبعة ما ، بعد أن نصح ممثلهم الرقيب على تصرفاتنا المالية بالتريث والأناة نصحا لا لبس(١) فيه ولا غموض . فإذا كانت هناك تبعة فمصر الرسمية وحدها هى التى تحتمل هذه التبعة ، لأن الشعب قد كره المشروع وأعلن كرهه وألح فى العدول عنه أو فى تأجيله ، ولأن الإنجليز على حبهم للمشروع وكلفهم به وانتظارهم المنافع المختلفة من ورائه ، قد نصحوا على لسان المستشار المالى بتأجيله والتريث فيه. وليس يعنينا كما قلنا من قبل أن تكون نية الانجليز صادقة أو غير صادقة حين قدموا هذا النصح ، ولا أن يكون هذا النصح ملائما أو غير ملائم لأمانيهم ودخائل نفوسهم . وإنما الظاهر من أمرهم الرسمى وحده هو الذى يعنينا . وإذا كان الشعب المصرى الذى سينفق على هذا المشروع والذى سيحتمل آثاره الضارة أو سينعم بآثاره النافعة ، يكرهه ويلح فى العدول عنه ، وإذا كان الإنجليز أنفسهم ينصحون بتأجيله واصطناع الأناة فى تنفيذه ، فمن الحق على كل عاقل أن يسأل : واذن فلم مضى الحكومة فى هذا المشروع ؟ ولمن تريد الحكومة أن تقيم الخزان وقد كرهه المصريون وأظهر الإنجليز الزهد فيه ؟ من الحق على كل عاقل أن يسأل هذا السؤال ، ومن الحق على الحكومة أن تجيب على هذا السؤال ، وأن تجيب عليه فى صراحة ووضوح . ونظن أن الحكومة توافقنا على أن ذلك العصر الذى كانت تكره فيه الشعوب على ما لا تريد إكراها ، والذى كان سادتها وقادتها يعلنون فيه أنهم ينفعونها رغم أنوفها ، ويحققون لها الخير على كره منها ، قد انقضى وعفت آثاره ، وأصبحت الشعوب الآن تقدر حقها فى أن تريد أو لا تريد وفى أن تنتفع أو لا تنتفع ، وقد عصفت الحياة الحديثة بعصمة السادة والقادة ، وتنزيههم عن الخطأ فأصبحوا رجالا كغيرهم من الناس ، لا تكسبهم المناصب

---

(١) الأصل لبث ، ولعل الصواب ما أثبتناه

سيادة على الأمم ، ولا تمكن لهم فى الأرض ، ولا تتيح لهم أن يكرهوا الشعوب على ما لا تريد ، أصبحوا قوما تأجرهم الشعوب ليحققوا لها آمالها ومنافعها العامة كما تريدها ، لا كما يريدونها . فإن اتفقت آراؤهم مع آراء الشعوب فذاك ، وإلا وجب عليهم الإذعان لرأى الشعوب والتخلى عن مناصبهم .

انتقلت السيادة من الحكام إلى المحكومين فى هذه الأيام ، وأصبح المحكومون هم السادة ، وأصبح الحاكمون عمالا ، يعملون بأمرهم وينفذون قضاءهم ، وأنا أعلم أن هذا كلام قد تبتسم له الحكومة فى شىء كثير من الاستهزاء والسخرية ، لأنها لا ترضاه ، ولا تؤمن به ، ولكنى أعلم أيضا أن هذا الكلام هو وحده الذى يرضاه الشعب ويؤمن به ، ويطمئن إليه ، ويراه مرآة صادقة لما يملأ نفسه من الشعور بسيادته وحقه الخالص فى الإشراف على الأمور العامة .

الشعب إذن لا يريد هذا الخزان الآن ، والانجليز لا يلحون فيه ، ولا يصرون عليه ، فلمن تقيمه الحكومة ؟

ولندع النظريات ، فلو قد مالت الحكومة إلى تصور الصلة بينها وبين الشعب على هذا النحو الذى وصفناه ، والذى يقوم على سيادة الشعب وحده لأراحت نفسها من اللوم المتصل ، ولأراحتنا نحن من عهدها هذا الطويل السعيد ، ولتخلت عن الحكم ومناصبه منذ عهد بعيد .

لندع إذن هذه النظريات ولنسأل الحكومة عن الفائدة العملية التى تنتظرها هى لنفسها من إقامة هذا الخزان بعد أن ظهر فى وضوح وجلاء أن الأمة لا تنتظر الآن منه خيرا ، إنما تقدم الحكومة على الأعمال الخطيرة لأمرين : إما لتحقيق منفعة شعبية عامة ، وإما لتحقيق منفعة سياسية خاصة ، فما هذه المنفعة السياسية الخاصة التى تريد الحكومة تحقيقها بإقامة هذا الخزان ؟ كان الناس يقولون إن الحكومة تتقرب بهذا الخزان إلى الإنجليز لتستطيع الوزارة أن تبقى فى مناصبها ، ولكن الانجليز لا يلحون الآن فى هذا الخزان ، فهل ترى الحكومة أن من الكرامة أن تسرف فى الإلحاح إلى حيث تضع نفسها

موضع الذى يريد أن يكره الإنجليز على تحقيق منافعهم ، ويأخذهم بقضاء مآربهم السياسية رغم أنوفهم ؟ وهل من المصلحة السياسية الخاصة للحكومة عند المصريين وعند الإنجليز أنفسهم أن يقال عنها إنها تحرص على المنافع البريطانية أكثر مما تحرص عليها بريطانيا العظمى نفسها ؟

لست أدرى أتجد الحكومة أم تهزل ؟ فليس فى إصرارها على إقامة الخزان رغم المصريين ورغم النصيحة الإنجليزية الرسمية شىء من الجد ،وليس هذا الموضوع مما يصلح للهزل ، فيا له من هزل هذا الذى يعرض مالية الدولة للاضطراب .

لوزير الأشغال كلمة لا تخلو من ظرف ، ولكنها لا تخلو من عبرة وعظة . قال لبعض الصحافيين الذين تحدث إليهم منذ أيام « هاتوا لنا مياها بمقدار أربعة أمثال ما عندنا الآن ، ونحن نعرف كيف نوزعها » .

ومن المؤكد أن وزير الأشغال لن يضيق بأضعاف ما عندنا من الماء ، وأى شىء أيسر من التوزيع والتبديد ، والحكومة تقيم فى كل يوم أدلة واضحة قاطعة على أن التوزيع نفسه ليس معجزا ،ولا شاقا ، وإنما المعجز الشاق هو التوزيع المنتج الذى يفيد . إن الحكومة توزع أموال الدولة حتى تحتاج إلى أن تستدين وهى قادرة على أن توزع ما تستدين حتى تضطر إلى أن تستدين مرة أخرى . ويستطيع وزير المالية بالأصالة ، أو وزير المالية بالنيابة أن يقول هاتوا لنا أضعاف ما عندنا من المال ونحن نعرف كيف ننفقه . ليس شىء أيسر من الإنفاق ، ولكن المسألة هى أن نعرف أنافع هذا الإنفاق أم ضار ؟ أمفيد هو أو غير مفيد ؟ تستطيع المياه أن تكثر فقد يمهد لها الطريق إلى البحر ، وقد يمهد لها الطريق إلى الصحراء ، وقد تترك لها الحرية فتطغى وتهلك كل شىء ، ولكن المسألة التى لم يقل فيها وزير الأشغال شيئا ، هى قدرته أو عجزه عن توزيع هذه المياه بحيث تبعث فى أرض مصر الخصب والثروة .

والظاهر الذى يقال إن وزير الأشغال كان يؤمن به فى وقت من الأوقات ان هذا التوزيع المنتج المفيد ليس بالشىء اليسير الآن على أقل

تقدير . ما أجدر وزير الأشغال ، وقد جعلت الظروف إليه أمر وزارة المالية فى هذه الأيام أن يفكر فى إنفاق المال إذا كان يسيرا ، فقد يكون جمعه من العسر والمشقة أحيانا بحيث يضطر الحكومات والأمم إلى الإفلاس، وما أجدره وقد جعلت إليه الظروف شئون المالية ألا يمهد بيده سبيل مصر إلى هذا الشر الذى يشفق منه المستشار المالى الإنجليزى فينصح للحكومة بالانتظار.

(٦)

الشهداء

كنا(١) طلابا فى باريس ، منا من بدأ الدرس منذ أشهر ، ومنا من ينتظر إتمام الدرس بعد أشهر . منا حديث العهد بمصر ، فارقها آخر الصيف ، ومنا بعيد العهد بمصر ، فارقها قبل أن تعلن الحرب الكبرى. منا من طال به المقام فى بلاد الغربة ، وفى أعوام كلها صروف وخطوب وظروف كلها محن ونوب ، فهو مشوق إلى أن يعود إلى وطنه وقد أدى عمله أداء حسنا ، وأرضى حاجته من العلم والتحصيل ، واعتقد أنه قادر على أن يعود لينفع بلاده ، ويحيي فيها ما تنقصه الحياة ، ومنا من يستقبل الحياة الغربية على جهل لها وشوق إليها ، وأمل فى أن يستقبل خيرا ، ويفيد خيرا ، ويعود إلى وطنه وقد ملأ يديه مما ينفع الناس ويحيي الآمال. وكانت الحياة من حولنا قد أخذت تهدأ وتستقر ، وانقضت الحرب بالمدافع وما إليها من أدوات التدمير والإهلاك ، واضطربت حرب الألسنة والأقلام حول معاهدات الصلح ونظم السلام . وكانت الأمم قد أمنت على ما بقى من نفوسها ودمائها ، ولكنه أمن مضطرب شديد القلق ، فيه خوف أن تضاف إلى هزيمة الحرب هزيمة الصلح ، فتموت الآمال ، ويستأثر اليأس بالقلوب . وفيه خوف أن لا يعقب الانتصار فى الحرب انتصارا فى السلم ، وأن تذهب عبثا تلك الجهود الهائلة التى بذلتها الأمم المنتصرة من الأنفس والأموال ، ومن الأمانى والآمال فى سبيل الانتصار الشامل.

---

(١) ١٩٣٣/٣/١٥ عدد ٢٣٣٤

وكنا نحن المصريين فى هذا كله نعيش عيشة هادئة مطمئنة ، ولكنها لا تخلو من ذلة وانكسار . كنا مضطربين بين الإنجليز الغاصبين فى مصر ، المنتصرين فى أوربا ، والترك الذين كانوا أصحاب السيادة فى مصر ، وكانوا يتجرعون مرارة الهزيمة فى بلادهم . وكنا نود لو نفضنا عن أنفسنا سيادة هؤلاء الإسمية ، وسلطان أولئك الفعلى ، وقلنا إننا مصريون فحسب ، ولكنا لم نكن نجد إلى هذا سبيلا .

وكانت الإدارة الفرنسية تراقب الأجانب وتسىء الظن بهم ، وترسل إليهم من حين إلى حين من رجال الشرطة من يزورهم ويفتش عن أحوالهم ، وتدعوهم من حين إلى حين إلى الأقسام فتنظر فى أوراقهم وتسأل عن أعمالهم ، ثم تردهم موفورين .

ومهما أنس فلن أنسى يوما دعيت فيه إلى القسم لتنظر الشرطة فى أوراقى ، وتسأل عن أعمالى . فلما أخذ المأمور يتحدث إلى سألنى عن جنسيتى ، قلت : مصرى . قال : وإنما أسأل عن تبعيتك . قلت : مصرى . قال : ما نعرف أن لمصر هذه المنزلة . قلت : فلست أعرف لى تبعية أخرى . ففكر قليلا ثم قال فى صوته الفرنسى الضخم ، وكأنه قد ظفر بشىء غريب ، لقد عرفت . أنت رعية مصرى ، وحماية إنجليزى . وخرجت محزون القلب ، منكسر النفس ، كاسف البال ، تدور فى رأسى هذه الجملة ، وكأنها العجلة المحددة الأطراف تمزق ما تدور فيه . « أنت رعية مصرى ، وحماية إنجليزى » .

ولقيت آخر النهار نفرا من زملائى المصريين فأقص عليهم هذه القصة ، فإذا كلهم قد سئل هذا السؤال ، وسمع هذا الحديث ! ونحن نحس هذا الألم اللاذع الذى تجده القلوب وتعرب عنه الألسنة ، وتعجز الأيدى عن أن تدفعه أو تغيره .

كذلك كنا فى باريس بعد أن أعلنت الهدنة ، ووضعت الحرب أوزارها ، ولكن أنباء تصل إلينا من مصر تهتز لها رءوسنا وأكتافنا

فتعرب عن هذا اليأس الحزين الذى يشعر به من يرى الأمل السامى العريض ويعلم من نفسة العجز عن بلوغة والوصول إليه . وتتصل الأنباء ، ثم تتصل ، وإذا هى كلما اشتد اتصالها اشتدت قوتها ، وإذا هى لا تهز الرءوس ولا الأكتاف ، وإذا هى ترسم على الثغور ابتسامة يسيرة ، وتبسط على الجباه نورا ضئيلا ، ثم تتصل الأنباء وتقوى فتزداد الابتسامات سعة وبهجة ، ويزداد نور الحياة جمالا وإشراقا ، وتنطلق الألسنة بأحاديث قصار تتردد فيها « ليت ولو » وتختمها هذه الكلمة الحلوة المرة فى مثل ماكنا فيه : من يدرى ؟ ثم يأتى النبأ العظيم فإذا الابتسام ضحك ، وإذا الوجوه كلها إشراق ، وإذا السكون حركة ، وإذا الجمود نشاط ، وإذا نحن سرور كلنا ، وابتهاج كلنا ، يسعى بعضنا إلى بعض ؟ ماذا أقول ؟ يسرع بعضنا إلى بعض فيقبل بعضنا بعضا ، ويهنىء بعضنا بعضا ، وتجرى على هذه الوجوه المشرقة دموع حارة ، ولكن فى حرارتها برد الأمل والرجاء .

مصر ثائرة ، مصر تقاوم الانجليز ، مصر تنهض فى وجه أوربا المنتصرة ، تطلب إليها البر بالوعد ، والوفاء بالعهد . مصر تقدم زعماءها إلى النفى . مصر تعرض صدور أبنائها إلى الرصاص . مصر تخضب أرضها بدماء المصريين . والصحف الفرنسية تنشر هذا بالحروف الضخمة والخط العريض ، وتتحدث عن هذا فتوجز وتطيل ، ورءوسنا نحن قد ارتفعت كأن لها حاجة فى السماء ، وقد استقامت ، تلقى الفرنسيين فتسألهم باسمة : ماذا تقولون فى أبناء مصر ؟ أو تحتفظ بالصمت عن هذه الأنباء ، وتدور بالحديث حتى تجره إليها ليبدأ الفرنسى فيقول : حدثنى ماذا تنشر الصحف عن بلادكم ؟ إن عندكم لثورة وما أظن إلا أن سيكون لها خطر . وكنا حينئذ نفيض فى الحديث عن هذه الثورة ، ولعل منا من لم يكن يتحرج عن المبالغة والإغراق ، ثم يصل الوفد إلى باريس ، وإذا نحن نهرع إليه ، ونستمع منه ، وإذا نحن لا نسمع منه إلا أحاديث كلها ابتهاج بما كان ، وأمل فيما سيكون ، وإعجاب بمصر اليوم ، وثقة بمصر غدا .

رحم الله شهداء سنة ١٩١٩ ، لقد صغرت حياتهم فى نفوسهم لنكبر نحن فى نفوسنا . لقد ماتوا فأحيانا موتهم .

رحم الله الشهداء . لم يكن أحد منهم يفكر فى أحد منا ، بل لم يكن أحد منهم يعرف أحدا منا ، إنما كانوا يفكرون فى مصر ، ويعرفون مصر ، ويبذلون نفوسهم فى سبيل مصر . وكنا نحن نحيا بهذا كله ، بل بأنباء هذا كله .

فى ذمة الله ، وفى سبيل الوطن هذه الأرواح الطاهرة الكريمة التى ذهبت فداء لاستقلال مصر وكرامتها ، وشقت لها طريقها إلى المجد والعلاء فى هذا العصر الحديث ، فقد اختلفت علينا ظروف الحياة ، وستختلف علينا ظروف الحياة . لقد لقينا الخير والشر ، ووجدنا الرضا والسخط ، وسنلقى هذا وذاك ، وسنأخذ بحظنا من هذا وذاك ، ولكنا ذكرنا دائماً ، وسنذكر دائماً أن هذه الأرواح الطاهرة الكريمة هى التى أذاقتنا طعم العزة القومية لأول مرة ، وهى التى أنبأتنا فأقنعتنا بأننا نستطيع أن نكون كغيرنا من الناس أعزاء كراما مستقلين .

شهداء حقا هؤلاء الذين ذهبوا فى سبيل مصر سنة ١٩١٩ ، وشهداء حقاً هؤلاء الذين قفوا آثارهم بعد ذلك ، فماتوا كما مات هؤلاء فى سبيل الحرية والعزة والاستقلال . هم شهداء لأنهم ضحوا بنفوسهم وآمالهم فى سبيل فكرة ، هى فكرة الاستقلال . وهم شهداء لأنهم اندفعوا إلى هذه التضحية بهذه العاطفة الدينية المقدسة التى لا يقف فى سبيلها شىء ، والتى لا تتردد فى أن تتخذ الأخطار مهما تعظم وسيلة إلى الفوز ، ومصعدا إلى المثل الأعلى .

هم شهداء لأنهم مجهولون ، هم شهداء لأنهم مغموطون . ألست ترى أنهم ما يزالون مضطهدين إلى الآن ؟ ألست ترى أن السعى إليهم يحذر ؟ وأن التحدث عنهم لا يجب وأن ذكرهم يخاف منه على النظام ؟

هم شهداء يوم لقوا الموت ، وهم شهداء يوم تلقى ذكراهم ألوان الاضطهاد . أرواحهم فى جنة الخلد ، وذكراهم فى قلوب المصريين جميعاً . ولئن حيل بين الناس وبين ما يريدون من إقامة هذه الحفلات والمظاهر التى لا تنفع الشهداء أنفسهم ، وإنما تنفع الناس لأنها تحيي فيهم هذه العواطف المقدسة التى يجب على كل حكومة وطنية أن تحياها ، عواطف الحب للوطن والتضحية فى سبيله : فلن تحول قوة فى الأرض بين قلوب الناس ، وبين إحياء هذه الذكرى . ستعمر قلوب الناس بهؤلاء الشهداء دائما ، وسيظل هؤلاء الشهداء أمام نفوس الناس دائماً مثلا عليا لافتداء الوطن بأعز شىء عليهم حتى الحياة .

(٧)

استقلال

ولست(١) أريد الاستقلال السياسى ، فحديث الاستقلال السياسى لا ينقضى ، ونحن فيه كل يوم حتى يتحقق هذا الاستقلال بالفعل ، وحتى تصبح أمور مصر إليها حقا .

إنما أريد استقلال الجامعة ، فقد يظهر أنه غير مفهوم على وجهه ، إما لأن كثيراً من الناس حديثو عهد بالجامعات ، وهم لا يكادون يعرفون من أمرها شيئا ، وإما لأن فريقا من الناس يسرفون فى خداع الجمهور وتضليله ويصورون له الأمر على غير صورته الواقعة التى ترى فى كل بلد له حظ من النظام الجامعى الصحيح . وان شئت فقل إن هذين الأمرين جميعا هما العلة فى أن الناس لا يفهمون استقلال الجامعة كما ينبغى أن يفهم . وهؤلاء الناس أكثر جدا مما تظن ، فهم لا يقفون عند قراء الصحف وجماعة المثقفين الذين

---

(١) ١٩٣٣/٣/١٧ عدد ٢٣٣٦

يستطيعون أن يتحدثوا فى الأمور العامة ، بل يتجاوزونهم إلى هؤلاء الذين جعلت إليهم الظروف أمور السلطة التشريعية فى هذا البلد ، فقد ظهر من الجدال اليسير الذى أثير حول الجامعة فى مجلس النواب أن علم المشرعين بأمور الجامعة والنظم الجامعية ليس أصح ولا أوسع ولا أعمق من علم عامة الناس. وظهر أن نوابنا أنفسهم ينقسمون إلى قسمين : فريق لا يعرف من امر الجامعة شيئا ، ولا يستطيع ان يعرف من أمرها شيئا ، لأن حياته وتربيته وحظه من الثقافة لا تسمح له بأن يعرف من أمرها شيئا ذا بال . وفريق آخر قد يعلم أو يستطيع أن يعلم من أمر الجامعة شيئا ، ولكن السياسة قد اضطرته إلى أن يخفى علمه ويصوره تصويرا خاصا لزملائه النواب .

فسألة الجامعة فى مصر الآن كغيرها من المسائل سياسية قبل أن تكون علمية ، وهى لا تقوم على النظر إلى العلم من حيث هو ، وإنما تقوم على النظر إلى المنفعة السياسية للذين يشرفون على الأمور عندنا فى هذه الأيام. وما دامت المسألة سياسية فالأمر فيها واضح جلى ، لا لبس فيه ولا غموض فأنت تعلم أن هناك مذهبين فى السياسة يتنازعان السلطان فى مصر : أحدهما مذهب الذين يحكمون الشعب للشعب ، وآخر مذهب الذين يحكمون الشعب لأنفسهم قبل كل شىء ، وبعد كل شىء ، وفوق كل شىء . وأنت تعلم أن الذين يريدون أن يحكم الشعب للشعب بعيدون الآن عن السلطان ، وأن الذين يحكمون الشعب لأنفسهم هم الذين قد جعلت إليهم أمور الحكم . فن الطبيعى إذن أن ينظروا إلى كل أمر من الأمور من حيث إنه يلائم مذهبهم فى السياسة أو لايلائمها .

وهم إذا نظروا إلى استقلال الجامعة من هذه الناحية لم يترددوا فى أن كل استقلال يترك للجامعة خطر عليهم ، يقص من أجنحتهم ، ويقلم من أظفارهم ، ويقبض سلطانهم قليلا أو كثيرا . فلابد إذن من أن يضيق حظ الجامعة من الاستقلال ما كان إلى التضييق سبيل . وكذلك فعلت الحكومة حين عدلت قانون الجامعة الذى أصدره البرلمان القديم ، وكذلك فعل مجلس النواب حين أقر هذا التعديل منذ يومين أو ثلاثة كما كان يريد الوزير .

وأغرب ما فى أمر هذا التعديل أن اللجنة البرلمانية فى مجلس النواب درست هذا التعديل ، ووضعت عنه تقريرا رفعته إلى المجلس ، فخدعت نفسها ، أو خدعها ممثل الوزارة أمامها عن نظام الجامعات فى أوروبا ، ونشأ عن هذا أنها خدعت مجلس النواب نفسه ، وأكبر الظن أن كثيراً من أعضاء المجلس لم يقرأوا التقرير . ولم يقرأونه؟ وهم يثقون باللجنة ، ويعلمون أنها لن تخدعهم ولن تخدع نفسها ، ويثقون بالوزير ويعلمون أنه لن يطلب إليهم إلا ما ينبغى أن يطلب ، ولن يقول لهم إلا ما ينبغى أن يقال ، ولن يأتى من الأمر إلا ما يوصل إلى تحقيق السياسة التى ينبغى أن نخضع لها فى هذه الأيام . وهى سياسة استئثار القلة الممتازة المعصومة بحقوق الكثرة الجاهلة الغافلة التى خلقت للطاعة ، لا للحكم .

زعمت اللجنة فى تقريرها ، أو زعم لها ممثل وزارة المعارف أن الجامعات الأوربية إذا استمتعت بحظ عظيم من الاستقلال ، لا تستمتع به جامعاتنا ، فذلك لأن هذه الجامعات غنية ، لا تنفق عليها الحكومات ، ولا تستمد أموالها من ميزانية الدول ، فليس ينبغى أن يكون للحكومات عليها سبيل . وهذا مع الأسف غير صحيح إلا فى بلاد الإنجليز .

فمما لا شك فيه أن الجامعات الفرنسية مثلا تقوم على أموال الدولة ، وقد توهب لها الأموال ، ولكن هذه الهبات ليست شيئا بإزاء ما تنفق عليها الدولة فى كل عام . وهى إذا ظفرت باستقلالها العظيم ، فإنما تستمده من السنن والتقاليد ، وتستمده من فهم الحكومات بحاجة العلم الصحيح إلى الاستقلال ولسمو الجامعات فوق الأهواء والشهوات الحزبية .

ومهما يكن من شىء فقد خيلت اللجنة إلى مجلس النواب أن الحكومة تنفق على الجامعة فيجب أن تسيطر عليها ، ولم تفكر اللجنة ولم يفكر معها المجلس أن الحكومة تنفق على القضاء أيضا ، وأنها لا تستطيع مع ذلك أن تشرع قانونا يمكنها من السيطرة عليه ؛ فالحكومة لا تنفق على الجامعة ، ولا على القضاء من أموالها الخاصة ، لأن الحكومة لا تملك مالا خاصا ،

وإنما تنفق على الجامعة والقضاء من أموال الأمة التى تملك وحدها أن تسيطر على كل شىء .

ونشأ عن هذا التصور الغريب أن الحكومة صاغت للجامعة قيدا منكراً عنيفاً ثقيلا ، لم يلتفت إليه مجلس النواب ، أو التفت إليه ولم يحفل به ، ولن تجد له شبيها فى بلد من بلاد الأرض ، ولن تستحق الجامعة معه أن تسمى جامعة ، ولا أن تكون جامعة مصرية وطنية ، ولا أن تؤدى أمانة العلم الخالص الصحيح كما ينبغى أن تؤدى . وهذا القيد هو مجلس الجامعة كما يؤلفه القانون الجديد ؛ وكما يوزع عليه الاختصاص والسلطان .

كانت الكثرة العظيمة فى مجلس الجامعة حسب القانون الذى أصدره البرلمان تتألف من الجامعيين ، فقد كان لكل كلية فيه ثلاثة هم : العميد وعضوان ينتخبهما مجلس الكلية انتخابا حراً ، لا يتقيد بشرط ، فكان عدد الجامعيين فى المجلس اثنى عشر عضوا ، يضاف إليهم المدير وهو جامعى أو ينبغى أن يكون جامعيا على كل حال . فكان للجامعة ثلثا أعضاء المجلس ، وكان هذا المجلس يقضى فى أمور الجامعة كلها ، لا راد لقضائه فى كثير من الأشياء . وللوزير حق الاعتراض فى بعضها ، ولم يكن للوزير على كل حال أن ينفرد بالقضاء فى أمر من أمور الجامعة .

أما الآن فلم يتغير عدد الجامعيين فى المجلس ظاهرا ، ولكنه فى حقيقة الأمر قد أصابه تغيير خطر . فقد أصبح وكيل العميد عضوا فى المجلس بحكم منصبه ، وقد أخذ الوزير لنفسه حق تعيين الوكيل ؛ فأصبح خاضعا للوزير خضوعا مباشرا ، وأصبح عضوا فى المجلس بالتعيين ، لا بالانتخاب ، وأصبح العضو الآخر الذى يمثل الكلية مع العميد والوكيل فى المجلس ، يشترط فيه أن يكون أستاذا ذا كرسى ، وأن يؤخذ فى المجلس حسب الأقدمية فهو أيضا عضو معين . ومعنى هذا أن أساتذة الجامعة قد حرموا حق الانتخاب لمجلس الجامعة ، أو ضيق عليهم فيه ، كما ضيق على كثرة الشعب فى انتخاب النواب :

فالفكرة السياسية التى أشرفت على تعديل قانون الجامعة ، وهى أن الانتخاب سلاح خطر ، يجب أن لا يوضع فى أيدى المصريين إلا بحساب، وفى ظل مراقبة شديدة ، لأن المصريين سواء منهم العلماء وعامة الشعب أطفال لم يبلغوا سن الرشد بعد ، فيجب أن تقوم الحكومة منهم مقام الوصى .

ولم يقف الأمر عند تأليف المجلس بالقياس إلى الجامعيين ، بل تجاوزه إلى اختصاص هذا المجلس وتصرفه فى أمور الجامعة ، وهنا موضع الخطر السياسى المنكر الذى يفقد الجامعة كل قيمة علمية إذا صدر هذا القانون .

ذلك أن هذا المجلس يؤلف مجلسين ، أحدهما جامعى مقيد ، والآخر حكومى مطلق . فأما الأول فهو المجلس الذى أشرت إليه آنفا ، وهو يقضى فى الأمور التعليمية الخاصة كبرامج الدرس ونظم الامتحان ، وقضاؤه خاضع لسلطان الوزير . فإذا جد الجد ، وكانت المسائل التى تحتاج فيها الجامعة إلى الحرية والاستقلال ، جاء المجلس الثانى ، وهو يتألف من موظفين ، وموظفين ليس غير . سبعة تختارهم الحكومة ، يضاف إليهم مدير الجامعة الذى تعينه الحكومة ، ويضاف إليهم عمداء الكليات الذين يعينهم الوزير ، والذين يؤجرون على قيامهم بعمل العميد . فأما وكلاء الكليات الذين يعينهم الوزير ولكنهم لا يؤجرون على وكالتهم ، وأما الأعضاء الآخرون الذين يصلون إلى المجلس بحكم كراسيهم ، فأولئك وهؤلاء يقصون عن المجلس حين يعرض للمسائل ذات الخطر . وعلى هذا النحو تضمن الحكومة أن تسير الأمور فى هذا المجلس على ما تشتهى . وأى أمور هى التى لا وجود للجامعة بدونها؟ هى ميزانية الجامعة ، هى التصرف فى أموال الجامعة . هى تعيين الأساتذة والمدرسين ونقلهم وترقيتهم وتأديبهم . أرأيت أن السلطة الحقيقية فى الجامعة قد جعلت إلى هذا المجلس الحكومى .

فالحكومة هى التى تقضى وحدها فى ميزانية الجامعة ، والحكومة هى التى تختار الأستاذ أو تنقله أو ترقيه أو تؤدبه . فالأستاذ خاضع فى حياته

الجامعية كلها لسلطان الحكومة ، لا شيء يضمن له الحرية العلمية ، لاشيء يعصمه من بأس الحكومة وبطشها . فإذا استطاع مع هذا أن يكون حرا فى الرأى أو فى البحث العلمى فويل لهمن سلطة الحكومة وتأديب الحكومة .

على هذا النحو عدل تأليف مجلس الجامعة ، وعدلت اختصاصات مجلس الجامعة . ولعلك توافقنى على أن أظهر شيء فى هذا التعديل إنما هو استئثار الحكومة بالسلطان. وهذا شيء لا غرابة فيه ما دامت قاعدةالسياسة المصرية الآن هى أن الحكومة إنما تحكم الشعب لنفسها ، لا للشعب ، فليس سلطانها أداة شعبية توجه إلى خدمة المصالح العامة ، وإنما هو أداةحكومية توجه إلى تمكين الحكومة من السيطرة على كل شيء .

أفهمت الآن سر هذا الكيد الذى يدبر للجامعة منذ تغير فى مصرنظام الحكم ؟كانت الجامعة واسعة على مصر ، كماكان الدستور واسعا على مصر وقد ضيق الدستور ، فليضيق نظام الجامعة .

إن الذين يبسمون حين يذكرونوزير التقاليد ، لأنهم يعرفون أنهرجل طيب القلب ، يسير التفكير ، قد لا ينفذ عقله إلى هذه السياسة العميقة ، خليقون أن يفكروا فى أن اطيب الناس قلبا ، وأيسرهم تفكيرا ، وأقلهم نفاذ بصيرة قد يستطيع أن يكون أداة للسياسة الخطرة على النظم الديمقراطية وعلى حرية الشعوب إذا وجد الرجل الذكى الذى يسيره فيحسن تسييره ، ويوجهة فيحسن توجيهه إلى ما يريد .

وقد وجد هذا الرجل الذكى الذى استكثر الدستور فضيقه واستكثر الجامعة فضيق نظامها ، وأحسن تسيير وزير التقاليد لما أراد ، وأصبحت الجامعة كما ترى شيئا ينتفع باسمه فى الإعلان ونشر الدعوة ، ولكنه عاجز كل العجز عن أن يؤدى أمانته العلمية كما تؤديها الجامعات .

نعم ، وجد الرجل الذكى الذى أحسن توجيه وزير التقاليد ، ومن الذى يستطيع أن يشك فى ذكاء رئيس الوزراء ، ومن يعين رئيس الوزراء ؟

(٨)

ائتلاف

لم أصدق(١) فى يوم من الأيام أن لرئيس الوزراء حزبا سياسيا يمكن أن يسمى بهذا الاسم ، ولم أحسب فى يوم من الأيام حسابا لما يسمونه حزب الاتحاد ، ولم أعتقد فى يوم من الأيام أن هذه الجماعات التى تظهر الوزارة القائمة أنها تعتمد عليها وتعتز بها ، جماعات منظمة حقا ، تقوم نظمها على أصل من أصول السياسة التى تسير الأمم والشعوب فى طريق من طرق الرقى المعتدل أو المتطرف ، إنما هى جماعات تتألف من أفراد لهم مآرب ومنافع يتحقق بعضها من تولى مناصب الحكم ، ويتحقق بعضها الآخر من الاتصال بالذين يتولون مناصب الحكم ، فكل امرىء سمحت له الظروف أن يشرف على تدبير الأمور فى مصر ، ووجد من الإنجليز رضى وتأييدا ، أو إهمالا وإغضاء فهو قادر على أن يؤلف هذه الجماعات ، وهو قادر على أن يفرقها ، وهو قادر على أن يعزها ويوليها النعمة والعطف ثم يظهر بعد ذلك أنه يعتز بها ويعتمد عليها . وهو حين يظهر ذلك يعلم حق العلم أنه لا يخدع أحدا ، ولا يخيل إلى أحد صحة ما يظهر ، أو صدق ما يقول .

ولو أن رئيس الوزراء بداله فرأى أن يتخذ أنصاراً وأعواناً آخرين مكان من يسميهم اليوم أنصاره وأعوانه لما استطاع حزب الشعب أن يتنكر له ، ولما استطاع حزب الاتحاد أن يبدى له صفحا أو يظهر عليه سخطا . وآية ذلك أنه غضب على ثلاثة من أعوانه وزملائه السابقين ، أحدهم كان

---

(١) ١٩٣٣/٣/١٩ ، عدد ٢٣٣٨

وكيلا لحزب الاتحاد ، وكان روحه وقلبه وعقله ؛ والآخران كانا فيما يقول الناس زعيمين عظيمين من زعماء حزب الشعب ؛ غضب عليهم رئيس الوزراء فأخرجهم من وزارته ، ولم تنتطح فى إخراجهما من هذه الوزارة عنزان ، كما يقول المثل القديم .

فأما حزب الاتحاد فأذعن ورضى ، ولم يكتف بالإذعان والرضى ، بل خذل وكيله ؛ ولفظ روحه ، وجاد بنفسه ، وقبل استقالة ماهر باشا من وكالة الحزب .

وأما حزب الشعب فلم يتردد فى الإذعان والرضى ، وإنما قدم الطاعة صاغرا ، وخذل دوس باشا وقبل استقالة عبد الفتاح يحيى باشا . واستطيع أن أؤكد لك أن رئيس الوزراء قادر على أن يلحق معالى حلمى عيسى باشا بزميله على ماهر باشا ، وهو إن فعل لم يلق من حزب الاتحاد امتناعا ، ولا إباء ، لأن حزب الاتحاد فى نفسة لا يقدر على امتناع ولا إباء . واستطيع أن أؤكد لك أيضاً أن رئيس الوزراء قادر على أن يلحق سعادة علام باشا وصاحب العزة على المنزلاوى بك بزميليهما السابقين توفيق دوس باشا وعبد الفتاح يحيى باشا ، دون أن يلقى من حزب الشعب إلا طاعة وإذعانا ، وإلا شكراً له وثناء عليه ، وابتهالا إلى الله — عز وجل — أن يمد فى عمره ، ويسبغ علية ثوب الصحة والعافية ضافيا فضفاضا ، لأن حزب الشعب إنما وجد برئيس الوزراء ، ولم يوجد رئيس الوزراء بحزب الشعب .

فلا تقل إذن إن فى مصر الآن وزارة ائتلافية ، لأن مثل هذه الوزارة لا تقوم إلا إذا وجد حزبان أو أحزاب تستطيع أن تأتلف وتستطيع أن تختلف ، وتستطيع أن تسير سياسة الدولة ، وتستطيع أن تنزل رئيس الوزراء على حكمها ، لا أن تنزل هى على حكم رئيس الوزراء . إنما فى مصر وزارة صدقى باشا ، فهو الذى يجمع أصحابه ويفرقهم ، وهو الذى يرتفع بأصحابه إلى مناصب الحكم ، ثم يهبط بهم إلى منازل غيرهم

من الناس . وهو الذى يحدث بين أصحابه الائتلاف ، ويستطيع متى أراد أن يحدث بينهم الاختلاف ! فإذا كان صدقى باشا يستطيع أن يأتلف مع نفسه ويختلف ، فأنت تستطيع أن تقول إن وزارته ائتلافية ! إنما رئيس الوزراء صاحب شطرنج ، يقدم على رقعته ويؤخر كما يريد له فنه ومهارته فى هذا الفن . ومتى رأيت قطعة أو قطعا من أحجار الشطرنج تشير على اللاعب أو تتحدث إليه ، أو تخالفه وتنازعه فيما يخضعها له من تقديم وتأخير ؟ ولا تقل إن رئيس الوزراء مسئول عن سياسة الدولة ، فله إذن أن يختار أعوانه ، وأن يتخفف منهم إذا ثقلوا عليه ، لأن احتمال التبعات يقتضى مثل هذا الحظ من الحرية فى التغيير والتبديل ، وفى التقطيع والتوصيل . فإن رؤساء الوزارات لا ينهضون بالحكم ويحتملون التبعات نيابة عن أحزابهم . فسياستهم رهينة برضا الأحزاب بحيث تستطيع هذه الأحزاب أن تأمرهم فإذاهم يتخلون عن مناصب الحكم فى غير تردد ولا امتناع .

أفتستطيع أنت أن تتصور أن حزب الشعب يجتمع يوما من الأيام فيعلن سخطه على سياسة رئيسه ، أو يفعل ما هو دون هذا فيطلب إلى أحد وزرائه أن يدع منصبه ؟

أفتستطيع أن تتصور أن حزب الاتحاد يستطيع أن يجتمع يوما فيطلب إلى من يمثله فى الوزارة أن يدع الوزارة ؟ إذن لا نحل حزب الشعب وحزب الاتحاد ، أو لرفض الوزراء الذين تأمرهم أحزابهم بالاستقالة أن يستقيلوا ، ولغدوا إلى دواوينهم كل صباح ، وراحوا إلى بيوتهم كل مساء ، ولاضطر أعضاء الأحزاب أن يغدوا عليهم فى الدواوين ، ويروحوا إليهم فى البيوت معتذرين مستعطفين ؛ واعدين بأنهم لن يعودوا إلى مثل هذه الثورة الجريئة . . . ! !

وعلى غير هذا النحو لا يستطيع إنسان له حظ من فهم أو تفكير أن يفسر هذا النشاط الخصب الغريب الذى يصطنعه رئيس وزرائنا فى العزل

والتقل ، وفى الإقالة وطلب الاستقالة حتى أصبحت وزارته الآن أبعد ما تكون عن وزارته يوم ألفها منذ أكثر من عامين . ليس من الحق إذن أن الوزارة القائمة تمثل أحزابا أو هيئات منظمة ، إنما الحق أن هذه الوزارة تمثل فردا بعينه ، قد اجتمعت فيه هذه الهيئات التى يقال إن الوزارة تتألف منها ، وهو رئيس الوزراء .

ومع أن الذين يحكموننا فى هذه الأيام إنما يصدرون فى أكثر أعمالهم وأقوالهم عن فكرة واحدة ، هى أن الشعب قاصر ضعيف فيجب أن يكون أمره إلى الأوصياء ، لا إليه ، فقد فهم هذا الشعب القاصر منذ اليوم الأول حقيقة الصلة بين رئيس الوزراء وزملائه ، وبين رئيس الوزراء وهذه الهيئات التى زعم أنه يعتمد عليها ويعتز بها . فلم يصدق أنه يعتمد على حزب أو يعتز بجماعة مصرية منظمة ، وإنما استيقنوا أنه يعتز بهذه القوة او بهذه القوى الخفية المسيطرة التى تحدثت عنها الأهرام منذ يومين ، ولم ينتظر أن يكون ما قد يصيب الوزارة من خير أو شر أثرا لرضا هذه الأحزاب أو سخطها ، وإنما انتظر أن تتأثر الوزارة بهذه القوة أو القوى التى أنشأتها وأيدتها وما زالت تؤيدها وتسيرها أيضاً . وهذا وحده هو السبب فى أن الذين يحبون الوزارة والذين يكرهونها لا ينتظرون لها البقاء ، ولا الانحلال من رضى البرلمان عنها أو سخطه عليها ، وإن كان الدستور يجعل إلى البرلمان إبقاء الوزارة وإسقاطها إنما ينتظرون هذا أو ذاك من هذه القوة الخفية المسيطرة المدبرة التى تظهر فى القاهرة حينا ، وفى لندرة أحيانا . والناس معذورون إذا فكروا فى الانجليز وانتظروا الخير أو الشر للوزارة من الانجليز لأنهم لم يروا قط من البرلمان خلافا على الوزارة أو مخاصمة لها أو ترددا فى تأييدها . ونادر جداً أن تجرى الأمور بين الوزارة والبرلمان على هذا الوفاق الغريب رغم العواصف العنيفة التى تعصف بالبلاد فى هذه الأيام . وهذا أيضاً هو الذى أتعب الناس فى فهم ما يسمونه الجو السياسى ، وفى التماس الرياح التى يمكن أن تهب فيه فتعصف بالوزارة أو تدفعها ذات اليمين أو ذات الشمال .

فلو قد كان الأمر عندنا كما هو فى البلاد الدستورية الأخرى لما حفل أحد بسفر المندوب السامى أو إقامته ، ولا باجتماع اللجنة المصرية الانجليزية أو افتراقها ، ولا بصمت الصحف الإنجليزية أو إكثارها فى القول ، ولاتجه الناس إلى البرلمان يلتمسون منه وحده فهم السياسة المصرية ، ويتعرفون فيه وحده جو السياسة المصرية .

على رئيس الوزراء وحده تقع هذه النتيجة المنكرة ، تبعة اتجاه المصريين إلى الانجليز ينتظرون منهم الخير والشر ، فلو قد سار فى وزارته هذه السيرة الطبيعية التى تلائم الحياة الدستورية الصحيحة لنظر المصريون إلى أنفسهم أكثر مما ينظرون إلى الانجليز ، ولا انتظر المصريون من أنفسهم أكثر مما ينتظرون من الإنجليز . ماذا أقول ؟ لو سار رئيس الوزراء هذه السيرة المألوفة فى البلاد الدستورية لما أقام فى الحكم شهرا .

(٩)

خلاف

نعم خلاف فى ظل الائتلاف(١) ، وشقاق تحت جناح الوفاق ، وخصام فى أحضان السلام . ولم لا ؟ وأين وجدت الإخوة الذين لا يختلفون ؟ ومتى رأيت الأشقاء الذين لا يختصمون ؟ وإنما الحياة سبيل إلى اتفاق الرأى حينا واختلافه أحيانا ، ولاسيما حين تكثر المغريات ، وحين تتيح الحظوظ للأصدقاء الأصفياء أن يقوى بعضهم ، ويضعف بعضهم الآخر ، وأن يعز منهم فريق ، ويذل منهم فريق ، وأن تمتلىء أيدى جماعة منهم بالخير ، وتصفر أيدى جماعة أخرى من كل شىء .

والأحزاب المؤتلفة فى الحكم إنما تتألف من أفراد ، فيهم فضائل الناس ونقائصهم ، فهم يتفقون على المصالح العامة التى لا تعنى أشخاصهم ، وهم يختلفون عند المصالح الخاصة التى يمكن أن يفيدوا منها مالا أو جاها ، قليلا أو كثيراً .

---

(١) ١٩٣٣/٣/٢١ ، عدد ٢٣٤٠

وآية ذلك أن المؤتلفين فى الحكم لم يختلفوا لحظة فى إقامة الخزان ، لأن إقامة هذا الخزان واضحة النفع لمصر ، جلية الفائدة للمصريين ، ستحمل إلى أرض مصر الخصب ، وستكفل لأهل مصر الثراء ، وخزانة مصر قادرة على إقامة هذا الخزان ، لديها من المال أكداس مكدسة ، تستطيع أن تنفق منها بغير حساب دون أن تخشى فقرا ، أو تتعرض لإفلاس . ولا تصدق المستشار المالى فهو انجليزى يكره لمصر الخير ، ويضمر لها الشر ، ويأبى إلا أن يرى أرضها مقفرة مجدبة ، وأهلها معوزين معدمين ! وهو حين نصح للحكومة بألا تتعجل فى إقامة هذا الخزان ، وأظهر الإشفاق على خزانة الدولة ، لم يفكر إلا فى مصلحة الانجليز الذين يكرهون هذا الخزان، ويخافون من إقامته فى السودان !

فلتحذر الحكومة وليحذر البرلمان ، وقد حذرت الحكومة فلم تحفل بالمستشار ، ولم تلتفت إلى رأيه ، ومتى حفلت وزارتنا القائمة برأى الانجليز؟ ومتى قبلت وزارتنا القائمة نصيحة الانجليز؟ وهى تشك فيهم كل الشك، وترتاب بهم كل الارتياب ، وتأخذ نفسها منذ نهضت بأعباء الحكم بأن تكرههم على ما لا يريدون ، وتجرعهم ما لا يستسيغون(١) .

أعرضت حكومتنا عن نصيحة المستشار ، وأعرض عنها البرلمان أيضا ، واتفق الحزبان المؤتلفان فى هذا الإعراض أيضا ، فلم يسألا عن رأى المستشار ، ولم يحفلا به ، ولم يسألان ويحفلان ؟ والمستشار انجليزى يجب أن يسوء به ظن الحزبين المؤتلفين اللذين لا يأمنان للإنجليز ، ولا يحبان إلا إرغام الانجليز على الاعتراف بما لمصر من كرامة وسيادة وحق ... !

وتحقق الائتلاف حول جبل الأولياء فى أجمل صورة ، وأروع الشكل، وانتصر الائتلاف فى هذه المسألة على خصمين عنيدين ، أحدهما الأمة المصرية التى لا تريد هذا الخصب ولا ترغب فيه ، والتى يجب أن تكره

---

(١) الأصل يسبغون ، ولعل الصواب ما أثبتناه

على أن تكون أرضها خصبة رغم أنوفها ، وعلى أن يكون أبناؤها أغنياء وإن كرهوا الغنى ، لأن سادة الساعة وحكام اليوم أعرف بمصالح الأمة من الأمة ، وأقدر على تحقيق منافع الشعب من الشعب ! وما قيمة الوزارة وما غناؤها إذا لم تسقنا إلى الخير ونحن كارهون ؟

والثانى هذا المستشار الانجليزى الذى إئتمر بمصر مع حاكم السودان العام ، فبينما كان الحاكم العام يجد فى إقناع وزارتنا بالإعراض عن إقامة الخزان رحمة بالسودانيين ، ورفقا بهم ، ورعاية لمصالح الانجليز فى السودان ، كان المستشار ينصح للوزارة أن تعرض عن إقامة الخزان حماية لخزانة الدولة من الضعف ، ولميزانية الدولة من الاضطراب .

وقد عرف الحزبان المؤتلفان كيف يثبتان لهذين الخصمين فيلقيان الأمة بالعنف والقهر ، ويلقيان الانجليز بالمهارة والمداورة ، وبالإعراض والإغضاء .

وانتصر الائتلاف مرة أخرى حين أثيرت سياسة التعليم ، وحين عرف الحزبان المؤتلفان أن هذه الأمة الجاهلة الغافلة تريد أن يشيع التعليم على اختلاف فروعه بين أبنائها على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم ، وأن انتشار التعليم على هذا النحو قد يمحو الجهل ويزيل الغفلة ، ويشعر الأمة بحقها وكرامتها شعورا قويا خطرا على طموح الطامحين ، وعبث العابثين ، واستئثار المستأثرين ، واحتكار المعصومين للحول والطول والقوة والسلطان . هنالك أحس المؤتلفون أن الائتلاف يتعرض للخطر ، وهنالك اجتمعت كلمة المؤتلفين على أن ضيق التعليم خير من سعته ، وعلى أن انبساط الجهل خير من انقباضه ، وعلى أن حكم الشعب رهين بأن يظل الشعب جاهلا غافلا ، وعلى أن العلم والفهم والكفاية والطموح إلى المثل الأعلى خصال يجب أن تكون مقصورة على الأغنياء وأشباه الأغنياء . وحسب أبناء الشعب أن يعملوا فى المزارع والمصانع ، وأن يظلوا رعية صالحة للتذليل والتسخير .

هنالك قوى الائتلاف وأحكمت عقدته ، وأيد الحزبان المؤتلفان وزير التقاليد ، وانتصر الائتلاف أيضا حين تعرض لهو الأجانب وعبثهم للخطر ، وحين هم بعض النواب بإلغاء معونة الأوبرا ، وحين ظهر أن هذه الفكرة خبيثة ، ظاهرها الرفق بخزانة الدولة ، والعطف على الذين يؤدون الضرائب ، ويلقون فى أدائها صروف الجهد ، وألوان العناء ، وباطنها حرمان الأجانب لذة مشاهدة التمثيل والاستماع للغناء ، والاستمتاع بالرقص ، وكيف يستقيم الأمر إذا حرم الأجانب ما يطمحون إليه ، ويطمعون فيه من هذه اللذة المترفة تضاف إلى ما يستمتعون به من تفوق على المصريين فى كل شىء ، وامتياز من المصريين فى كل شىء ! يجب أن يذعن المصريون ، ويجب أن يلهو الأجانب ! وعلى ذلك تمت كلمة الائتلاف ، وحول ذلك أحكمت عقدة الائتلاف . وتستطيع أن تطمئن وأن ترضى فلن يتعرض الائتلاف لخطر ما دامت المصلحة العامة الجلية الواضحة تدعو إلى قوته واستحكام أمـــره .

أما حين تعرض المسائل التافهة التى لا خطر لها ولا غناء فيها ، فجائز ، بل واجب أن يختلف المؤتلفون ، ويفترق المتفقون ، ويتصدع الائتلاف اليوم ليرأب صدعه غدا .

انظر إلى الحزبين المؤتلفين يشتد بينهما الخلاف حتى ينذر بالخطر العظيم ، وحتى يجد الوزراء فى التوفيق ، وحتى يخرج الأعضاء على قرارات الأحزاب ، وحتى يستقيل بعضهم أو ينذر بالاستقالة ، لأن مجلس النواب فى حاجة إلى وكيلين . والحزبان المؤتلفان يطمع كل منهما فى أن يكون منه الوكيلان دون صاحبه .

هذه مسألة يسيرة لا خطر لها فى حقيقة الأمر ، فسواء على مصر أن يكون الوكيلان من حزب الاتحاد أو من حزب الشعب ، وسواء على الانجليز خاصة والأجانب عامة أن يكون الوكيلان من حزب الاتحاد أو من حزب الشعب ، فسيقام الخزان ، وسيضيق التعليم ، وسيكون التمثيل والرقص

والغناء ، ولكن حزب الشعب شديد الطمع ، لا يعرف حدا لهذا الشره إلى التسلط والسيطرة . فلم يكفه أن يستأثر بالحكم ومناصب الوزارة حتى يريد أن يحرم صديقه وشقيقه كل شيء .

وقد احتمل حزب الاتحاد من حزب الشعب أهوالا ثقالا ، فرئيس حزب الشعب يقصى وكيل الاتحاد لهذا ، ورئيس حزب الشعب يرقى الشعبيين إلى الوزارة ، ويترك وزارة الداخلية فلا يضع فيها شعبياً ولكنه لايضع فيها اتحاديا أيضاً،وإنما يختار لها رجلا يقال إنه بعيد عن الأحزاب، ثم يحتاج مجلس النواب إلى وكيلين ، فإذا حزب الشعب لا يدع هذين المنصبين لحزب الاتحاد المظلوم ، بل لا يدع له منصبا من المنصبين ، وإنما يريد أن يستأثر بهما جميعا .

أإذا تكون كريهة أدعى لها .. وإذا يحاس الحيس يدعى جندب ؟(١)

نعم كذلك أراد الله لحزب الاتحاد فى هذه الأيام . والله يداول الأيام بين الناس ، والله يذل أحزابا ، ويعز أحزابا . والله يجعل بعض الأحزاب رءوسا وبعضها أذنابا . والله يثير فى نفوس الاتحاديين وقلوبهم نارا تتأجج ، ولهيبا يضطرم ، لأنهم فرطوا فى وكيلهم وخذلوه ، ولو قد عرفوا كيف يؤيدونه وينتصرون له ؛ لعرف هو كيف ينتصف لهم ويرد عنهم طغيان الحزب الصديق الشقيق .

كذلك يتحدث حزب الاتحاد إلى نفسه ، وببعض ذلك يتحدث حزب الاتحاد إلى الناس . أما حزب الشعب فله الحكم وعليه تبعات الحكم ، فيجب أن يكون له الحظ الموفور من منافع الحكم ومزاياه .

وما كان لحزب الاتحاد أن يسمو إلى مناظرته أو مخاطرته ، وليس رئيسه بالذى يستطيع أن يثبت لرئيس حزب الشعب وقد خذل وكيله فأصبح

---

(١) هذا البيت لعنترة العبسى . والكريهة : الحرب . الحيس : الطعام ؛ والمعنى : تستنجدون بى فى وقت الشدة ، وتهملوننى وتتجاهلوننى فى وقت الرخاء .

جسدا بلا روح . فليقنع إذن بما أعطاه الله ، وبما نزل له عنه حزب الشعب ، وإلا فإن حزب الشعب قادر على أن يستبدل قوما مكان قوم ، وحزبا مكان حزب . أليس يقال إن فى مجلس النواب حزبا ثالثا ، وإذن فليذكر حزب الاتحاد قول الشاعر القديم :

قدر لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا مرة عن غرة زلجا

وعلى هذا النحو يختلف المؤتلفون ، ويفترق المتفقون . والأمة تنظر إلى هذا الائتلاف فتبتسم ، وإلى هذا الاختلاف فتضحك ، كما يبتسم ويضحك من ينظر إلى لعب اللاعبين . والأمة تعلم حق العلم أن اختلاف الحزبين لن ينفع ، وأن إئتلافهما لن يفيد ، لأنهما لا يملكان طاعة وإذعانا لمن بيده الخيط ، هذا الذى يستريح الآن فى مينا هاوس(١) ، والذى يترك الحزبين يلعبان لأنه متعب ، أو لأنه سئم ، أو لأنه يريد أن يلهو ، حتى إذا فرغ من اللهو بلعب حزبيه ، جذب الخيط فإذا الائتلاف قوى متين ، وإذا الصلات بينهما على أحسن حال من المودة والصفاء .

(١٠)

موقعة

رئيس(١) وزرائنا مريض ، نرجو أن يسرع إليه الشفاء ، ولكن مرضه ليس مقصورا عليه ؛ بل هو يتجاوزه إلى الوزارة كلها التى لم تستطع أن تنشط ، ولا أن تظهر أن لها حظا من حياة قوية رغم ما أصابها من الوصل والترقيع ، ويتجاوزه فى رأى الأهرام على الأقل إلى البرلمان الذى يظهر بمظهر المريض المقعد . وقد قيل إن لمرض البرلمان ، وهذا الشلل الذى جعله — كما تقول الأهرام — مقعدا ، مظاهر لا تخلو من

---

(١) المراد إسماعيل صدقى باشا .

(١) ١٩٣٣/٣/٢٢ عدد ٢٣٤١

عبرة وعظة . فهو يمهل حتى تكلف المراقبة لعمل السلطة التنفيذية، وهو يعجز عن مقاومة هذا الفتور الذى يصيبه ويملك أعضاءه كلما هم أن ينهض بعمله التشريعى الخاص .

زعموا أن الحكومة دفعت إلى السودان ثلاثة أرباع المليون تعويضا لمن سيصيبهم الضرر من إقامة الخزان قبل أن تصدر الميزانية ، بل قبل أن يقرها البرلمان ، ودون استئذان للبرلمان فى دفع هذا المقدار الضخم من المال لحكومة السودان .

فإن لم يكن هذا حقا فلا تفسير له إلا إحدى اثنتين . فإما أن يكون البرلمان مستعدا أحسن الاستعداد للنزول عن حقوقه الدستورية للحكومة اعترافا بجميلها عنده ، وفضلها عليه .

وأنا أنكر هذا ، وأراه بعيدا ، لأن البرلمان حفيظ على الدستور ، لا ينزل عنه كله أو بعضه لإنسان كائنا من كان ، ومهما يكن له عليه من فضل أو جميل .

وإما لأن مرض رئيس الوزراء قد أعدى البرلمان بعض الشىء فأصابه هذا الفتور الشامل الذى يصيب المرضى والمقعدين فتقصر (١) ذاكرتهم ، ويقل حظهم من الملاحظة والمراقبة لما يجرى حولهم من الحوادث ، وما هو بين أيديهم من المشكلات .

وأكبر الظن إن صح هذا الخبر أن البرلمان لم يتعمد الإعراض عن هذا العمل الغريب من أعمال الحكومة ، وإنما اضطره النسيان والضعف إلى هذا الإعراض والتقصير ، فلعله ذاكر مانسى ، ومقبل على ما أعرض عنه ، ومعنى بما فرط منه . ومن المحقق الذى لا شك فيه أن مجلس النواب قد أقر أمس قانونا ينظم تعيين الأساتذة والمدرسين فى الجامعة

---

(١) كذا فى الأصل ، ولعل الصواب بقصر

وتأديبهم ، وأقر هذا القانون فى جلسة واحدة ، بل فى جزء يسير جدا من جلسة واحدة ، وأقره فيما يظهر فاترا عنه ، مزدريا له ، كما يقر أيسر الأمور وأقلها خطرا ، مع أن هذا القانون هو قوام حياة الجامعة ، وقد عنيت به الجامعة منذ اليوم الأول من أيامها ، وعنيت به الحكومات المختلفة التى تعاقبت منذ أنشئت الجامعة ، وثارت فيه مشكلات بين الجامعة والحكومات ، لأنه المقياس الصحيح الدقيق الذى يحدد موقف الجامعة المستقلة من الدولة التى تحب أن تسيطر على كل شىء من الشئون العامة .

أقر مجلس النواب هذا القانون كما أرادت الحكومة القائمة أن يكون فى غير مناقشة ذات بال .

ومعنى هذا أن مجلس النواب لم يحفل بهذا القانون ، إما لأنه لا يحفل بأمر الجامعة ، ولا يقدره ، ولا يراه خليقا بالدرس والتفكير ، وإنه مستيقن أن الدرس والتفكير لا خير فيهما ولا نتيجة لها ، لأن الحكومة تريد شيئا فيجب أن يكون ما تريد . والبرلمان مكلف أن يجيز ما تريد الحكومة فى غير مناقشة ولا حساب .

وأكبر الظن أن مجلس النواب برىء من هاتين الخصلتين ، فهو يحب الجامعة ويرعاها ، ويتتبع أمورها بدقة لا تعدلها دقة ، ويدرس شئونها بعناية لا تشبهها عناية ، ولكنه يثق كذلك بالحكومة ثقة ليس مثلها ثقة . وإذن ففيم مناقشتها وفيم محاسبتها ؟ وفيم إضاعة الوقت فى المناقشة والحساب ؟

والمجلس مطمئن إلى أن الحكومة معصومة من الخطأ ، معصومة من أن تريد بالبلاد إلا الخير ، تحب الجامعة كما يحبها ، وترعى الجامعة كما يرعاها ، وتفهم الجامعة كما يفهمها . وإذن فأى معنى للحساب العسير أو اليسير بين قوم يتفقون فى كل شىء ولا يختلفون فى شىء ؟

ويقول بعض الذين لا يستطيعون أن يعيشوا إلا إذا ظنوا فأساءوا الظن، وأولوا فأساءوا التأويل أن مجلس النواب قد شغل بانتخاب الوكيلين فأنفق فيه نشاطه كله ، ولم يحتفظ لجدول الأعمال إلا بنشاط فاتر جدا ، فمر هذا الجدول أمام المجلس كما مر شريط السينما أمام جماعة ليسوا بالمستيقظين ولا النائمين ، ولكنهم فى منزلة حلوة لذيذة بين هذا وذاك . ويقول هؤلاء الناس الذين يسرفون فى سوء الظن وفساد الرأى وقبح التأويل أن مرض رئيس الوزراء قد أصاب البرلمان فجعل نشاطه محدودا ، ويقظته محدودة . فمن الحق على رئيسى المجلسين أن يلاحظا هذه الحال فى وضع جدول الأعمال ، فلا يسرفا فى إطالة هذا الجدول ، ولا يلحا فى استنفاده كله إذا طال . ويقول هؤلاء الناس أيضا أن الأهرام تحدثت بأن رغبة أملتها بعض الجهات إملاء على الهيئة الشعبية البرلمانية فى انتخاب الوكيلين . وكان كثير من أعضاء الهيئة الشعبية فيما يظهر يريد أن يرد هذه الرغبة على صاحبها ، ولكن صاحب هذه الرغبة فيما يظهر أيضا لا يحب أن ترد عليه رغباته ، ولا يريد أن يتردد أحد ولو كان من حزب الشعب فى إنفاذ هذه الرغبات كما تنفذ الأوامر التى لا سبيل إلى مخالفتها أو الخروج عليها . ويقال أن أعضاء الهيئة الشعبية قد أنفقوا نشاطهم كله فى المناقشة والجدال حول هذه الرغبة التى أذعنوا لها آخر الأمر ، وضحوا فى سبيلها لزعيم من زعمائهم هو الأستاذ وهيب دوس بك ، ثم وصل الشعبيون إلى مجلس النواب متعبين مكدودين ، فلم يستطيعوا أن يفرغوا لأمور الجامعة كما ينبغى ، ولا سيما وقد كانت هذه الرغبة لا تكتفى بانتخاب الوكيلين من الحزبين ، بل تريد أن يكون هذا الانتخاب فى يوم معين هو أمس ، وفى جلسة معينة ، هى جلسة أمس ، وإن لم يكن هذا الانتخاب فى جدول الأعمال ، فقدم اقتراح وقبل وأنفذ ، وأخذ المستقلون والمعارضون على غرة ، وأخذت الجامعة على غرة أيضاً فمر قانونها بسلام .

ويقال أن الشعبيين الذين شغلوا بإكراههم على ما لم يكونوا يحبون ، لم يفكروا فى قانون الجامعة ، ولن يفكروا فيه الآن ، لأنهم عنه فى شغل

ما الاتحاديون فقد سرهم أن يفوزوا بمنصب من منصبين ، وسرهم أيضاً، بل سرهم بنوع خاص أن يمر هذا القانون الاتحادى دون أن يحتاج وزير التقاليد أن يطيل عنه الدفاع .

فمن يدرى لعله لو احتاج إلى ذلك لأثار حول الجامعة خصومة تشبه تلك الخصومة التى ثارت حول إعانة الأوبرا : ولم لا ؟ إن إعانة الأوبرا وإنفاقها ، ونظام الأوبرا حق من حقوق السلطة التنفيذية فى رأى وزير التقاليد ، فلا ينبغى لمجلس النواب أن يعرض لها ، أو يدخل فيها. وكذلك أمر الجامعة ، فتعيين الأساتذة والمدرسين وأعضاء هيئة التدريس وتأديبهم حق كذلك من حقوق السلطة التنفيذية . فلو قد ناقش أمس الأستاذ وهيب بك دوس لقيل له كما قيل له فى قصة الأوبرا : هذا حق السلطة التنفيذية فلا تعرض له ولا تخض فيه .

ومن يدرى ، لعل الأستاذ وهيب دوس بك لم يكن يرضى هذا الجواب من وزير التقاليد ، ولا سيما أمس وهو مغيظ محنق ، قد استقال من حزب الشعب سخطا فيما يظهر على حزب الاتحاد ، إذن لأثار الأستاذ فى المجلس ثورة لا يعلم إلا الله إلى أين كانت تنتهى .

وإذن فقد انتصرت الحكومة أمس فى مجلس النواب انتصارا لا فخر فيه ولا مجد ، لأنه لم يحتج إلى دفاع ولا نضال ، بل كان يسيرا كجميع ما تناله الحكومة من ألوان النصر فى البرلمان . وانتصر حزب الاتحاد انتصارين ، ففاز بوكيل اتحادى وأمضى قانونا اتحاديا . وأظهر حزب الشعب إلا الأستاذ وهيب دوس بك — شيئا من الجلد وضبط النفس ، وانتظر فرصة أخرى لعلها تكون قريبة يظفر فيها بمنصب ويمضى فيها قانونا .

وانجلت هذه المعركة الطويلة العنيفة عن وفاق ووئام وصلح وسلام بين الحزبين المؤتلفين . وأحصيت الخسائر فكانت يسيرة . خسر حزب الاتحاد أحد المنصبين ، وخسر حزب الشعب أحدهما أيضاً ، وخسر

حزب الشعب فوق ذلك خسارة أخرى مشكوكا فيها ،وهى الأستاذ وهيب دوس بك ، فقد يتوسل إليه فى أن يسترد استقالته فيفعل .

أما مصر فلم تخسر شيئا يذكر ، وإنما فرض عليها نظام للجامعة أقل ما يوصف به أنه يجعل الجامعة مدرسة من المدارس العادية . ويجب على مصر أن تحمد الله على أن لم تتجاوز خسارتها هذا الحد .

(١١)

اقدام

ولكنه(١) إقدام خطر ، قد يجر إلى الشر ، وينتهى إلى ما لا يحبه المقدمون أنفسهم ، وقد لا تحتمله أيضا صحة هذه الوزارة التى أخذتها العلل من أطرافها المختلفة ، فأعجزتها عن النهوض بجلائل الأعمال ، سواء أكانت هذه الأعمال نافعة أم ضارة .

نعم إقدام خطر مريب معيب ،هذا الذى أخذت تظهر آثاره وبوادره على أعمال الإدارة فى الصعيد ، فقد كانت الإدارة هادئة فى أسوان،وكانت مستقرة ، تسمع وترى ، وتألم وتغضب ولكنها لا تضطرب أو لا تسرف فى الاضطراب ، بل تخلى بين الناس وبين أنفسهم ، يحسون ويشعرون ، ثم يعربون عما يجدون من حس وشعور ، فيحتفلون ويصفقون ويهتفون وكل شىء هادىء ، والنظام مستقر ، إلا أن يكون إظهار الشعور ، والاستمتاع بالحرية الطبيعية التى يكفلها الدستور خروجا على النظام ، وتكديرا للصفو والهدوء .

كانت الإدارة هادئة مطمئنة فى أسوان حين زارها الرئيس الجليل ، فلم يحدث أو لم يكد يحدث شىء ذو بال ، ولكن أشد الأحلام رزانة قد

---

(١) ٢٣ ــ ٣ ــ ١٩٣٣ عدد ٢٣٤٢

يخف ، وأعظم الأحلام ثقلا قد يطيش . ويظهر أن صبر الإدارة محدود مهما يطل ، وأن حلمها ضيق مهما يتسع ، وأنها قد ترى ما تكره هي وإن لم يكره الدستور ولا القانون ولا النظام فتحتمله ساعة أو ساعات ، وتصبر عليه يوما أو أياما ، ثم لا تلبث أن تتنكر له وتثور به ، وتعرض للناس تأخذهم بكظم الحس ، وكتمان الشعور ، والنزول عن حقهم الطبيعى فى أن يغدوا ويروحوا ، ويأتوا من الأمر ما يحبون لتكريم من يحبون .

يظهر أن الإدارة لا تستطيع أن تمضى فى الصبر والاحتمال إلى مدى بعيد، وهى بذلك تقيم أوضح الأدلة وأقواها على أن كفايتها للنهوض بما تنهض به من الأعمال عرضة للشك وموضوع للريب .

فليس الحكم بطشا ولا عسفا ، وليس الحكم تحديا ولا تصديا ، وليس الحكم فى إظهار القوة والبأس ، وإنما الحكم صبر واحتمال ، والحكم احتياط للطوارىء ، واستعداد للحوادث ، لا تعجل لها ولا إثارة للناس إلى أحداثها .

نعم ليس الحكم بطشا ولا عسفا ،وإنما الحكم هو هذه القدرة التى تمكنك من أن تلاحظ وتراقب ، وأنت هادىء مطمئن ، وأنت قوى مستعد لدفع الشر إن وقع أو خفت وقوعه .

وكل شىء يدل على أن الإدارة لو أخذت بأصول الحكم هذه فهدأت واستقرت ، واكتفت بالاستعداد للطوارىء ، ولم تتورط فى إثارتها ، لم يحدث شىء ، ولم يتعرض فرد أو جماعة لمكروه . ولكن هذا كما قلت شىء ليس باليسير فيما يظهر ، وهو لا يكون يسيرا ولا ممكنا إلا يوم تحيا الأمة والحكومة حياة واحدة ، وتشعران شعورا واحدا ، وتشتركان اشتراكا صحيحا فى المنافع والآمال والمثل العليا .

هنالك تستطيع الأمة أن تعيش حرة ، وتستطيع الحكومة أن تحمى هذه العيشة الحرة ، مؤيدة لها ، مقوية لما فيها من أسباب الحياه وعناصر الحرية

ولكن الأمر فى مصر على غير هذا من كل الوجوه . فللأمة حياتها وآمالها . وللحكومة حياتها وآمالها . وبين هذين النوعين من الحياة والآمال آماد بعيدة ، لا سبيل إلى تقصيرها أو تقريبها .

تريد الأمة أن تحيا حرة ، وتأبى الوزارة إلا أن تقص من جناح هذه الحرية . تحب الأمة من تحب من الزعماء فتلقاهم فرحة بهم ، مستبشرة بلقائهم ، مؤملة فيهم . وتكره الوزارة هؤلاء الزعماء الذين تحبهم الأمة وتعقد بهم الآمال . تكرههم الوزارة فتحول بينهم وبين الحركة والانتقال إن وجدت من نفسها القوة على ذلك ، وتدعهم وما يريدون إن عجزت عن أن تحبسهم فى بيوتهم ، ولكنها تتنكر وتتنمر وتتحدى وتتصدى وتظهر من ألوان الشدة ، ومظاهر القوة والبأس ما يثير ويغرى بالشر حتى إذا وقع الشر أو كاد ، اتخذت من هذا سبيلا إلى مصادرة حرية الزعماء والناس وحجة على أن استقرار النظام فى حاجة إلى أن تستقر الأمة فلا تحس ولا تشعر ولا تعيش !

ما هكذا يكون الحكم ، وما هكذا يكون إقرار النظام . ما هذه الأنباء التى أخذت ترد من الصعيد بالاصطدام بين الناس والشرطة فى الأقصر ، وبتحطيم سيارات وإصابة أفراد من الناس والشرطة بجراحات ، ومن محاصرة بيوت واقتحام أخرى ، ومن استصدار أوامر من النيابة بالقبض على بعض الناس ؟ ما هذا كله ؟ وفيم هذا كله ؟ ولأى خطر تتعرض البلاد لتقف الإدارة من الناس هذا الموقف ، وتثير شعورهم على هذا النحو ؟ ما وضع المحطات تحت الحصار ؟ وما مرافقة الرئيس الجليل وصاحبه فى القطار ؟ أتريد الحكومة أن يشعر الناس أنها قوية ، وأن لديها شرطة مسلحة بالبنادق والعصى ؟ وان هذه الشرطة قادرة على تفريق المجتمعين وتبديد المحتفلين وإسكات الهاتفين ؟ فإن أحدا لم يشك فى أن للحكومة شرطة وجيشا ، وفى أن عندها بنادق وعصيا ، وفى أن من وراء هذه الشرطة وهذا الجيش جيشا آخر قويا أجنبيا مستعدا للنصر والتأييد ، ولكن عمل الشرطة والجيش إنما هو أن يحببا

إذا دعيا ، فمن الذى دعاهما ؟ ومن الذى طلب إليهما أن يعرضا للناس وهم آمنون ؟

لم يشك أحد فى أن الحكومة قادرة إن أرادت على أن تبطش بالناس ، وقد أرادت ذلك غير مرة فبطشت بالناس وأذاقتهم ألوانا من المكروه ، ولكن الشىء الذى نشك فيه جميعا ، بل لا نشك فيه وإنما نوقن به هو أن هذا البطش لا خير فيه ، وإنما هو الشر كل الشر ، والخطر كل الخطر . لقد بطشت الحكومة بالناس غير مرة فكان القتلى وكان الجرحى ، وكانت الخطوب والأهوال ، ولم تظفر الحكومة بعد هذا كله ورغم هذا كله بشىء مما كانت تريد ، فلا هى جذبت إليها قلوب الناس ، ولا هى هدأت عن نفسها سخط الناس ، ولا هى صرفت الناس عمن يحبون ، ولا هى زهدت الناس فيما يحبون ، وإنما انتهت بها سياسة التحدى والتحرش إلى عكس ما كانت تريد ، فما أحب الناس حريتهم كما يحبونها اليوم ، ولا حرص الناس على استقلالهم كما يحرصون عليه اليوم ، ولا تعلقت قلوب الناس بدستورهم القديم كما تتعلق به اليوم ، ولا وثق الناس بزعمائهم وقادتهم كما يثقون بهم اليوم ، ولا يئس الانجليز من سياسة اللعب والدوران والعسف والبطش كما ييأسون منها اليوم ، ولا فشل حكم الإرهاب والإرهاق كما يفشل اليوم .

تستطيع الحكومة أن تنظر وأن تسمع حيث شاءت ومتى شاءت ، فلن ترى ولن تسمع إلا حبا للحرية لا يشبهه حب ، ولا كلفا بالديمقراطية الصحيحة لا يشبهه كلف ، وازدراء للخطوب واستهزاء بالصروف واستعدادا للصبر واحتمال المكروه .

لم يصل اليأس بعد ، ولن يصل إلى قلوب الناس ، فما تعلق الحكومة بما لا سبيل إليه ؟ وما تهالك الحكومة على ما لا خير فيه ؟ هذه الأمة تحيا حياتها هادئة مطمئنة ، تنظر إلى الحوادث صابرة عليها ، معتصمة بإيمانها ، واثقة بالمستقبل ، معرضة عن الحكومة ، تاركة لها تسلك طريقها المعوج ، فما للحكومة لا تحيا هى الأخرى حياتها ولا تدع الأمة وما تريد ؟

نعم فى مصر حياتان مختلفتان . إحداهما حياة أمة كلها أمل ؛ فهى تصبر وتبتسم ؛ والأخرى حياة وزارة كلها يأس ، فهى تغضب وتتنكر ، وهى تهيج وتثير الناس . وأى غرابة فى أن يضيق من يملأ قلبه اليأس بمن يملأ قلبه الرجاء ؟

إقدام خطر هذا الذى تظهر آثاره فى الصعيد خير منه الإحجام . ما أشد حاجة الوزارة إلى أن تفكر فى نفسها وتعنى بصحتها ، وتعالج هذا الشلل الذى أصاب أطرافها ، وتفرغ لهذا التمرد الذى دب فى أحزابها ، فإن فى هذا كله ما يشغلها عن زيارة الرئيس الجليل وصاحبه للصعيد . لتفرغ الحكومة لشئونها الصغيرة والكبيرة ، ولتطمئن فلن يتعرض النظام ولا الأمن للخطر ، ولا لما يشبه الخطر إذا أخذت هى رجال الإدارة بالهدوء ، وكفت هى يد الإدارة عن الناس .

إن استقرار النظام رهين باستقرار الإدارة . فإذا لم يكن بد من أن تعمل الحكومة شيئا فلتجذب إليها بشدة لجم الإدارة ، فقد يظهر أن فى خيل الإدارة ميلا إلى الجموح .

(١٢)

محاولة

أما(١) أن رئيس الوزراء قد أخفق فى تنفيذ الخطة السياسية التى رسمها لنفسه ، أو التى رسمت له يوم ألف الوزارة منذ ثلاثة أعوام ، فذلك شىء لا شك فيه ، لا بالقياس إلى الذين يعارضونه ويخاصمونه ، بل بالقياس إلى الذين يؤيدونه وينصرونه ، وبالقياس إليه هو .

فالذين يعارضون رئيس الوزراء لم يشكوا لحظة فى أن إخفاقه محتوم ، وفشله أمر لابد منه ، لأنه أقام سياسته على إكبار كفايته الخاصة أكثر مما

(١) ٢٤ — ٣ — ١٩٣٣ عدد ٢٣٤٣

ينبغى ، وإصغار شأن الأمة إلى حد لا تقبله الكفاية الصحيحة حقا . ومن أقام سياسته على إكبار نفسه وإن كان فردا ، وإصغار خصمه وإن كان أمة كاملة ، فهو مخفق من غير شك . وقد أخذ المعارضون لرئيس الوزراء يلاحظون سياسته ، ويتابعون خطواته فى تنفيذ هذه السياسة ، ويبسمون لهذه الخطوات التى كان يراها هو انتصارا ، ويراها معارضوه إمعانا فى طريق الإخفاق والخذلان ، فلا هم اغتروا بهذه الخطب الطوال التى كانت تحشد ، والوفود التى كانت ترسل ، ولا هم اغتروا بتأليف ما سماه حزب الشعب ، ولا بإنشاء ما سماه جريدة الشعب ، ولا بما رآه فوزا فى الانتخاب ، ولا بأسفاره وإقاماته ، ولا برحلاته إلى أوربا وعودته منها ، وزياراته للعواصم ومقابلته للوزراء ورؤساء الحكومات ، بل للبابا .

لم يغتروا بشىء من هذا ، لأنهم قدروا ، ومن الحق على كل إنسان له حظ من الفطنة أن يقدر أن الفوز الصحيح الباقى المنتج فى هذه الأيام لا سبيل إليه إلا أن يعتمد رجال السياسة على الأمم والشعوب ، لأنها وحدها القوام الثابت لكل سياسة عملية . ولم يكد يعود صدقى باشا من أوربا حتى كان فوزه الموقوت قد انتهى إلى غايته ، ولم يبق بد من أن يتحول هذا الفوز شيئا فشيئا إلى الفشل والإخفاق . وقد داور صدقى باشا ما استطاع أن يداور ، وأخفى ضعفه ما وجد إلى إخفائه سبيلا ، ولكنه لم يخدع أحدا ولم يخف شيئا . وما هى إلا أن يعترف هو بهذا الإخفاق فى كتاب الاستقالة الذى رفعه إلى حضرة صاحب الجلالة الملك ليتخلص من زملائه الذين خالفوه فى سياسة الحكم . فقد كانت هذه الاستقالة نفسها اعترافا واضحا بالفشل ، وأى فشل أشد ، وأى إخفاق أعظم من أن يعجز رئيس الوزراء عن أن يقنع زملاءه وأقطاب وزارته بسياسته ، ويضطر إلى أن يستقيل ليخلص منهم ، وإلى أن يعترف بهذا كله فى كتاب الاستقالة .

وقد رقع صدقى باشا وزارته كما استطاع ، ولكنه لم يستفد من هذا الترقيع شيئا فنزع الرقعة التى ألصقها بوزارته فى يناير ، ووضع مكانها

رقعة أخرى منذ أيام ، وكان هذا الترقيع الأخير تسجيلا آخر لهذا الإخفاق وأنصار رئيس الوزراء يدورون مع رئيس الوزراء ،فهم يرددون مايقول ويكتبون ما ينطق به فيعلنون الفوز إن أعلنه ، ويلطفون اعترافه بالإخفاق حين يعترف به . وربما كان تسجيل هذا الإخفاق هو الشيء الوحيد الذى اتفق عليه رئيس الوزراء وأنصاره وخصومه جميعا فى وقت واحد ، ولكنهم لا يكادون يتفقون على هذا الإخفاق حتى يختلفوا فى التماس المخرج منه والتخلص من أثقاله وآثاره .

فأما رئيس الوزراء وأنصاره فيخيل إليهم أن الترقيع وسيلة من وسائل التخلص من هذا الفشل ، فهم يرقعون ويرقعون ، وهم يكسبون الوقت وينتظرون ما تدور به الأيام .

وأما معارضوه وخصومه فهم يرون أن كل شيء قد دل دلالة قاطعة على أن وزارة صدقى باشا لم تكن صالحة للبقاء ، ولم تصبح الآن قادرة على محاولة البقاء ، وأن من العبث أن تتحدى طبيعة الأشياء وتقاومها . وأنت تعلم حق العلم أنك مهما تؤيدك القوى الظاهرة والخفية ، فلن تستطيع أن تثبت لطبيعة الأشياء ، ولا أن تتغلب عليها . وإذن فلا مخرج من هذا المأزق الذى اضطر إليه صدقى باشا ، وورط فيه سياسة بلده إلا أن يستقيل ، ويدع هذه السياسة لمن هم أقدر منه على تصريفها والنهوض بأعبائها . وحسبه أنه قد أخر رقى وطنه ثلاثة أعوام ، وحسبه أنه قد أضاع على بلاده كثيرا من الفرص كانت تستطيع أن تنتهزها لتتقدم خطوات واسعة فى سبيل الإصلاح ، وحسبه أنه قد امتحن بلاده ، وأسرف فى امتحانها ، وقد فتن أمته وغلا فى فتنتها ، فأظهر مواضع للضعف ما كان ينبغى أن تظهر مشوهة قبيحة على هذه الحال . ولكن رئيس الوزراء يحب الحياة لوزارته ، كما يحب كل إنسان لنفسه الحياة ، فهو يطاول ويداور ، ولا يريد أن يتعجل فيقصى نفسه عن الحكم ، وإنما يريد أن تقهره الظروف القاسية فيدع الحكم كارها ، لا طائعا . وهو يعلل نفسه بالأمانى ، ويذهب المذاهب المختلفة فى إطالة مدته فى الحكم ، ولعله

لا يعدم من الانجليز الذين غلوا فى تأييده وإعانته من يشاركه فى الرأى ويقاوم معه طبيعة الأشياء ويدفعه إلى التعلق بالحكم حتى يضطر إلى تركه اضطرارا .

وكذلك وضع رئيس الوزراء نفسه فى هذا الموضع المؤلم الذى يثير الإشفاق والرحمة حتى فى نفوس خصومه ومعارضيه : فهو ضعيف قد فقد كل حيلة فى التماس القوة على النهوض بأعباء الحكم ، وهو مريض فى حاجة شديدة إلى الراحة ، وهو رغم ضعفه السياسى . ورغم مرضه متعلق بالمنصب ، حريص على البقاء فيه .

والناس يقولون (ومن الكتاب السياسيين من يوافقهم على ما يقولون ولا يتحرج فى إظهار شىء من الرضى والأمل بما يقولون)إن فى الحركة الإدارية التى أحدثت أمس تمهيدا لتغيير السياسة الصدقية التى قام على فسادها ألف برهان وبرهان . فقد يظهر أن نقل المديرين من إقليم إلى إقليم إنما هو توسعة على هؤلاء المديرين فى أن ينهجوا فى السياسة نهجا رفيقا ، غير النهج العنيف الذى دفعهم إليه عنف صدقى باشا ، وإيثاره لإظهار القوة والبأس ، فقد يكون من العسير على مدير أسيوط السابق أن يلين بعد شدة ، ويخف بعد عنف دون أن يعرض كرامته وهيبته لشىء من الابتسام على ثغور الناس قد لا يصور الاحترام ، وقد يصور ما هو نقيض الاحترام ، لذلك نقل إلى الغربية ليكون فيها رفيقا شفيقا بعد أن كان عنيفا مسرفا فى العنف . وأرسل إلى أسيوط مدير البحيرة السابق ليظهر فيها من الموادعة والمصانعة ما لم يكن يستطيع أن يظهره مديرها السابق . وقل مثل هذا فى سائر المديرين الذين مسهم التغيير والتبديل .

وقد يكون هذا حقا ، وقد يكون صدقى باشا قد رأى أو رؤى له أن من الخير أن تتغير السياسة فى الأقاليم ، وأن يؤخذ الناس بالحسنى ، وتنجلى عنهم غمرة العذاب الذى أخذهم من كل مكان ، لتهدأ ثورة النفوس ، وليخف ما أشعرته القلوب من بغض للحكام . ولكن الشىء الذى ينبغى

الوقوف عنده إن كان هذا الكلام صحيحا هو أن الحكومة كانت أشد رعاية لنفسها ومديريها منها لأهل الأقاليم . فهى تضن بمدير أسيوط على أن يرفق بعد عنف ، ويلين بعد شدة ، وهى تؤثره بحبها وتحرص على كرامته وهيبته من ابتسام الناس . ولكنها لم تؤثر هؤلاء الناس بعطفها ورحمتها ولم تحرص على كرامة هؤلاء الناس أن يمتهنها مدير أسيوط بما كان يصب عليهم من عذاب فيه الإيلام والإذلال معا . هى تخاف على المدير من ابتسامة الناس ، ولا تخاف على الناس من عبوس المدير .

كرامة موظفيها أعز عليها ، وآثر عندها من كرامة الأمة التى إنما أقامت الحكومة لتخدمها ، وترعى مصالحها ، لا لتسخرها لأنواع الذل ، ولا لتؤثر عليها أفرادا من الموظفين . ومعنى هذا أيضاً إن صح ما يقوله الناس ، وينتظر الخبر منه بعض الكتاب السياسيين أن الحكومة تعبث بعقول الناس ، وتلاعب الأمة كما يلاعب الرجل الطفل الصغير .

كان أهل أسيوط يضيقون بمديرهم فينقل هذا المدير ، ويرسل إليهم مدير آخر ، ويخيل إلى الحكومة أنها قد أرضت أهل أسيوط ، ولكن أهل أسيوط جزء من الأمة المصرية ، لأن أسيوط جزء من أرض مصر . وإساءة مدير أسيوط الى أهل إقليمه كانت إساءة إلى الأمة المصرية كلها . فانقلوه من أسيوط ، وضعوه حيث شئتم من الأرض فلن يغير ذلك من الأمر الواقع شيئاً ، والأمر الواقع أن هذا المدير وأصحابه لم يسيئوا إلى أهل أقاليمهم وحدهم ، وإنما أساءوا إلى الأمة كلها ، لأنهم أساءوا إلى القانون الذى كلفوا تنفيذه ، وإلى النظام الذى كلفوا حياطته وإلى العدل الذى كلفوا القيام على حمايته . وقد ذهب العصر الذى كانت الحكومات تفرق فيه بين الأقاليم ، وترى أن الإساءة إلى أحدها لا تمس غيره .

ذهب هذا العصر ، وأصبح كل فرد من أبناء مصر يصور الأمة المصرية كلها فى حقه على الحكومة من الحماية والرعاية . ولم تبق الأقاليم إلا وحدات إدارية ليس غير . وأكثر من هذا أن نقل المديرين أو عزلهم

أو محاكمتهم ، كل ذلك لا يغير من الأمر شيئاً ما دام الذى بسط أيدى المديرين على الناس مستأثرا بالحكم ، قادرا على أن يبسط أيديهم مرة أخرى . فليس الذى يهدىء ثورة النفوس ويلطف حدة القلوب ، هو أن ينقل مدير أو يعزل ، وإنما هو أن تستقيل الوزارة أو تقال .

إن الذين يظنون أن هذه الحركة الإداريةقد تكون تمهيداً لسياسة جديدة تسلكها الوزارة القائمة يخطئون خطأ قبيحا جدا ، ويقيمون أوضح الأدلة على أنهم لم يفهموا الشعب المصرى بعد . فالشعب لا يخدع منذ الآن بالصور والأشكال ، والشعب لا يرضى بأن ينقل مدير مكان مدير ، وإنما يريد الشعب أن تجتث هذه السياسة من أصلها ، وأن تتخلى الوزارة القائمة ليأتى مكانها قوم آخرون ، لا يبسطون أيدى المديرين على الناس إلا بالخير وأغرب من هذا أن من الكتاب السياسين من عظم حظهم من خصب الخيال وبعده ، فهم يقدرون أن هذه الحركة الإدارية تمهيد لتغيير السياسة الانجليزية المصرية كلها ، ولإقامة وزارة مكان وزارة . وإذن فما أقوى رئيس الوزراء على نفسه ، وما أحراه بالإعجاب والإكبار ، وما أقسى هؤلاء الذين يوحون إليه ويملون عليه ، ويدفعونه إلى أن يمهد لخصومه الذين سيخلفونه ويعفون آثاره فى سياسة الدولة .

هذا كثير على رئيس الوزارة ، فما علمنا أنه قد بلغ من الإيثار هذا الحد إلا أن يكون لهذا التغيير المنتظر قوام آخر ، هو الذى أشارت إليه النيرايست أخيرا ، وهو توسيع الائتلاف وإضافة رءوس أخرى إلى رأس الوزارة القائمة . وإذن فما أجدر هذا التغيير بأن يلقى نفس الإخفاق الذى لقيته وزارة صدقى باشا .

قد تخطر فى عقول الساسة حلول مختلفة للموقف السياسى فى مصر الآن ، ولكن الشىء الوحيد الذى لابد منه لأى حل يراد أن ينظر فيه نظر جد وتفكير ، هو أن يتنحى رئيس الوزراء عن سياسة الدولة الآن ، وما أشد حاجته إلى أن يعتزل السياسة فى هذه الأيام ويستريح .

(١٣)

درس

رئيس(١) وزرائنا أستاذ ، تلاميذه الوزراء ، يعلمهم كيف يحكمون ، وكيف يديرون أمور الشعب وفقا لسياسته التى رسمها أو رسمت له ، وهو يراقب حكمهم وتدبيرهم ، فمن أجاد منهم أبقاه ، ومن قصر منهم أقصاه .

ووزير داخليتنا أستاذ ، تلاميذه المديرون والمحافظون وحكام الأقاليم ، يعلمهم كيف يديرون أقاليمهم طبقا للسياسة التى يمليها عليه رئيس الوزراء : أو يبلغها إليه رئيس الوزراء : فهو يجمعهم إليه كلما سنحت فرصة للاجتماع ، وهو يتصل بهم إذا لم يتح له أن يلقاهم ، وهو إذا لقيهم مجتمعين ، أو اتصل بهم منفردين ألقى عليهم دروسا ، ووجه إليهم أسئلة . فمن فهم الدروس وأحسن الجواب ، وأظهر ذلك بالسيرة العملية المرضية فى سياسة الأقاليم وحكمها رقاه . ومن لم يظهر منه سبق الفهم ، ولا مهارة فى الجواب ، ولا نشاط فى السيرة العملية ، تركه حيث هو حتى يظهر تفوقه .

ومن ظهر فى فهمه التواء ، وفى أجوبته انحراف ، وفى سيرته اعوجاج عن السياسة المرسومة والخطة المعلومة ، هبط به إلى إقليم دون إقليمه ، أو انتزعه انتزاعا من حكم الأقاليم .

وقد كان أمس يوما من أيام الدرس ، ويوما من أيام الامتحان ، فقد اجتمع المديرون إلى أستاذهم الجديد وزير الداخلية ، فسمعوا منه وتحدثوا إليه ، وتلقوا أسئلة وأجابوا عليها . وليس من اليسير أن نتعرف بالتفصيل

---

(١) ٢٧ — ٣ — ١٩٣٣ عدد ٢٣٤٦.

موضوع الدروس والامتحان وإن قالت الصحف أمس واليوم كما تقول دائما إن الأمن العام كان موضوع الحديث فى هذا وذاك ، ولكن من المرجح إن لم يكن من المحقق أن الدرس الذى ألقى صباح السبت على المصريين جميعا وعلى وزراء العالم كله ، ورجال الإدارة فيه ، كان موضوع الحديث فى درس أمس . ولعلك تذكر أن هذا الدرس قد ألقى فى الهواء الطلق ، ولم يكن محاضرة يكثر فيها الكلام ، ولا مناظرة يتعقد فيها الحوار ، وإنما كان درسا عمليا أشبه بالتمرينات التى يؤخذ بها الطلاب فى فصول الدرس . وكان موضوعه معقدا بعض التعقيد .

زعيم أو زعيمان يزوران شعبا يحبهما ، والشعب يلقاهما بأروع مظاهر الحب لهما والسخط على خصومهما . والحكومة تكره حب الشعب لزعمائه ، وتشفق من سخط الشعب على سادته القاهرين له ، وتريد أن تريح نفسها من مظاهر الحب للزعماء والسخط على القاهرين ، لأن هذه المظاهرة تكذب ما شاع وذاع وملأ الأسماع ، وطبق آفاق الدنيا ، وتردد فى أجواء السماء من أن الشعب لم يبق له إلا زعيم واحد يحبه ويفنى فيه ، ويفديه بالأمهات والآباء ، وبالبنات والأبناء ، وبما كان يملك أيام الرخاء ، وبما لا يملك منذ ألم به الشقاء . وهذا الزعيم هو رئيس الوزراء . فكيف التخلص من هذه المظاهرة ؟ وكيف الوصول إلى إقصاء الزعيمين عن هذا الشعب الذى خيل إلى الحكومة أنه يحبها ويهواها ؟

فلما ظهر له زعيماه القديمان ، تبين أنه كان يعبث بالحكومة ، أو أن الحكومة كانت تعبث بنفسها ، وأن هذا الشعب ما زال مقيما على عهده لزعمائه ، فهو بهم كلف ، ولهم مستجيب .

هذه هى المشكلة التى كانت موضوعا للتمرين يوم السبت . وأنت تعرف كيف حلها وزير الداخلية ! وكيف حلت له بخطف الرئيس وصاحبه . وقد وقع هذا الحل البديع من غير شك موقع الغرابة فى نفوس الطلاب من المديرين

وحكام الأقاليم ، فقد كانوا يعلمون أن الضروريات السياسية تبيح طائفة من المحظورات يأباها الدستور ، وينكرها القانون ؛ ويتحرج منها النظام . تبيح الضرب على أيدى الناس بالحق وبالباطل ، وتبيح التحرش بهم ، والتنمر لهم . تبيح إلقاءهم فى السجون من غير تحقيق . تبيح إخضاعهم للعذاب بغير حساب . تبيح تسخير أموالهم لمعونة الأحزاب ،وتسخير أشخاصهم للاحتفاء بالوزراء ، والتوقيع بأسمائهم على ما يحبون وما يكرهون .

كانوا يعلمون هذا ، ويأتون منه ما تدعو إليه الضرورة أو تقتضيه المنفعة ، أو تمس إليه الحاجة . وربما تهالكوا عليه ، واستبقوا إليه ليبلغوا من رضى الوزير عنه وعطفه عليهم ، وإكباره لكفاياتهم ما يريدون . وربما كانوا يعتقدون أن ليس بشىء من هذه المحظورات بأس ، فهى مظهر من مظاهر القوة ، ولون من ألوان السلطان . وقد كان مألوفا فى مصر قبل أن تأخذ مصر بالأساليب الحديثة فى الإدارة والحكم . والرجوع إلى العهد القديم شىء مرغوب فيه من وقت إلى وقت لأنه يجدد النشاط ويرد الشباب ؛ ويعيد ذكرى الماضى ، والإنسان مشغوف بالرجوع أحيانا إلى الماضى ، ولكنهم لم يكونوا يقدرون فى يوم من الأيام أن الخطف والاختلاس يصلحان لأن يكونا من أساليب الحكم .

فالخطف مظهر من مظاهر الضعف . والقوة أخص ما تحرص الحكومات على أن تمتاز به من المظاهر . وفى الخطف مساس ظاهر جدا بالأخلاق . والحكومات شديدة الحرص على أن تظهر — ولو لخداع الناس — شيئا من حماية الأخلاق ورعايتها . والخطف شىء تعده القوانين من الآثام الثقيلة جدا ، وتشتد فى معاقبة الخاطفين ، ولعلها لا تفرق بينهم وبين قطاع الطريق العام . فلم يكن يخطر للمديرين أن القاعدة المشهورة « الغاية تبيح الوسيلة » تكفى لإباحة الخطف على أنه أسلوب من أساليب الحكم والمحافظة على هيبة الحكومات .

فلما خطفت(١) الحكومة المصرية زعيم الأمة المصرية وصاحبه، اضطربت نفوس المديرين، واختلطت آراؤهم إلا فريق الممتازين منهم طبعا ، وأخذوا يسألون أنفسهم : ماذا نصنع منذ اليوم؟ أنخطف أم لا نخطف ؟ أنسرق الناس أم لا نسرقهم ؟ حتى كان درس أمس . وأكبر الظن أن الخطف شيء يعاقب عليه الأفراد والجماعات ، ولكنه يباح للحكومات ، والحكومات الدستورية خاصة .

ولابد أن يكون هذا التفسير قد فصل تفصيلا وافيا ؛ لأن ذكاء الطلاب متفاوت ، فمنهم من تكفيه الإشارة ، ومنهم من يحتاج إلى البسط والتطويل. والأستاذ الذى يبلغ من البراعة مبلغ وزير داخليتنا مضطر إلى أن يقيس درسه

---

(١) كان حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا زعيم حزب الوفد قد قام برحلة إلى الصعيد وفى صحبته مكرم عبيد . وكان الشعب يخرج لتحيته والترحيب به والهتاف بحياته وحياة الوفد . وكان الزعيم يلقى الخطب الحماسية فى كل بلد يحل فيه ، داعيا إلى الجهاد والكفاح ، ومتعرضا للأذى من رجال الإدارة . وقد ألقت الحكومة القبض على الكثيرين ومن بينهم نواب وفديون سابقون ، بتهمة التظاهر ، نذكر منهم بشارة أندراوس نائب الأقصر سابقا ، والشيخ محمد موسى الأقصرى لأنه أنشد بين يدى الرئيس الجليل قصيدة جاء فيها :

سر فى طريقك رافعا ... علم الجهاد ولا تخف
يا مصطفى أنت الزعيـ ... ـم وأنت عنوان الشرف
والشعب آمن بالزعا ... مة والكرامة واعترف
هو لا يميل مع الهوى ... ويراه بعد من السرف
عن نهج سعد لا يحيد ... ومصطفى نعم الخلف

وبعد أن زار النحاس أسوان وادفو والأقصر وقنا ، أراد أن يواصل الزيارات فى بقية بلاد الصعيد ، ولكن الحكومة أمرت بفصل عربة السكة الحديد التى كان يستقلها الرئيس وألحقتها بجرار انطلق بها إلى القاهرة رأسا دون توقف وبأقصى سرعة .

بأصحاب الذكاء المعتدل ، لا بالمسرفين فى الذكاء ، ولا بالمسرفين فى قلة حظهم منه ! فلابد إذن من أنه قسم لهم الحكومات إلى قسمين : أحدهما هذه الحكومات الضعيفة التى تواجه المصاعب من أمام، لا من وراء، المترددة التى تلقى خصومها بالصراحة ، لا بالمداورة والكيد ، السمجة التى لا تفرض نفسها على الناس فرضا ؛ وإنما تقيم فيهم ما أحبوها .فإذا أحست منهم نفورا تنحت لهم عن مناصب الحكم . وهذا النوع من الحكومات قد بليت به مصر فى عصر من العصور ، فساءت حالها ، واضطربت أمورها ، وأوشكت الفوضى أن تفسدها ، وهو نوع يألفه الأوربيون والأمريكيون ، ويكلفون به ، ولا يجنون منه إلا الشر والنكر !!

أما القسم الثانى فهو هذه الحكومات القوية التى لا تستقبل المصاعب ولكن تستدبرها ! الحازمة التى لا تحب الصراحة وإنما تؤثر عليها المداورة والالتواء ، الرفيقة التى تحكم الناس سواء أرادوا أم لم يريدوا . ولا تتخلى عن الحكم إلا إذا انتزعت منه انتزاعا .

فاما القسم الأول من الحكومات فلا يحب الخطف . وأما القسم الثانى فلا يحب غير الخطف .

هل اقتنع الطلاب بهذه الآراء ؟ أم هل خرجوا من قاعة الدرس كما دخلوها ، وما تزال نفوسهم مضطربة ، وآراؤهم مختلفة ؟ علم هذا عند الله وعند المديرين ، ولكن الشىء الذى لا شك فيه هو أنهم أظهروا الاقتناع والاطمئنان ، وسيطيعون فيحسنون الطاعة ، وسينفذون فيحسنون التنفيذ ، وسيحتفظون لأنفسهم وللحكومات المقبلة بما قد يكون لهم من رأى خاص .

وإذن فسيتعرض الزعماء للخطف أينما ساروا ، وحيثما وجهوا ، ولكن الحاجة تفتق الحيلة كما قال القدماء . وما دامت الحكومة قد جعلت الخطف وسيلة من وسائل الحكم ، فمن يدرى ؟ لعل الزعماء لا يفقدون وسيلة يتقون بها أن يخطفوا ، وأن يسير بهم القطار فى هذه السرعة التى تعجز عنها الطير ولا يؤمن منها الضير .

(١٤)

مقاومة

لا عنف (١) فيها ولا حدة ، ولا بأس فيها ولا شدة ، ولكنها هادئة مطمئنة ، يخيل إلى كثير من الناس أنها استسلام وإذعان ، فإذا بلوها وجدوها مرة ، وإذا اختبروها وجدوها صلبة ، وإذا سلطوا عليها ما يملكون من قوة ، لم يبلغوا منها شيئاً . وإذا ابتسامات هذه المقاومة الهادئة ليست مظهراً من مظاهر الضعف ، ولا لونا من ألوان الرضى ، ولا أسلوبا من أساليب الإذعان ، وإنما هى سخرية لاذعة ممضة ، تغر وتغرى حتى إذا دنا منها الطامع فيها ، والمزدرى لها وجد عندها السم الزعاف فارتد عنها مفلول الحد ، مقطوع الرجاء .

ما أجمل هذا الهدوء الهادىء الذى يحسبه المستعمرون ذلة فإذا هو العزة كل العزة ، ويراه الطامعون إذعانا فإذا هو الإباء كل الإباء ، وإذا هو الدليل الواضح والبرهان القاطع على أن الثورة ليست فى العنف وحده ، ولا فى الشدة وحدها ، ولا فى هذا الاضطراب الذى يفسد له النظام ، وتقترف فيه الآثام ، ويذهب فيه الأخيار الأبرياء فداء للأشرار الآثمين. وإنما هى قد تكون دعة وأمنا واطمئنانا ، يدور حولها العدو فلا يصل إليها ، ولا يستطيع أن يدنو منها حتى إذا جد الجد تبين أن قد أنفق جهده فى غير طائل ، وأضاع وقته فى غير غناء .

ما أكثر ما عنى الشعراء وأصحاب الفن بهذه الابتسامات الساخرة التى ترتسم على ثغور بعض الأفراد هازئة بالحوادث ، مزدرية للخطوب! ما أكثر ما عنى الشعراء وأصحاب الفن بابتسامات الأفراد هذه ، فأبدعوا وأجادوا ، وأظهروا للناس آيات فنية خالدة ، وما أخلقهم أن ينظروا

---

(١) ٢٥/٣/١٩٣٣ عدد ٢٣٤٤

إلى ابتسامات أخرى ساخرة هى أروع من تلك الابتسامات وأجمل ، وهى أشد منها وقعا فى القلوب ، وأبعد منها أثرا فى النفوس ، لأنها ابتسامات تترجم عن سخرية الشعب من قوة الأقوياء ، وازدراء الأمم لسلطان المتجبرين .

فى هذه الابتسامات الشعبية جمال الصبر والجلد ، وجمال العزة والشمم ، وجمال الثقة والأمل . وفيها فوق هذا كله وبعد هذا كله جمال التضامن الصادق ، والتعاون الذى لا يجد الضعف ولا الفشل سبيلا إليه .

ما أجدر الشعراء وأصحاب الفن أن يصوروا سخرية الشعوب هذه ، وما أجدر المتسلطين والذين يريدون أن يكرهوا الأمم على ما لا تحب ، ويأخذوها بما لا ترضى أن ينظروا هم أيضاً إلى هذه الابتسامات فلعلها أن تثير فى نفوسهم العظة ، ولعلها أن تملأ قلوبهم بالعبرة ، ولعلها أن تقنعهم بأن إذلال الأفراد قد يكون ميسوراً ، ولكن إذلال الأمم شىء لا يطمع فيه .

فمن الحمق أن ينفق فيه الجهد ، ويضاع فيه الوقت ، ويضحى فيه الساسة بذكائهم وكفايتهم ، وما يطمعون فيه من حسن الأحدوثة وبعد الصيت .

ما أجمل هذه الابتسامات وقد ارتسمت على ثغر مصر منذ نهض رئيس الوزراء بأعباء الحكم ، فما زالت مرتسمة على هذا الثغر ، لم تفارقه ولم تتحول عنه ، ولم يشبها عبوس ، ولم يغير من صفائها وجمالها تقطيب ولا شحوب .

لقد نظرت مصر إلى صدقى باشا حين ألف وزارته ففهمت ما كان يريد ، فابتسمت له شفقة عليه ، تعظه وتحذره ، ولكنه أخطأ فهم هذه الابتسامة ، فلم ير فيها وعظا ولا نصحا ولا نذيرا ، وإنما رأى فيها رضى وتشجيعا وتسليما . فمضى فى سبيله يشتد ويسرف فى الشدة ،

ويغير ويغلو فى التغيير ، ويبدل ويمعن فى التبديل . وهو كلما مضى فى طريقه شوطا ، نظر إلى مصر فرأى ابتسامة الإشفاق والنذير ، ولم يفهم منها إلا الإذعان والتسليم فيستجمع قواه ، ويمضى أمامه مشتدا ملحا ، وإذا قواه تسلط على البرلمان فيحل ، وعلى الدستور فيغير . ثم على الأفراد والجماعات فيؤخذ بعضها بالرغبة ، وبعضها بالرهبة . ثم على المصالح العامة كلها فيسرى فيها الفساد كما تسرى العلة فى جسم الرجل الصحيح ، ثم على السياسة الخارجية بيننا وبين الانجليز ، وبيننا وبين غير الانجليز من الأمم ، فإذا هى مزاج غريب ، ظاهره العزة التى لا تخدع أحدا ، وباطنه التسليم والانخذال ، وهو كلما مضى أمامه شوطا أو أشواطا نظر مصر فرأى هذه الابتسامة المشفقة الساخرة ، ولم يفهم منها إشفاقا ولا سخرية حتى يبلغ به الجهد أقصاه ، وينتهى به الإعياء إلى غايته ، هنالك وهنالك فحسب يبدو له ، — ولكن بعد فوات الوقت وضياع الجهد — أنه قد غره بأمته الغرور ، فأصغر من شأنها وهو كبير ، وحقر من أمرها وهو عظيم ، وظنها راضية وهى ساخطة ، وحسبها مذعنة وهى شديدة الإباء . هنالك وهنالك فحسب نظر أمامه فلم ير إلا جهدا قد أنفق عبثا ، وقوة قد ذهبت هباء . والتفت عن يمينه وعن شماله فلم ير لنفسه مخرجا من هذا المأزق السياسى الحرج الذى ورط نفسه فيه ، فوقف حيث أراد الله أن يقف ، لا يستطيع أن يتقدم لأن الطريق أمامه مغلقة ، ولا يستطيع أن يتأخر لأن السبيل وراءه مقطوعة . فهو حائر لا يدرى ماذا يصنع ولا يعرف كيف يقول . وأصدقاؤه الذين ظاهروه وناصروه ، وأولياؤه الذين عقدوا به الآمال ، وناطوا به الأمانى ، ينظرون إليه ويقبلون عليه ، ويطيفون به ، وهم يسألونه : ماذا صنعت؟ وإلى أين انتهيت ؟ أين تلك الآمال الواسعة والأمانى العريضة ؟ أين أنت وأين نحن مس تحقيق الأمل وتصديق الظن وإنزال هذه الأمة عندما تريد ؟

نعم يسألونه فلا يجد لهم جوابا ، ويلحون عليه فى السؤال فيلح هو فى الصمت ، فيطرقون كما أطرق ، ويسكتون كما سكت ، وتأخذهم

الحيرة كما أخذته . والأمة المصرية هادئة وادعة ، ومطمئنة ساكنة ، وعلى ثغرها هذه الابتسامة الحلوة الواضحة التى لم يبق شك ولا ريب فيما تريد أن تدل عليه .

ماذا ؟ أبعد ثلاثة أعوام لا تشرق الشمس فيها إلا على قوة مسلطة ، ولا تغرب الشمس إلا على مكر مدبر ، وكيد مهيأ ، تظل الأمة كما كانت يوم نهض رئيس الوزراء ليبدل حياة بحياة ، ونظاما بنظام .

ماذا ؟ لقد كان الزعماء أول الأمر يهمون بالكلام فيؤخذون بالصمت ، وبالحركة فيضطرون إلى السكون ، وبالسفر فيردون إلى بيوتهم . وكان يقال : بقية من فوضى يجب أن يمحوها الحزم ، وفضل من اضطراب يجب أن يزيله النظام . ويمضى عام وبقية الفوضى ما زالت قائمة . ويمضى عام آخر وفضل الاضطراب ما زال قائما . ويشرف العام الثالث على غايته والأمر كما كان فى الساعة الأولى. لا ينبغى أن يتكلم الزعماء ، ولا أن يتحركوا ، ولا أن يسافروا لأن الأمة ما زالت لهم محبة ، وبهم واثقة ، وحولهم ملتفة ، ولدعائهم مستجيبة . وإذن ففيم بذلت القوى ، وفيم أنفقت الجهود ، وفيم بعثرت الأموال ؟ فيم ألغى نظام وأقيم مكانه نظام آخر ؟ فيم حل برلمان وأقيم مكانه برلمان آخر ؟ فيم سلطت الرغبة والرهبة على الأفراد والجماعات ؟ فيم رفعت الوزارة ورقعت ؟ فيم بسطت أيدى المديرين على الناس بما يباح وما لا يباح ؟ فيم أضاع رئيس الوزراء صحته وخضع لسلطان الأطباء ؟ فيم هذا كله ما دام الرئيس(١) الجليل لا يستطيع أن ينتقل إلا التفت حوله الأمة كلها كأول يوم ألفت الوزارة؟ولا يستطيع أن يتكلم إلا خفقت له القلوب كلها كأول يوم ألفت الوزارة ، ولا يستطيع أن يدعو إلا استجابت له الأمة كلها كأول يوم ألفت الوزارة ؟ وإذن ففيم كان كل هذا الجهد وفيم ضحى بكل هذا الوقت ؟

---

(١) المراد زعيم الوفد .

سؤال لا يجد عند رئيس الوزراء له جوابا ، وإنما تجد جوابه واضحا جليا ، لذاعا محييا للآمال فى هذه الابتسامه الحلوة المرة ، الراضية الساخطة معا ، المطيعة الموئسة معا .

هذا رئيس الوفد وصاحبه لم يكد يمتد بهما السفر حتى عجزت الحكومة عن أن تحتمل حب الأمة لها والتفافها حولها ، فإذا هى تردهما كارهين فى قطار تحميه الشرطة أو يحميه الجيش أو يحميانه معا كعهدها حين كانا يحاولان السفر فى العام الأول من أعوام هذه الوزارة .

وما أحبت الأمة رئيس الوفد ولا صاحبه افتتانا بشخصيها ، وهياما بهما . فهما مثلك ومثلى . ولكن الأمة ترى فيهما مبدأها الذى أقسمت لتبلغنه ، ومثلها الأعلى الذى أقسمت لتنتهين إليه .

هلم إذن يا صاحب الدولة فاجمع من شئت من جنود الشرطة وجنود الجيش ، واردد رئيس الوفد وصاحبه إلى القاهرة ، وضع كلا منهما فى بيته وغلق على كل منهما الأبواب ، وأقم دون كل منهما الحجاب ، وأفعل مثل ذلك بغيرهما من الزعماء ، فلن تبلغ بهذا كله فوق ما بلغت ، وماذا بلغت ؟ وأين تجد القوة على استئناف الجهاد ؟ أحركة يأس هى أم حركة رجاء ؟

فما أكثر ما تعبث الآمال بالنفوس ، وما أكثر ما يعجز الناس عن فهم العبر والعظات وإن تكن حركة يأس فما أصدق الشاعر القديم حين قال :

ربما تكره النفوس من الأمـ ـر له فرجة كحل العقال

أما أنت أيها البلد العزيز الأبى فاحتفظ بابتسامتك الحلوة المرة ، فليس أشد منها غيظا لحوادث الدهر ، ولا استهزاء بالمحن والخطوب .

(١٥)

غيوم

يظهر(١)أن فى جو السياسة المصرية الخارجية غيوما، لعلها خفيفة رقيقة ليس وراءها شىء ، ولعلها ثقيلة صفيقة وراءها أشياء . ولعل الأيام المقبلة تكشف عما تحجب هذه الغيوم من خير أو شر ، ولكن الشىء الذى لا شك فيه هو أن من الواجب العناية بهذه الغيوم ، وتتبعها فى دقة وفطنة. ومن الواجب أيضاً أن يجد المصريون فى أن يقفوا منها موقف الصراحة التى لا تحتمل شكا ولا تأويلا . وما الذى يمنعهم من ذلك ؟ وآمالهم ومثلهم العليا فى حياتهم الداخلية ، وفى علاقتهم الخارجية واضحة كل الوضوح ، جلية كل الجلاء . ووسائلهم إلى تحقيق هذه الآمال ، والوصول إلى هذه المثل العليا لا غموض فيها ولا إبهام .

فهم يريدون أن يكونوا أحرارا فى بلادهم بكل ما يدل عليه معنى هذه الكلمة ، ويسلكون إلى تحقيق هذه الحرية سبلهم الواضحة التى يراها الناس جميعاً ، والتى قوامها المطالبة بالحق فى غير هوادة ، وفى غير مراوغة ولا دوران .

فهم يريدون أن تكون صلاتهم الخارجية قائمة على الحرية ، لايكرهون عليها إكراهاً ، ولا يدفعون إليها دفعاً ، ولا يستدرجون إليها استدراجا ، ولا يقضى فيها وهم غائبون .

والظاهر أن الوزارة المصرية القائمة تقف الآن مواقف مريبة إلى حدما فى بعض المسائل ذات الخطر ، فتثير مواقفها هذه شكوكا وأوهاما ليس من مصلحة أحد أن تثور . ونحن نذكر من هذه المواقف المريبة التى تقفها

---

(١) ٢٨ — ٣ — ١٩٣٣ ، عدد ٢٣٤٧

الوزارة الآن ثلاثة ليس غير ، فأما أولها فموقف الحكومة بإزاء المفاوضة مع الإنجليز . فقد كان رئيس الوزراء يستغل مسألة المفاوضة فى الأعوام الماضية ويتخذ سعيه إليها وآماله فى الظفر بها وسيلة من وسائل البقاء فى الحكم . وقد قال فى ذلك فأكثر . وقال زميله القديم توفيق دوس باشا فى ذلك فأطال . ثم انقضت هذه الآمال وتبددت هذه الأمانى ، وظهر أن لا مفاوضة ولا شيء يشبه المفاوضة ، ولكن الحديث عن المفاوضة عاد فتجدد فى أول هذا الشتاء ، وأخذ الناس يقولون إن أحاديث تجرى بين رئيس الوزراء والمندوب السامى ، ويشيعون أنها تتقدم حينا وتتأخر حينا آخر .

ثم مرض رئيس الوزراء ،وعجز عن المفاوضة والمحادثة أو ما يشبهها، ولكن الناس ظلوا يتحدثون عن المفاوضة ، وغلا بعضهم فقال : إن ما عجز عنه صدقى باشا ينهض به قوم آخرون غير صدقى باشا .

ثم سافر المندوب السامى فجأة ، ولعله لم ينخدع لها أحد ، فكثرت الإشاعات ، واستفاضت الأحاديث بأن فى الأمر شيئا ، وبأن مشروع معاهدة قد تم . وسافر المندوب السامى ليعرضه على حكومته . فإن أقرته أمضاه رئيس الوزراء ، واستقال لأن مهمته انتهت . وإن رفضته استقال رئيس الوزراء لأنه عجز عن تحقيق الاستقلال ،وقد أخذ على نفسه عهداً ليحققن الاستقلال ، أو لينزلن عن الحكم .

والناس يختلفون فى مشروع المعاهدة هذا ، فمنهم من يرقى به حتى يبلغ المشروع الذى وصل إليه الوفد الرسمى الأخير . ومنهم من ينزل به حتى يصل إلى مشروع ثروت تشمبرلين . ومنهم من يضطرب بين هذين المشروعين هبوطا وارتفاعا . وأكبر الظن أن أكثر هذه الأحاديث غير صحيح ، ولكن هناك شيئا لا شك فيه ، وهو أن هذه الأحاديث التى تتصل وتستفيض وتلح فى الاستفاضة والاتصال قد أثارت ريبا كثيرة فى نفوس الناس من المصريين والأجانب .

فأما المصريون فمن حقهم أن يرتابوا لأن الأمر يتصل بحياتهم واستقلالهم، وهم لم يتعودوا إلحاحا فى التكتم والمداورة حول مسألة الاستقلال كهذا الإلحاح فى التكتم والمداورة الآن . وهم لا يثقون بالوزارة القائمة ، ولا يطمئنون إليها ، ولعل أيسر ما يقال عن رأيهم فى هذه الوزارة أنهم يرتابون أشد الارتياب بكل ما تأتى ، لأنهم قد جربوا عليها الإسراف فى التهاون والإفراط فى التقصير ، والغلو فى دفع الأثمان الباهظة لأيسر الأشياء وأقلها خطرا .

وهم يعلمون حق العلم أن البقاء فى الحكم شيء له قيمته ، ويجب أن يؤدى ثمنه فيخافون ، ومن حقهم أن يخافوا ألا يكون إسراف الحكومة فى تملق الإنجليز ومبالغتها فى تحقيق أغراضهم ومآربهم فى مصر والسودان كافيا للحياد النزيه ، ووسيلة كافية للبقاء فى الحكم . وأن تعرض الوزارة أو يطلب إليها أصدقاؤها والمؤيدون لها من الإنجليز مشروع معاهدة معينا على أن يكون ثمنا للحكم وقتا آخر طويلا أو قصيرا .

وأما الأجانب فلم ينظروا فى يوم من الأيام ، وهم لا يستطيعون أن ينظروا إلى المفاوضات بين المصريين والإنجليز نظرة المستخف الذى لا يحفل ولا يكترث ، فلهم مصالحهم أيضا فى مصر ، وهذه المصالح جزء من موضوع المفاوضات . ومن حقهم أن يعرفوا أو أن يحاولوا أن يعرفوا إلى أى حد ترعى هذه المصالح ، وعلى أى نحو ترعى ، وماذا يبقى لهم ، وماذا يؤخذ منهم . فإذا كانت المفاوضات سرا مكتوما ، وحديثا من وراء ستار ، فليس غريبا أن تثور الريب فى نفوس الأجانب هؤلاء . وليس غريبا أن تكثر بينهم الأحاديث ، وتستفيض فيهم الإشاعات فيفرح منهم فريق ، ويجزع منهم فريق آخر ، ويضطرب الجو السياسى على كل حال .

هذا كله ولم نذكر البرلمان الذى لا يعلم من أمر هذه الأحاديث أكثر مما علمه عامة الناس ، ولكن البرلمان راض عن موقفه هذا ، فلندعه

وما يرضى ، ونستطيع أن نؤكد أن هذا الغموض والإبهام ، وهذا التستر والتكتم ليس من شأنهما أن توجد فى مصر جوا صالحا لحياة صالحة . وما رأيك فى جو سياسى قوامه الإشاعات المضطربة المختلطة التى تدعو إلى الريبة وسوء الظن ، وتلقى فى روع المصريين والأجانب معا أن شيئا يجرى خلف ستار ، هو بالمؤامرة أشبه منه بالمفاوضة .

أما الموقف الثانى من المواقف المريبة التى تقفها الحكومة فبازاء الدين. فقد زعمت الحكومة أن رئيسها وفق إلى إقناع الدول الأوربية بوجهة النظر المصرية كما يقولون ، وعاد رئيس الوزراء من أوربا فتمدح بهذا الفوز فى شىء من الدل والتيه ، وفى لون من التلميح والتعريض ، وفى تجنب للصراحة والوضوح ، كما يفعل أصحاب الكفايات السياسية العليا ! ثم ظهر أنه لم يوفق إلى شىء . فأوفد صاحب السعادة عبدالحميد بدوى باشا إلى إيطاليا وفرنسا وإنجلترا ليجدد الحديث فى هذا الموضوع ، وقيل إنه وفق إلى شىء كثير ، ثم قيل إنه لم يوفق إلى شىء . ثم صدر حكم المحكمة المختلطة فغضب الناس جميعا ، وأعلن رئيس الوزراء أنه لن يدفع إلا ورقا ، ولكنه لم يتخذ إلى الآن وسيلة من الوسائل ليثبت للناس أنه يريد أن يفعل كما قال .

ومن هنا ابتدأت الريب والشكوك فى نفوس المصريين والأجانب معا. أيريد رئيس الوزراء أن يلائم بين قوله وفعله ، فلا يدفع إلا ورقا ؟ أم هو يريد أن يطاول ويماطل لتهدأ ثائرة الشعب ، ثم ينزل بعد ذلك عند ما يريد الدائنون ؟

فان تكن الثانية فان المصريين معذورون حين يسيئون الظن ويتوقعون الشر ، وينكرون الحكومة التى تخدعهم ، والأجانب الذين يستغلونهم . والأجانب معذورون حين يضطربون بين اليأس والأمل ، وبين الخوف والرجاء ، وحين يترددون بين الذهب النضار ، وبين ما قد يضطر إليه المصريون من بغضهم والتبرم بهم .

وإن تكن الأولى فما أبطأ الحكومة فى اتخاذ قرار حاسم مريح ،وماسبها إلى اتخاذهذا القرار ؟ أتريد أن تتخذه وحدها فى غير مفاوضة ولا مناقشة؟ أم تريد أن تفاوض وتناقش ؟ ومن تفاوض ؟ أتفاوض الإنجليز وحدهم ليكونوا وسيلتها وشفعاءها عند الأمم الأخرى ؟ أم تفاوض الدول الأخرى فى غير وساطة من الإنجليز ؟

كل هذه مسائل يخوض فيها الناس من المصريين والأجانب فتثير فى نفوسهم شكوكا وريبا ، وتخلق جوا رديئا قوامه سوء الظن ، وفساد الرأى ، وضعف التعاون الذى يجب أن يكون بين الذين يعيشون على ضفاف النيل من المصريين والأجانب جميعا . كل يرتاب بصاحبه . وكل يخاف من صاحبه ، وكل يصدق فيه قول الشاعر القديم :

فإما أن تكون أخى بحق فأعرف منك غثى من سمينى
وإلا فاطرحنى واتخذنى عـــدوا أجتويك وتجتوينى

الموقف الثالث من هذه المواقف المريبة ، موقف الحكومة فى شأن الامتيازات . فالمصريون جميعا يكرهون الامتيازات ويريدون أن يتخلصوا منها كما خلص غيرهم من الأمم الشرقية . وكانت الحكومة المصرية تصل مسألة الامتيازات بمسألة المفاوضة مع الإنجليز ، فلما صدر حكم المحكمة المختلطة فى مسألة الدين ، ظهرت مطالبات منظمة بإلغاء الامتيازات فورا ، لم يخدع عنها أحد من المصريين ولا من الأجانب المقيمين فى مصر ، بل عرف أولئك وهؤلاء من أين هبت الريح ، وقد بلغت الريح البرلمان ، ولكنها لم تلبث أن هدأت فهدأت حماسة النواب والشيوخ ، واستقرت فاستقرت حماسة تلك الجماعات التى كانت ترسل العرائض فى كل يوم إلى الصحف ، ولعل المصريين والأجانب جميعا قد فهموا أو كادوا يفهمون كيف هبت الريح وكيف استقرت ، ولكن استقرار هذه الريح لم يستتبع استقرار النفوس فى البيئات المصرية والأجنبية .فالمصريون ينتهزون الفرصة ليلحوا فى إلغاء الامتيازات ،

والأجانب يقفون موقف الدفاع حينا، وموقف الهجوم المنكر حينا، وموقف الريبة والخوف على كل حال .

وليس من مصلحة أى إنسان أن يكون الخوف والريبة والبغض قوام الصلات بين المصريين والأجانب ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، فهذه جريدة الديبا تشير إلى هذه المواقف الثلاثة التى تقفها الحكومة المصرية فى الدين ، والمعاهدة والامتيازات . فيظهر فى إشارتها الشك والارتياب أيضا. فليس الشك مقصورا إذن على المقيمين فى مصر ، وإنما هو يتجاوزهم إلى أوربا وصحفها الكبرى .

ومع ذلك فليس هناك موقف أصرح ولا أوضح من موقف الأمة المصرية الطبيعى بإزاء هذه المسائل الثلاث . فهى فيما بينها وبين الإنجليز تريد استقلالا شريفا ، لا لبس فيه ولا غموض ، وهى فيما بينها وبين الدائنين تريد أن تدفع بنقدها كما تفعل الأمم التى لا تزال معترمة تأدية ما عليها من دين .وهى فيما بينها وبين الدول صاحبات الامتيازات تريد أن تلغى هذا النظام العتيق ، وأن تلغيه فى غير مواربة ولا عداء .

فما الذى يمنع الحكومة أن تقف من هذه المسائل موقفا صريحا واضحا كموقف الأمة فتزيل الشك وتمحو الريب ؟ الذى يمنعها شىء يسير لا تحفل به، ولكنه قوام الحياة الصالحة فى كل دولة تقدر كرامتها . وهو أن الصلة قد انقطعت بينها وبين الأمة ، فهى تسىء الظن بالشعب ، وتخاف منه على كل شىء . والشعب يسىء الظن بها ويخاف منها على كل شىء . والغريب مع ذلك أن يعتقد بعض الأجانب من الإنجليز وغير الإنجليز أنهم يستطيعون أن يتفقوا مع هذه الوزارة على شىء ضئيل أو عظيم .

(١٦)

زيارتان

من المحقق(١) أن حظ الأزهر من الرعاية أعظم جدا من حظ الجامعة المصرية فى هذه الأيام ، لا بالقياس إلى حضرة صاحب الجلالة الملك ، فهو يرعى مرافق مصر كلها بما ينبغى لمقامه السامى من العدل والعطف والبر بشعبه الكريم عليه ، المخلص له ، بل بالقياس إلى الحكومة التى لا تتنزه عن الأثرة(٢) ، كما أنها لا تتنزه عن الإيثار . وقد تعلم أنت كما أعلم أنا أن رئيس وزرائنا هو حامى الدين ، والذائد عن الإسلام ، والأثير عند الشيخ الأكبر مهما تختلف الظروف وتتبدل الخطوب . والذى لا يأتى عملا إلا التمس له الشيخ الأكبر تأييداً أو تخريجا فى كتاب من كتب الفقه ، أو سفر من أسفار الأصول .

وحكومتنا - كما تعلم أنت وأعلم أنا - حكومة تقليد ، لا تجديد ، قامت لتحقيق غرض واحد ، هو أن ترد مصر والعالم الإسلامى إن استطاعت إلى سماحة الإسلام وطهارته ، وأن تمحق البدع محقا ، وتمحو الإلحاد محوا . فلا غرابة فى أن تؤثر الأزهر بالعناية والرعاية ، وتنكب الجامعة ما استطاعت إلى التنكيل بها سبيلا . فإن أعياها ذلك وضعت الجامعة منها موضع المغضوب عليه ، المزهود فيه .

ولست أريد الآن أن أذكر ما ربح الأزهر ، أو بعبارة أدق ما ربح الأزهريون من عطف الحكومة على الأزهر ، وما خسرت الجامعة والجامعيون

---

(١) ٢٩ - ٣ - ١٩٣٣ عدد ٢٣٤٨

(٢) الأثرة : حب الذات أو الأنانية ، والفعل أثر ، والإيثار أن تقدم غيرك على نفسك وفعله آثر : وتؤثر الأزهر أى تخصه ، والأثير : المفضل .

من غضب الحكومة على الجامعة . فقد يكون لهذا يوم قريب . وإنما اقف عند شيء واحد ، لا أعلوه ، ذكرته حين قرأت ما نشرته الصحف من وصف الزيارة الملكية لكلية أصول الدين أمس .

فى أواخر فبراير من السنة الماضية ، تفضل جلالة الملك فشرف الجامعة بزيارته الكريمة . فلما شرف كلية الحقوق والآداب والمكتبة تفضل فذهب إلى سرادق الجامعة حيث سمع النثر والشعر ، وحيث تفضل فوزع بيده الكريمة بعض شهادات الدرجات الجامعية العلمية والتشريفة(١) على أصحابها .

ولاحظ الناس يومئذ أن الجامعة(٢) لم يسمع لها فى هذا الحفل صوت ،

---

(١) المراد الدكتوراة الفخرية .

(٢) زار الملك فؤاد كلية الحقوق ودخل المدرج الأيسر حيث كان طلبة السنة الثالثة جالسين يتلقون درسا فى الشريعة الإسلامية من الشيخ أحمد إبراهيم وكيل الكلية . ولما أذن لهم بالجلوس وقف الطالب حسن بغدادى وألقى كلمة ترحيب نيابة عن إخوانه . ثم أخذ الأستاذ يشرح الدرس وكان موضوعه « تطور حالة الميراث من عهد الجاهلية إلى ما استقر عليه الرأى فى الأسلام »

وبعد أن وقف الملك قليلا مستمعا إلى الدرس توجه إلى المدرج الأيمن حيث كان طلبة السنة الأولى يستمعون لمحاضرة من الأستاذ عبد الرزاق أحمد السنهورى فى القانون المدنى عن تطور العقد باعتباره سببا من أسباب الملكية تحت تأثير العوامل الاجتماعية والاقتصادية .

وفى كلية الآداب دخل أحد المدرجات حيث كان الشيخ مصطفى عبد الرازق يلقى محاضرة فى الفلسفة الإسلامية عن الفارابى . كما استمع لمحاضرات بعض المستشرقين . وأخيراً توجه إلى السرادق الذى أقيم لهذه المناسبة . وقدم وزير المعارف للملك سفرا ألفه أحمد شوقى عن أمراء العرب وملوك الإسلام . ثم قدم الوزير الأستاذ على الجارم لإلقاء قصيدة من نظم أحمد شوقى ومما جاء فيها :

تـاج البلاد تحيـة وسـلام ردتك مصر وصحت الأحلام

العـلم والملك الرفيع كلاهمـا لك يا فـؤاد جـلالة ومقام =

وإنما سمع وزير التقاليد يخطب بصوته العميق العريض فيطيل ، وسمع مفتش من وزارة المعارف ينشد قصيدة لشوقى رحمه الله . وتفضل صاحب الجلالة فزار كلية من كليات الأزهر أمس فلم يسمع فى هذه الزيارة لغير الأزهر صوت . لم يسمع صوت التقاليد فى عمقه وعرضه . ولم يقل مفتش من وزارة المعارف شعرا ولا نثرا . ومن الناس من يظن أن مصدر هذا الاختلاف

= فكأنك المأمـون فى سلطانه فى ظلك الأعلام والأقـلام

ومنها :

من آل إسماعيل لا العمات قد قصرن عن كرم ولا الأعمـام

وقد قوبل هذا البيت بتصفيق حاد متواصل . وكانت الأميرة فاطمة إسماعيل قد تبرعت للجامعة بالأموال ووقفت عليها أرضا زراعية مساحتها ٦٢١ فدانا وستة أفدنة بالدقى .

ومنها :

لم يعط همتهم ولا إحسانهم بان على وادى الملوك همـام

وبنى فـؤاد حائطيه يعينه شعب عن الغايات ليس ينام

وقد قوبل هذا البيت بتصفيق حاد متواصل . والقصيدة فى ٥٣ بيتا . ثم ألقى على الجارم قصيدة جاء فيها :

دعوت بيانى أن يفيض فأسعدا وناديت شعرى أن يجيد فغردا

ومنها :

مليك حبته مصر محض ولائها صميما وأولى مصر عزا وسؤددا

رويدك أجهدت المؤرخ ما ونى ولا فارقت يوما يراعته اليـدا

وهى فى ٣٧ بيتا .

وبعد أن فرغ الجارم من إنشاد شعره ، دخل موكب جامعى بالملابس الجامعية ، وتسلم كل منهم شهادة الدكتوراه الفخرية ، نذكر منهم محمد توفيق رفعت باشا وعلى ماهر باشا ، وعبد العزيز فهمى باشا ، وعبد الحميد بدوى باشا . ومن كلية الآداب عبد الوهاب عزام أفندى . ومن الطب الدكتور على باشا إبراهيم وبعض زملائه من كلية الطب »

أن الأزهر كان أحرص من الجامعة على أن يتكلم بين يدى حامى الأزهر ومنشىء الجامعة ، ولكن هنا يجب الإنصاف ، وهنا يجب أن يكتب التاريخ .

فقد أرغمت الجامعة إرغاما على أن لا تتكلم لأسباب يعرفها وزير التقاليد ووكيله والذين كانوا يرقون إليه بالكيد ، ويتزلون عليه بالوحى . واستقال مدير الجامعة ، أو هم أن يستقيل . وتعب عمداء الجامعة فى هذا تعباً شديدا ، وسعى وكيل الجامعة فى هذا سعيا معقدا ملتويا طويلا . وانتهى مدير الجامعة إلى أن نزل لوزير التقاليد عن الكلام بين يدى صاحب الجلالة . فتكلم وزير التقاليد وبرع فى الكلام ، وقال وزير التقاليد فأطال القول ، وانتهت الزيارة ، وانصرف الناس ، وبعضهم يتحدث إلى بعض بأنهم قد أقبلوا يستمعون لمدير الجامعة ، فإذا هم يستمعون لوزير المعارف . ويتنبأ بعضهم لبعض بأن منع الجامعة من الكلام بين يدى منشىء الجامعة لا يدل على خير وكان بعضهم يسبق الحوادث أيضا فيرى فى منع الجامعة من الكلام نذيرا بأنها ستمنع من العمل قليلا أو كثيرا . وكان بعضهم يسبق الحوادث أيضا فيرى فى إنشاد مفتش من وزارة المعارف للشعر فى حفل جامعى نذيرا بأن يد وزارة المعارف ستنبسط فى الجامعة والجامعيين حتى تخضع الجامعة لوزير المعارف ووكيله والذين يرقون إليه بالكيد ، والذين يتزلون إليه بالوحى .

ولم تمض أيام أربعة حتى كان من أمر الجامعة ما كان ، ولم يتم العام دورته حتى غير قانون الجامعة فقصت أجنحتها ، وحيل بينها وبين العمل الجامعى الصحيح . وفى أثناء هذا العام ، أقصى من الجامعة من كرههم الوزير ووكيله والذين يرقون إليه بالكيد ، والذين يتزلون عليه بالوحى . وضيق على الذين لم يكرهوا ولم يخافوا ، ولكنهم وضعوا موضع الشك والريب . ووسع فيها على الذين عرفوا كيف يدورون حول الأقطاب فى القمة والحضيض وجرت أمور الجامعة أو مشت أمور الجامعة — كما علمت — متعثرة ، مشى المقيد فى الوحل كما يقول مسلم بن الوليد .

أما الأزهر الشريف فماأظن أن أحدانازع شيخه(١) الأكبر فى الكلام بين يدى زائره الكريم ، وتعليل ذلك يسير . فكلام الشيخ الأكبر بين يدى صاحب الجلالة المصرية أهون على الله والناس من أن يخاف أو يحسب له حساب .

وشخص الشيخ الأكبر ألين عودا ، وأشد مرونة من أن ينكره رئيس الوزراء ، أو يحاول التخلص منه . وقد بذل الشيخ الأكبر من الجهد والقوة فى تأييد رئيس الوزراء وأعماله وأقواله وآماله ما لم يبذل مثله مدير الجامعة السابق . وطمع رئيس الوزراء من شيخ الأزهر فيما لم يطمع فى مثله من مدير الجامعة السابق . فما الذى يمنع حامى الإسلام أن يخلى بين شيخ الإسلام وبين الكلام ؟

ولا تقل إن شيخ الأزهر رجل دين فيجب أن يتكلم ، لأن الوزراء

---

(١) بعد مظاهرات المواطنين فى الإسكندرية فى ١٥ – ٧ – ١٩٣٠ التى سقط فيها ٢٥ قتيلا ونحو ٤٠٠ جريح ، أصدر الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى شيخ الجامع الأزهر ، وأحمد نصر شيخ المالكية وعبد المجيد سليم شيخ الحنفية بيانا موجها إلى الأمة المصرية ، وذلك بإيعاز من الملك فؤاد ، ومما جاء فيه :

« أيتها الأمة الكريمة . إن العبث بالنظام العام ، والتحريض على القطيعة والتدابر ، وإحداث الفتنة والشغب لمن أكبر الجرائم وأبشع المناكر التى تأباها الفطر السليمة ، ويحرمها الدين القويم . من أجل ذلك ننصح لأولئك الذين يندفعون إلى العبث بالنظام العام أن يخلدوا إلى السكينة »

وقد نظر الشعب إلى هذا البيان بامتعاض شديد ، لأنه يطلب من الأمة أن تستسلم للإنجليز وللملك فؤاد ، ولا تطالب بحقها فى الحرية والحياة الكريمة . وهذا شأن رجال الدين المسلمين الذين يتقاضون أجورهم من الحكومة ، فلا عجب أن استهزأ بهم الناس وسخروا منهم . ولا عجب أن سقطت مكانتهم وانحطت منزلتهم ، وباءوا بغضب من الله ومن الجماهير .

لا يحسنون من علم الدين ما يحسن . فانا أؤكـد لك أن مدير الجامعة السابق(١) رجل علم ، فكان يجب أن يتكلم ، لأن الوزراء ، وفيهم وزير التقاليد لا يحسنون من العلم بعض ما يحسن . وأنت تعلم أن كثيراً من الوزراء إذا تكلموا لم ينشئوا الكلام ، وإنما أنشىء لهم . وقد أنشئت لوزير التقاليد خطبته يوم الجامعة ؛ فتلاها فى صوته العميق العريض ، فكان من الممكن أن تنشأ خطبة أزهرية للوزير المختص بشئون الأزهر فيتلوها ، ولكن شيخ الأزهر أثير ، ومدير الجامعة لم يكن مرغوبا فيه ، ولكن رجال الأزهر تورطوا فى تأييد رئيس الوزراء ، ورجال الجامعة أبوا أن يكونوا أداة سياسية لرئيس الوزراء ، ولكن رجال الأزهر يريدون أو يرضون أن يكونوا دعاة إلى الرجوع ، وكان رجال الجامعة يريدون أن يكونوا رسل الرقى ، ولكن رجال الأزهر يجدون فى بسط سلطان الحكومة القائمة على الشعب ، وكان رجال الجامعة لا يفكرون فى حكومة ما ، وإنما يريدون تحرير العقل . وتحرير العقل خطر ، لأنه وسيلة الحرية والديمقراطية . وإذن فيجب أن يخفت صوت الجامعة ، ويجب أن يرتفع صوت الأزهر .

وكان فى الجامعة قوم لا يحبون أن تخفت أصواتهم فابعدوا عنها ، وليس فى الأزهر إلا من يحب أن يرتفع صوته إن شاءت الحكومة ، ويخفت صوته إن شاءت الحكومة . فيجب أن يقربوا جميعاً .

ولا تقل إن رجال الأزهر رجال دين فيجب أن تعرف لهم مكانتهم الدينية ، فإن رجال الجامعة رجال علم ، وقد أدوا واجبهم العلمى أحسن

---

(١) كان مدير الجامعة أحمد لطفى السيد حاضراً الزيارة الملكية . ولو أراد أن يتكلم لما منعه أحد . وقد دار الزمان وأصبح طه حسين وزيراً للمعارف ، ووقف خطيبا بين يدى الملك فاروق فى حفلة افتتاح جامعة محمد على الصناعيه فأطرى الملك ومدحه مدحا عظيما . وكان ينتظر أن ينعم عليه بالباشوية ولكنه لم يفعل ، بل قال له « متشكر يا طه بك » وضغط على كلمة « بك » . حدثنى بذلك عباس محمود العقاد فاه إلى فى . ولزم داره مدعيا أنه مريض ، فأنعم عليه الملك بالباشوية فبرىء لساعته ورجع إلى عمله : انظر للمؤلف : طه حسين الشاعر الكاتب »

أداء ، ورفعوا مكانة مصر العلمية وكرامتها فى أقطار الأرض ، ولم يؤد رجال الدين واجبهم الدينى ولا نهضوا منه بشىء .

أتذكر أننا استفتينا شيخ الأزهر فى التمثيل والرقص والغناء ، وما ينفق عليها من أموال المسلمين فى الأوبرا ، وأكدنا لك أن الشيخ سينكر إعانة الأوبرا فى مجلس الشيوخ ، فقد مرت ميزانية وزارة المعارف أمام مجلس الشيوخ يوم الاثنين أى قبل الزيارة الملكية للأزهر بليلة واحدة ، فلم تذكر إعانة الأوبرا ، ولم يسمع صوت الشيخ ، ومن يدرى ؟ لعله تخلف عن هذه الجلسة عمدا لتبرأ ذمته من إعانة التمثيل والرقص والغناء . فغير المنكر بالصمت ، واكتفى بأضعف الإيمان ، ومن يدرى ؟ لعله تخلف عن هذه الجلسة مضطرا ليتمرن على إلقاء خطبته بين يدى صاحب الجلالة ، فآثر حسن الإلقاء على حسن البلاء فى سبيل الإسلام والمسلمين .

لا تقل إن رجال الأزهر رجال دين ، فيجب أن ترعى مكانتهم الدينية فإن رجال الدين لا يسكتون على موت السنوسى (١) ، لأن وزارة مصر الإسلامية أبت أن تأذن له بالاستشفاء فى مصر الإسلامية . إنما رجل دينه هو الحاخام الأكبر الذى لم يتردد فى أن يشارك الإسرائيليين فى الاحتجاج على ما يقال إن اليهود يلقون من الشر فى ألمانيا .

---

(١) كانت حكومة الحجاز قد طلبت من الحكومة المصرية أن تسمح للسيد أحمد الشريف السنوسى بالحضور إلى مصر للعلاج من مرض ألم به ، فلم تتلق رداً من الحكومة المصرية. فأرسلت صحيفة « كوكب الشرق » مندوبا قابل الشيخ فوزان السابق وزير الحجاز المفوض فى القاهرة وسأله عن هذا الموضوع فذكر له أن طلب حكومة الحجاز وصل إلى القاهرة قبل مجىء ملك إيطاليا بيومين ، ورجح الشيخ فوزان أن يكون هذا هو السبب فى عدم رد وزارة إسماعيل صدقى . وقد أقام بعض المصريين صلاة الغائب على روح السيد أحمد الشريف ، كما أقيمت الصلاة على روحه فى برلين . ولزيادة المعلومات عن جهاد السيد أحمد الشريف انظر كتابنا « السلطان حسين كامل »

لا ، ليست(١) المسألة مسألة دين ، ولا مسألة علم ، وإنما هى مسألة سياسية ليس غير . رأت الوزارة فى الجامعة معهدا خطرا على سياسة القهر والتسلط فغضبت عليها. ورأت الوزارة فى الأزهر ، أو قل فى شيوخ الأزهر ، أو قل فى الهيئة الرسمية للأزهر ، أو قل فى شيخ الأزهر مؤيدا لسياستها هذه ، فرضيت عنه ، وآثرته بالخير . فأما الأمة فإنها تعلم حق العلم أين الذين يؤيدونها وينصرونها ، ويهيئون لها الوسائل إلى الحرية والعزة والكرامة ، فتنظر إليهم فى حب ، وترمقهم فى أمل ، وتعدهم بأن تمنحهم من التأييد ما يمكنهم من المضى فيما هم بسبيله من سعى إلى تحقيق الحرية والعزة والكرامة والاستقلال .

فليهنأ الأزهر برضى الحكومة ، ولتهنأ الجامعة برضى الأمة وغضب الوزراء .

(١٧)

استجواب

أظنه(٢) الاستجواب الثانى فى تاريخ مجلس النواب القائم . فأما الأول فكان حول الجامعة . وكان المجلس حريصاً كل الحرص على أن يتعجل

---

(١) قدر لطه حسين أن يعيش حتى يرى ما حل بالجامعة والجامعيين من الذل والإهانة والنقل والفصل ، ولعله تذكر ما كتبه فيما مضى فسخر من نفسه وندم وتألم ، وتفجع وتحسر . إن جمال عبد الناصر لم يتورع عن ارتكاب أبشع الجرائم فى حق مواطنيه ، وكانت النتيجة هى قتل روح الفداء والتضحية بين الناس ، وانتشار النفاق والرياء ، فماتت الضمائر ، وفسدت الذمم وكثرت الوشاية والنميمة وجميع الصفات الذميمة .

(٢) كوكب الشرق فى ١٩٣٣/٣/٣٠ ، عدد ٢٣٤٩

اليوم الذى يعرض فيه ، لأن(١) حياة الدولة يومئذ كانت تتعرض لخطر شديد . وقد عرض هذا الاستجواب وخرجت منه الحكومة ظافرة ، وخرج منه المجلس منتصرا ، وخرجت منه الدولة آمنة على حياتها ، مطمئنة على مستقبلها . وخرجت منه الأمة سعيدة راضية ، واثقة بأنها لن تتعرض لظمأ ولا جوع .

ونظر الإنجليز إلى ظفر الحكومة وانتصار المجلس وأمن الدولة وابتهاج الأمة نظرة فيها ابتسامة ساخرة راضية معا . تسخر من عناية الحكومة والبرلمان بأيسر الأمور ، وترضى لأن الجامعة برئت من بعض العناصر الخطرة على سياسة الاستعمار .

أما الاستجواب الثانى فهو هذا الذى تحدث فيه المجلس أمس فى تحديد موعده ، وهو استجواب أقل ما يوصف به أنه ضئيل الخطر ، يدل على فراغ البال ، والعناية بصغائر الأمور ، فهو يدور حول جبل الأولياء . وأى شيء يكون جبل الأولياء ؟ وأى قيمة أو خطر لهذا الخزان الذى إن أنشىء لم ينفع ولم يضر . وإن لم ينشأ لم تربح مصر شيئا ، ولم تخسر شيئا. لهذا كان المجلس ضيق الصدر بهذا الاستجواب ، وبالذين قدموه ، وكيف لا يضيق صدر المجلس بهؤلاء الذين يضيعون وقتهم ، ويريدون أن يضيعوا وقته فيما لا يغنى ولا يفيد .

والظاهر أن أصحاب الاستجواب قد أحسوا ضيق صدر المجلس فضاقت صدورهم هم أيضا بهذا الاستجواب . لهذا كان المجلس متبرما أمس ، حريصا على ألا يحدد موعدا يخطب فيه الخطباء ، ويرد فيه الوزراء . وكان صاحب الاستجواب فاترا فى الإلحاح يدور حوله ولا يتورط فيه ؟

وكان زعيم المعارضة (كما تسميه الأهرام) فاترا أيضاً يضرب الأمثال بفرنسا مرة ، وببلجيكا مرة أخرى . ولم يكن الوزراء أقل

---

(١) يشير إلى استجواب عبد الحميد سعيد ، وقد سبق الكلام عنه .

فتورا من الأعضاء . فأما وزير الأشغال أصالة والمالية نيابة فقد تخفف من الحمل وبرىء من التبعة ، وأعلن أن رئيس الوزراء يريد أن يرد بنفسه على هذا الاستجواب .

ورئيس الوزراء – كما تعلم –(١) مريض ، وقد يأذن له الأطباء فى إمضاء الأوراق ، وفى الذهاب إلى أحد مكتبيه أو إليهما فى المالية والرياسة إن ألح فى ذلك أو أصر عليه ، ولكن الوقت الذى يسمح فيه مرضه بأن يسمع فيطيل الاستماع ، ويتكلم فيطيل الكلام بعيد فيما يظهر ، قدره وزير الحقانية بشهر ، ووافقه المجلس على هذا التقدير .

والشهر أمد قصير جدا فى حياة مجالس النواب ، ولا سيما حين تكون دورتها قصيرة ، وحين تكون مشرفة على نهايتها . والشهر على ذلك أمد

---

(١) عاد إسماعيل صدقى إلى منزلة الساعة الثانية من بعد ظهر يوم ١٩٣٣/١/٢٦ فشعر بدوار ، استدعى على أثره الدكتور سليمان عزمى بك والدكتور جرجس بك الضبع . وقد جاء فى النشرة الطبية أن رئيس الوزراء يشكو من احتقان مخى خفيف مع ارتفاع الضغط الشريانى أكثر من المعتاد . وبعد العلاج اللازم تحسنت الحالة .
أصيب صدقى باشا بشلل فى ذراعه الأيمن .

وكان النحاس باشا قد وقف حاسر الرأس فى مسجد الحسين بعد صلاة الجمعة اليتيمة ووقف معه المصلون « ودعا الله أن يرفع الضر عن مصر ، ويكشف البلاء عنها ، ويقرب يوم الخلاص »

ولما سقط إسماعيل صدقى مريضا خطب زعيم الوفد وقال : إن الشواهد تدل على أننا اليوم على وشك زوال هذا العهد المشئوم . وسوف يكون جزاء صبرنا بإذن الله جزاء موفورا ، فنسترد حقنا كاملا غير مرقع ولا منقوص « الشعب والكوكب فى ١٩٣٣/١/٢٧ .

وقد دعا على جمال عبد الناصر فأصيب بمرض نغص عليه حياته لأكثر من عشرة أعوام :

قصير تقع فيه حوادث قد تجعل الاستجواب غير مفيد ، لأنه تأخر عن إبانه ، وقد تثير ما يضطر أصحابه إلى استرداده ، وقد تثير مايدعو الحكومة إلى أن تطلب تأجيله إلى أجل غير مسمى . وقد يتم فيها نظر العطاءات ، والاتفاق مع الذين يقيمون الخزان فيصبح الاستجواب درسا من دروس التاريخ ومناقشة حول مسألة تاريخية خالصة .

أكانت الحكومة مصيبة أم كانت مخطئة حين مضت فى إقامة الخزان برغم المصريين ، وبرغم الإنجليز معا فى ظاهر الأمر ؟ والمناقشات التاريخية قيمة جدا ولكن مكانها كما تعلم فى غرفات المدارس وحجراتها ، لا فى قاعات مجلس النواب .

وإذن فقد أجل الاستجواب شهرا ، ومن الآن إلى أن ينقضى هذا الشهر ستشرق الشمس ثلاثين مرة ، وستغرب الشمس ثلاثين مرة ، وستتألق النجوم ، وتكثر الهموم . ومن يدرى ؟ لعل هما حادثا يصرف عن هم قديم . ثم يقال بعد ذلك إن سادة مصر ينظرون إليها نظرا فيه شىء من الجد ، ويصرفون أمورها تصريفا فيه شىء من العناية الصحيحة.

كلا ، إنما ينظر المسيطرون على مصر إلى مصر نظرة كلها سخرية واستهزاء . ولو قد عنى المسيطرون على مصر بشئونها عناية صحيحة فيها شىء من الجد ولو قليلا لما أقام رئيس الوزراء فى الحكم وهو مريض ، يعجزه مرضه عن العمل فتتعطل المصالح وتضيع المرافق ويمرض معه البرلمان ، ويصبح نشاط مجلس النواب رهينا بنشاطه ، وحياة مجلس النواب موقوفة على حياته .

استطاع رئيس الوزراء أن يتابع نشاط البرلمان شهراً ونصف شهر ، ثم مرض منذ شهرين فمضى البرلمان فى طريقه كما استطاع مضطربا متعثراً إلا حين يذهب أعضاؤه إلى الزمالك أو إلى ميناهوس ليظهروا أسفهم لمرض الرئيس ، واغتباطهم بشفاء الرئيس ، وأملهم فى نشاط الرئيس . فأما فيما عدا ذلك فمرض يشبه الشلل (كما قالت الأهرام منذ أيام) .

وتثار فى المجلس مسألة لها خطرها ، لأنها تمس حياة مصر من جميع فروعها ، فيجاب النواب بأن رئيس الوزراء مريض ، وهو يريد أن يقول فى هذه المسألة قوله ، فانتظروا حتى يطلق الله لسانه ، ويأذن له بالكلام .

ويقبل النواب مثل هذا راضين عنه ، مبتهجين له كأنهم إنما أقبلوا إلى البرلمان ليكونوا رهنا بأمر الرئيس ورغبة الرئيس . وكأن مصالح مصر ومرافقها وحياتها أهون عليهم من صحة رئيس الوزراء .

فاذا انقضى الشهر ، ولم تسمح صحة رئيس الوزراء له بأن يشهد جلسات المجلس ، ويشترك فى أعماله ، فماذا يصنع الوزراء ؟ وماذا يصنع النواب ؟ وماذا يصنع المستجوبون ؟ سيطلب الوزراء التأجيل شهراً آخر حتى ينشط الرئيس(١) : وستلح الأغلبية فى هذا التأجيل ، وتبتهج له لعلها ترى الرئيس ، وستتورط الأقلية فتبتهج كغيرها لهذا التأجيل لعلها تبدأ معارضتها بالترحيب بالرئيس وتهنئته بما ساق الله إليه من شفاء .

وفى أثناء ذلك تمضى الحكومة فى إقامة الخزان ، لا تلوى على شىء . أجد هذا أم هزل ؟ أعناية هذا أم إهمال ؟

وأغرب من هذا كله أن جواب رئيس الوزراء معروف ، فهو لن يزيد على هذا الجواب الذى أرسل إلى زعيم المعارضة فى المجلس (كما تسميه الأهرام) حين قدم سؤالا فى هذا الموضوع ، فأجيب بأن الأمر من حق السلطة التنفيذية ، لا من حق البرلمان . لن يزيد رئيس الوزراء إن تكلم عن هذا المعنى وسيغضب المعارضون . وستكرههم الأغلبية على الصمت وسيصوغ بعض الأعضاء اقتراحاً فيه الثقة بالوزارة والانتقال إلى جدول

---

(١) بعد موافقة مجلس النواب على ميزانية وزارة الأشغال ، سقط الاستجواب من تلقاء نفسه .

الأعمال ، وستقبل الحكومة هذا الاقتراح ، وتقبله الأغلبية ، وتخرج الحكومة ظافرة ، ويخرج المجلس ظافرا ، ويبتسم ممثل الحكومة الإنجليزية ابتسامة فيها سخرية ورضى . ولن يكون شيء غير هذا إن أذن الله لرئيس الوزراء بالنشاط .

وإذن فلم لا يمثل هذا الفصل بعد عشرة أيام ؟ ولم يؤجل هذا التمثيل شهرا كاملا ؟ ولم يحرص رئيس الوزراء على أن يشترك فى هذا التمثيل ؟ أهو شيء عظيم جداً لا يريد رئيس الوزراء أن يفوته الاشتراك فيه ؟ أهو شيء خطر جداً لا يأمن رئيس الوزراء أن يكله إلى وزير الأشغال أصالة والمالية نيابة ؟

فإن تكن الأولى فما موضع العظمة فى هذا الفصل التمثيلى ؟ وإن تكن الثانية فما موضع الخطر ؟

إن الناس جميعاً يعلمون حق العلم أن الحكومة قد أخذت نفسها باقامة الخزان ، وأنها ستمضى فى إقامته دون تردد ولا إبطاء مهما تكن الظروف ، ومهما يقل النواب ، لا يصرفها عن ذلك إلا سقوط الوزارة .

ولعلك قرأت الأهرام أمس ، ولعلك فهمت أن الأمور مرهونة بأوقاتها ، وأن سقوط الوزارة قد يكون ، ولكن فى الوقت الموقوت . وهذا الوقت الموقوت قد يكون فى يونيو ، وقد يكون فى يوليو ، وقد يكون قبل ذلك وقد يكون بعد ذلك ، ولكنه لن يحين إلا بعد أن يتم التدبير والتقدير لإقامة الخزان .

فليؤجل الاستجواب شهرا ، وليؤجل الاستجواب شهرين ، ولينظر الاستجواب قبل الشهر أو قبل الشهرين ، فلن تفيد مصر من تأجيله أو تعجيله شيئا .

(١٨)

وداع

زعموا أن زيادا لما ضبط العراق لمعاوية(١) ، وأقر فيه النظام الجديد بالقهر والعنف ، كتب إلى الخليفة يسأله أن يضم إليه ولاية الحجاز ، وهم الخليفة أن يفعل . وجزع أهل الحجاز حين انتهى إليهم هذا النبأ ، فلجأوا إلى عبدالله بن عمر بن الخطاب — رضى الله عنهما — يسألونه أن يدعو على زياد ، فلم يدع عبدالله على أحد ، ولكنه استقبل القبلة فيما يقال ، وسأل الله العافية والسلامة والمغفرة للمسلمين ، وكفى الله أهل الحجاز زيادا ، وأراح الله أهل العراق من زياد ، لأنه نقل زيادا إلى دار أخرى ، لا ولاية فيها إلا لله ، ولا سلطان فيها إلا لله ، وليس فيها خوف من وال ، ولا إشفاق من أمير .

وكان أهل الحجاز معذورين حين أشفقوا من ولاية زياد ، لأنه كان قد جشم أهل العراق أهوالا ، وجرعهم من العذاب ألوانا . وكان أهل العراق معذورين حين تنفسوا الصعداء لانتقال زياد عنهم ، لأنه كان قد أذاقهم ألوانا من الذل ، وأخضعهم لضروب من الخسف لم يعرفوها من قبل . وإن كان انتقال زياد عنهم لم يرضهم حقا ، فقد ولى أمورهم بعد من لم يكن خيرا من زياد ، بل من كان شرا من زياد .

وأنا بعيد كل البعد عن أن أفكر فى أن بين ولاتنا فى الأقاليم ، هؤلاء الذين نسميهم المديرين ، وبين زياد شبها ما ... !! فقد كانت فى زياد خصال من الشر لم يبلغوها مع السرور ... !

ولكن الشىء بالشىء يذكر ، وتوزيع المديرين على الأقاليم فى هذه الأيام القائمة يذكر بقصة زياد مع أهل الحجاز وأهل العراق . يذكر بها

---

(١) ١ — ٤ — ١٩٣٣ عدد ٢٣٥١

لأن رضى أهل الأقاليم عن المديرين الراحلين عنهم ، وأمل أهل الأقاليم فى المديرين المقبلين عليهم لا يخلو من شوائب لا تصور الرضى ، ولعلها تصور السخط . ولا تصور الأمل ولعلها تصور الخوف واليأس .

فمهما يقل القائلون فلن يستطيعوا أن ينكروا أن أهل أسيوط ساخطون على مديرهم القديم سخطا سجله القضاء غير مرة . وتحدث به الناس فى مصر وغير مصر فأكثروا الحديث . وما أظن أن أهل الغربية يستقبلون مديرهم الجديد فى أمل مشرق ورجاء مبتسم ، وهو يقبل عليهم ومن ورائه البدارى والمطيعة وبنى حسين(١) ! وأكبر الظن بل الحق الذى لا شك فيه هو أن هذه الأحداث المنكرة التى استحدثت فى أسيوط قد سبقت مديرها إلى أهل الغربية فملأت قلوبهم ، لا أقول رعبا وفزعا ، فالمصريون — بحمد الله — لا يعرفون الآن رعبا ولا فزعا ، ولكن ملأت قلوبهم حزنا وأسى ، لأنهم يتوقعون أن يسير فيهم مديرهم الجديد سيرة أهل أسيوط .

ومهما يقل القائلون فلن يستطيعوا أن يزعموا أن أهل الدقهلية يحفظون لمديرهم الراحل عنهم ذكريات ملؤها الحب الخالص والثناء الجميل ، وإن أهل المنوفية يستقبلونه بهذا الأمل الواسع الطلق ، وهذا الرجاء الباسم العريض ، وما يستقبل به خيار المديرين من حسن الاستعداد للتعاون الصادق ، ولم تجف بعد هذه الدماء التى سفكت فى أرض الدقهلية ، ولم تستقر بعد هذه النفوس التى أزهقت فى جو الدقهلية ، ولم ينس الناس بعد أن سوء الإدارة كان السبب القريب أو البعيد الذى سفكت له هذه الدماء ، وأزهقت له هذه النفوس ، والذى إن لم تستطع قوانين الناس أن تعاقب عليه لأمر من الأمور ، فان قوانين الله لا تهمله ، ولا تمحو إثمه ، ولا تدعه يمضى بغير حساب .

---

(١) لعل الصواب « بنى حسن »

وقل شيئا كهذا أو قريبا من هذا فى سائر الأقاليم التى رحل عنها مدير، وانتقل إليها مدير . فكلها يودع فى سخط ويستقبل فى حزن ، ويذكر بقصة زياد .

ومع ذلك فهل قرأت المقطم أمس ؟ وهل رأيت أن جميع الأقاليم التى انتقل عنها المديرون قد وجدت من أهلها من رضى عن المديرين ، وأسف لفراقهم: وحرص على أن يودعهم ، وداعا فيه الحب والود ، وفيه الإعجاب والإكبار ... ! وهل لاحظت أن أخبار هذا الوداع قد وصلت إلى المقطم كلها فى لحظة واحدة ، ونشرها المقطم كلها فى يوم واحد ، وفى مكان واحد ، كأنما كانت من المقطم على ميعاد ... ! وكأنها التقت فى هذا الميعاد فحيا بعضها بعضا ، وصافح بعضها بعضا ، وانتقلت جميعا إلى المقطم لتنزل فى هذه المنزلة التى أعدت لها من قبل إعدادا ، ومهدت لها من قبل تمهيدا .

ألم تنكر شيئا من هذا التوافق الغريب بين مكاتب البريد فى قنا وجرجا وأسيوط والزقازيق ودمنهور ، وبين سعاة البريد فى القاهرة على اختلاف المسافات بعدا أو قربا من القاهرة ؟ ألم تحس أن هذا أيضا أمر قد دبر بليل ، وأريد به شىء غير هذا الظاهر الذى تراه أنت وأراه أنا ؟ أما أنا فلست أدرى لم لا أكتفى بظواهر الأشياء ؟ ولم أبحث دائما عن دخائلها وأسرارها . والحق أنى لم أطل البحث ولم أتكلف فيه شيئا من العناء . فقد أنكرت الصحف حفلات الوداع هذه ، وتقدم بعض النواب بأسئلة فيها إلى وزير الداخلية ، وكان حوار فى الصحف حول هذه الأسئلة ، وإذا وحى يصدر فيسمع ، وأمر يبلغ فيطاع . وإذا توافق غريب بين المديرين على اختلاف أمزجتهم وطبائعهم ، كلهم زاهد فى الحفلات ، كاره لها ، وكلهم راغب عنها ، معتذر منها . وكلهم حريص على أن تنشر الصحف زهده واعتذاره .

ألست تنكر من توافق المديرين على هذا الزهد الطارىء مثل ما أنكرت من توافق الرسائل على الظهور فى المقطم فى يوم واحد ، وفى مكان واحد، كأنما جاءت على ميعاد .. ؟!

عفا الله عن وزارتنا القائمة ، ماذا صنعت بارادة الأفراد والجماعات وطبيعة الأشياء ؟ أكل شيء فى مصر يجب أن يكون مرتبا مصنوعا ؟ أكل شيء فى مصر يجب أن يخضع لهذا العبث الغريب الذى يؤلف بين المختلفات ويوفق بين المفترقات ؟

ثم ماذا أراد العابثون بهذا النوع من العبث ؟ تستطيع أن تصدقنى : لم يريدوا به المصلحة ، لم يريدوا به التخفيف عن هؤلاء المأزومين الذين يكلفون دفع الأموال ، وهم لا يملكون منها شيئا . لم يريدوا إلا اللعب بعقول الناس ، وإلا هذه الحرب السخيفة التى لا تقدم ولا تؤخر . هؤلاء أهل البحيرة قد جمعت منهم الأموال فأدوها كارهين ، ثم أوحى إلى المدير ألا يشهد حفلا ، ولا يقبل تكريما . فهل ترى أن الأموال قد ردت على أصحابها ؟ كلا لم ترد ، أو قيل لأصحابها لا تقبلوها إن ردت إليكم ، فسيشترون بها إذن سندات ينفق ريعها فى بعض الجوائز المدرسية تخليدا لاسم المدير . وأى تخليد لم يصدر عن الحب الخالص الذى يدفع إلى الجود ، لا بالأموال فى وقت الشدة ، بل بالأنفس أيضا .

وهؤلاء أهل قنا . نعم أهل قنا ! أهل قنا بعد أن كان فيها ما كان، بعد أن خطف منها الرئيس وصاحبه ، بعد أن ظهر حب أهلها للمدير والإدارة ، والوزير والوزارة . بعد أن قام ألف دليل ودليل على أن أهلها يؤيدون النظام الجديد ، ويذودون عنه بالأنفس والأموال . بعد هذا كله جمعت الأموال من أهل قنا لتكريم المدير ، ثم أوحى إليه أن لا يشهد حفلا، ولا يقبل تكريما . وإذا هو يعتذر ويلح فى الاعتذار . وأهل قنا يأبون ويصرون على الإباء ، ثم ينتهى الأمر إلى أن يستأجر أهل قنا، نعم يستأجرون

قطارا خاصا يشيعون فيه — وقد كدت أملى يزفون — فيه المدير إلى إقليمه الجديد . ماذا ؟ أجد هذا أم هزل ؟ بعقول من يعبث العابثون ؟

إن حكومتنا لقاسية ، قاسية مسرفة فى القسوة ، مالها تقف موقف العذول بين المحبين فتفرق بين المديرين وعشاقهم من أهل الأقاليم ؟ مالها لا تدع هؤلاء المديرين حيث كانوا هم راضون عن أقاليمهم وأقاليمهم راضية عنهم ! فلم تنغص العيش عليها وعليهم ؟ ولكن الغريب أن أهل الأقاليم سيعشقون المديرين الذين ينقلون إليهم وسيهيمون بهم هياما لا حد له .

سيجد أهل قنا فى مديرهم الجديد رجلا يعشقونه كما عشقوا مديرهم القديم ، وسيجد مدير قنا القديم من أهل المنيا قوما يحبهم ويكلف بهم ، كما أحب القنائيين وكلف بهم من قبل . فما تفسير هذه الظواهر التى تعجز عن فهمها العقول ؟ تفسيرها يسير ، فأهل الأقاليم لا يحسون عشقا ولا غراما . والمديرون لا يجدون حبا ولا هياما . وإنما كل ذلك شىء مصنوع موضوع ، يجب أن يقبله أولئك وهؤلاء لتقوم الأدلة الواضحة على أن الأمور تجرى فى مصر على خير حال .

ولكن مع الأسف الشديد ليس من المصريين ولا من الإنجليز من يصدق شيئا من هذا أو ينخدع لحيلة من هذه الحيل . وإذن فقيم هذا العبث ؟ وقيم الإلحاح فى هذا العبث ؟

جواب هذا يسير أيضا فإن من لم يستطع الجد مضطر إلى الهزل ، وإلا فوجوده مستحيل . صدقنى إن أمر المديرين الراحلين وأقاليمهم لا يعدو قصة زياد . كل إقليم يودع مديره مستريحا لهذا الوداع ، ويستقبل مديره الجديد خائفا من هذا الاستقبال .

(١٩)

غموض

كان(١) الناس يتهامسون فى الأسبوع الماضى بأن شيئا جديدا قد طرأ فى مسألة الدين ، وأداء فوائده ذهبا أو ورقا ؟ وكانوا يتهامسون بألوان من الأحاديث فى تفسير هذا الشىء الطارىء ؛ وأشرنا نحن إلى هذا كله حين أخذنا الوزارة القائمة بالمواقف المريبة التى تقفها بازاء المفاوضات والامتيازات والدين . ولم نرد أن نفصل ولم نرد أن نبسط القول . فقد زعموا أن من الحق على الصحف إذا عرضت لبعض المسائل السياسية الخارجية أن تصطنع الدقة وتحرص على الاحتياط ، وألا تقول كل ما تعلم حتى لا تحرج الذين يشتغلون بهذه السياسة الخارجية ؛ ولاتثير من المشكلات ما لا خير فى أن يثار .

لذلك لمحنا ولم نصرح ، وأجملنا ولم نفصل ، وقدرنا أن فى هذا التلميح ما يكفى ، ولكن يظهر أن « الأهرام » تريد أن تخطو خطوة أوسع من خطوتنا نحن ، فهى تلمح أيضاً ولكن تلميحها أقرب إلى التصريح ، وهى تجمل ولكن إجمالها أدنى إلى التفصيل .

وهى تحدثنا صباح اليوم بأن مسألة الدين قد طرأ عليها تعقيد سياسى له قيمته وخطره . فالظاهر أن المندوب السامى قد ذهب إلى لندرة ليقنع حكومته بمعونة مصر فى ألا تدفع ذهباً . وكانت حكومته قد أظهرت استعدادها لهذه المعونة ، وموافقتها على وجهة النظر المصرية . والظاهر أيضاً أن إيطاليا قد أظهرت ميلا إلى إجابة مصر إلى ما تريد . وإذن لم تبق إلا دولة واحدة هى التى لم تغير موقفها ، وهذه الدولة هى فرنسا .

---

(١) ٢/٤/٩٣٣ — عدد ٢٣٥٢

والأهرام تتساءل عن الأسباب التى تدعو فرنسا إلى التشدد فى موقفها هذا ، وتمنعها أن تظهر لمصر ما أظهرته دائما من المودة وحسن الاستعداد لتوثيق الصلات بينها وبيننا على قاعدة التعاون الصادق الخالص من الشوائب بمقدار ما تستطيع الصلات السياسية بين الأمم أن تخلص من الشوائب .

وتحاول الأهرام أن تجيب على هذا السؤال ، فلا تصدق أن فرنسا تتشدد فى موقفها ، لأن الفرنسيين الذين يملكون السندات المصرية كثيرون جداً ، وتلاحظ الأهرام ولها الحق أن منفعة فرنسا إنما هى فى حسن الصلة بينها وبين مصر ، وفى المحافظة على تقاليدها فى معاملة مصر ، وفى الظفر بما ظفرت به دائما من حب المصريين لها ، وإيثارهم إياها بالمودة حين يقيمون فى بلادهم ، وبالزيارة حين يرحلون عنها .

وإذن فليس هذا السبب هو الذى يضطر فرنسا إلى أن تتشدد فى موقفها بازاء مسألة الدين ، ويكون حظها من حسن الاستعداد أقل من حظ انجلترا وإيطاليا ، فيجب أن يكون هناك سبب آخر ، وهذا السبب تستنتجه الأهرام بالظن والحدس ، ونريد نحن أن نستنتجه بالحدس والظن أيضاً كما فعلت الأهرام ، لأن الظن والحدس هما أقرب وسائل الاستنتاج وأصدقها فى مثل هذه المسائل ، وهو أن فرنسا ليست قليلة الحظ من حسن الاستعداد بالقياس إلى مصر ، ولعلها شديدة الحرص جدا على أن تحتفظ بتقاليدها ، وتؤثر حب المصريين ومودتهم على هذه المبالغ المالية اليسيرة التى لا تلائم حقا ، ولا عدلا .

ولعلها كانت تريد أن تقبل وجهة النظر المصرية ، ولكنها على أن تقبلها هى ، وعلى أن تسدى هى إلى مصر هذا الصنيع ، وعلى أن يشعر المصريون شعوراً واضحا بأنها قد آثرت مودتهم على منفعة فريق من أبنائها .

فأما أن تغير موقفها لأن الإنجليز أرادوا ذلك ، وأشفعوا فيه فتخسر هى من الناحية المادية ، ولا تربح شيئا من الناحية المعنوية ، ويستأثر

الانجليز بهذا الربح المعنوى، ويعتقد المصريون أن إنجلترا هى التى وضعت عنهم ثقل الدفع ذهبا ، فذلك شىء تنفر منه فرنسا ولا ترضاه لا لكرامتها ولا لما تريده لأعمالها من حسن الموقع فى نفوس المصريين .

وتدافع الأهرام بعد ذلك عن توسط الإنجليز بما ليس يعنينا أن نقف عنده الآن ، إنما الذى يعنينا هو أن تحرج فرنسا من أن تسدى إلى مصر صنيعة بإرادة الانجليز أو بشفاعتهم أمر قد تحدث فيه الناس منذ أيام ، وكرهنا نحن أن نفصل القول فيه . وما كنا لنعود إليه لولا أن استنتجته الأهرام صباح اليوم بالظن والحدس والتخمين كما تقول .

ومن المعقول جدا أن تجد دولة عظيمة كفرنسا مثل هذا الحرج ، ولكن من المعقول أن يتساءل الناس عن الذى اضطر فرنسا إلى هذا الحرج ، فالمعروف أن الإصبع الإنجليزية لا تدع أمراً من أمور السياسة الخارجية المصرية إلا مسته ولعبت فيه . والمعروف أن فرنسا وغيرها تعلم هذا حق العلم ، وتعلمه بنوع خاص منذ سنة ١٩٠٤ ، وتعلمه بنوع أخص منذ أرسلت إلى الدول تبليغها بعد صدور تصريح فبراير » ١٩٢٢ .

وإذن فأى شىء جد فى الأمر ؟ أهى حكومتنا التى لم تحسن تصريف هذا الأمر الدقيق ، ومراعاة ما يحيط به من الظروف ، فاضطربت فيه اضطرابا مريبا ، أظهرت للفرنسيين استقلالا لم تستطع أن تحتفظ به وتمضى فيه . وأظهرت للانجليز تهالكا لم تستطع أن تخلص منه أو تتراجع عنه ؟ فصدقها الفرنسيون وهموا أن يعاملوها معاملة الحكومة المستقلة ، وأسرع الإنجليز فاستغلوا تهالكها عليهم ، وإسرافها فى الاستعانة بهم ، ونشأ عن هذا الموقف المريب ما كان موضوع حديث الناس منذ أسبوع ، وما استنتجته الأهرام بالظن والحدس والتخمين صباح اليوم .

أم هو شىء آخر لم يصل إليه حظ الأهرام من الظن والحدس والتخمين ؟ قد يكون هذا وقد يكون ذاك ، وكلاهما يحزن ، وكلاهما يسوء ، ولكن وراء هذا وذاك شيئا لا يحزن ولا يسوء ، بل يسر ويرضى

وهو أن موقف الأمة المصرية بإزاء مسألة الدين قد أحدث آثاره الطبيعية، فأخذت الدول تظهر استعدادها لقبول الرأى المصرى ، وكلها يحرص على أن يشعر المصريون منها بحسن هذا الاستعداد .

ووراء هذا وذاك شيء آخر ، هو أن من الخير أن تتخذ الحكومة فى السياسة الخارجية طريقا واضحة وخطة صريحة جلية ، لا يظهر فيها عوج ولا التواء . فقد يدعو فساد الظروف السياسية الداخلية للحكومة إلى أن تدور وتضطرب فتمضى حينا ، وترجع حينا ، وتمضى مرة ذات اليمين : وأخرى ذات الشمال ، وتسرف مرة فى القسوة ، ومرة فى الضعف ، وتصانع مرة ، وتصارح مرة أخرى . كل هذا يحدث مع الأسف ، وكل هذا يمكن تفسيره وتأويله فى السياسة الداخلية .

أما فى السياسة الخارجية فشره إن حدث عظيم ، لأن السياسة الخارجية لا ينبغى أن تعتمد على مداورة الأحزاب ، ولا مصانعة الأصدقاء ومدافعة الخصوم . وسواء أصحت كل هذه الأحاديث أم لم تصح فإن الذى يلاحظ دائما على سيرة وزارتنا القائمة فى مسائل السياسة الخارجية هو أنها لا تخلو من غرابة وإيثار للغموض والإبهام . والواقع أننا لم ننتظر خيرا منذ ارتحل رئيس الوزارة إلى أوربا ، فأخذ يظهر فى سياحته تلك بهذه المظاهر الفخمة الضخمة التى هى أشبه شيء بالإعلان التجارى منها بالزيارات السياسية .

لم ننتظر خيرا من هذا الإعلان ، بل توقعنا منه شرا كثيرا . فقد يكون من الحسن أن يظهر رئيس وزرائنا فى إيطاليا وفرنسا مظهر رئيس الوزراء لبلاد مستقلة حقا ، ولكن على شرط أن يجد من نفسه القوة على أن يظل كذلك ، وبشرط ألا يستحيل هذا الاستقلال متى وصل رئيس الوزراء إلى جنيف ، فأخذ ينتظر وزير الخارجية الإنجليزية ، ويصطنع المقبول وغير المقبول من الوسائل ليظفر برؤيته والتحدث إليه ، ثم إذا عاد إلى القاهرة اتخذ المقبول وغير المقبول من الوسائل ليظهر أنه متمتع بعطف وزير الخارجية الإنجليزية .

هذا التناقض نفسه مريب ، وهو إن كان مريبا بالقياس إلى المصريين مع أنهم يعلمون من أمر رئيس الوزراء ما يعلمون ، فهو أكثر ريبا بالقياس إلى الأجانب الذين إن عرفوا شيئا فقد تخفى عليهم أشياء .

لقد زار رئيس وزرائنا روما وفرنسا ، وتحدث إلى الحكومتين الإيطالية والفرنسية فى مسألة الدين حديث الوزير المستقل ، ولكنه لم يلبث أن ذهب إلى جنيف فدار حول وزير الخارجية الإنجليزية دوران الوزير غير المستقل ، ثم عاد إلى القاهرة وإذا الإنجليز يتوسطون عند فرنسا وإيطاليا فيما كان يحدثهما فيه رئيس الوزراء من غير واسطة . فاحدى اثنتين ، اما أن يكون رئيس وزرائنا مستقلا فيسير سيرة المستقلين . أو تابعا فيسير سيرة التابعين .

أما الاضطراب بين هاتين السيرتين فهو الذى لا خير فيه ، وهو الذى يثير الريب والشكوك ، ويملأ الجو بهذه الأحاديث التى أفاض الناس فيها منذ أيام والتى استنتجتها الأهرام بالظن والحدس والتخمين صباح اليوم ، والتى لا تفيد أحدا من الأجانب ولا من المصريين .

(٢٠)

أحلام

أكانت(١) الأفريكان ورلد على ضآلة قدرها ، وصغر شأنها تحلم بأن تعنى الصحف المصرية بما تكتب هذه العناية التى ظهرت صباح اليوم فى السياسة والأهرام ...

سخر الكوكب أمس مما كتبته الأفريكان ورلد ، وتحدث عن رأيها فى الوزارة الائتلافية على أنه حلم من أحلام رئيس الوزراء ، وأمنية من

---

(١) ١٩٣٣/٤/٣ — عدد ٢٣٥٣

هذه الأمانى التى تعبث برأس الرجل الضعيف ، ولا سيا حين يستريح فى ظل الأهرام(١) ، حيث تكثر الصور والأشباح التى تؤرق قوما ، وترسل الأحلام إلى آخرين .

ولكن السياسة والأهرام لم تسخرا بما كتبته الأفريكان ورلد .

فأما السياسة فالظاهر أنها حرصت على أن تعيد للناس مالم يشك أحد فيه ، من أن الأحرار الدستوريين أكرم على أنفسهم وأحرص على مبادئهم من أن يشتركوا مع صدقى باشا فى احتمال تبعات الحكم مهما تكن الظروف.

وأما الأهرام فيظهر أنها نظرت إلى مقال الأفريكان ورلد نظرة عناية وجد ، تعلم الأهرام حق العلم أن هذه الصحيفة لا تستحقها . ومن يدرى لعل الأفريكان ورلد إنما اتخذت وسيلة إلى إعادة الكلام فى الائتلاف والوزارة القومية(٢) ، ولعل الذين ألم بهم فى اليقظة أو فى النوم طيف هذا الائتلاف مع رئيس الوزراء ، هم الذين أوحوا إلى الأفريكان ورلد، وهم الذين تقدموا إلى الأهرام فى أن تعلق على ما كتبت الأفريكان ورلد .

والظاهر أن فى الجو المصرى الآن روحا يطوف حول جماعة من الناس ، هو روح الائتلاف مع رئيس الوزراء . . . . ! فقد خابت التجربة ، وأخفقت المحاولات ، وظهر أن الترقيع جهد ضائع ، ولم تبق إلا محاولة واحدة ، وهى أن يستقيل رئيس الوزراء مرة ثانية ،

---

(١) كان إسماعيل صدقى باشا يستجم أحيانا فى فندق ميناهوس .

(٢) كان الإنجليز يلوحون بفكرة الوزارة القومية ليحدثوا انشقاقا فى حزب الغالبية ولكن مصطفى النحاس ومعه آخرون من أعضاء الوفد رفض فكرة الوزارة القومية فى ظل دستور سنة ١٩٣٠ وصمم على عودة دستور سنة ١٩٢٣ واجراء انتخابات حرة ، ويترك الأمر للأمة فى نوع الوزارة التى تتولى الحكم . وكانت الأمة على اختلاف طبقاتها تؤيد الوفد وزعيمه .

ويجدد تأليف الوزارة ، على أن يكون الائتلاف أوسع مما هو الآن ! فيشمل قوما آخرين غير الاتحاديين والشعبيين ، كما قالت بعض الصحف الإنجليزية منذ أيام .

ما أقدر رئيس الوزراء رغم مرضه على سعة الآمال وبعد الخيال....! وكأن رئيس الوزراء لم يتبين إلى الآن أن زملاءه وأعوانه وأنصاره لا يمكن أن يكونوا فى يوم من الأيام مصدر قوته ! وإنما هو نفسه مصدر الضعف الذى يجده ويريد أن يتخلص منه ! ولو اعتدلت آمال رئيس الوزراء ، واقتصد فى خياله بعض الشىء لعرف أن الوسيلة الوحيدة التى تخلصه من هذا الضعف الذى يشكوه إنما هى أن يتعظ بقول الشاعر القديم :

إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع(١)

وقد ثبت ألف مرة ومرة أن رئيس الوزراء لا يستطيع الحكم ، وإنما يستطيع الراحة ، فماله لا يدع ما لا يستطيع إلى ما يستطيع ؟ فيستقيل ويفرغ لصحته ، ويستريح ويريح ؟

ولكن آمال رئيس الوزراء أوسع من قوته ، وخيال رئيس الوزراء أبعد من طاقته . وكثيرا ما شقى الناس بسعة الآمال وبعد الخيال ! !

على أن من الغريب ألا يتعظ الإنجليز وفريق من المصريين بالتجارب ولا يعتبروا بالحوادث ، وأن يمضوا مع الآمال كما يمضى رئيس الوزراء، ويستسلموا للخيال كما يستسلم رئيس الوزراء ، ويقدر كل واحد منهم أن المسألة المصرية لم تزل من المسائل التى يمكن أن تلتمس لها الحلول العرجاء أو تسلك إليها الطرق الملتوية ! فقد طالما لجأ الإنجليز ومعهم فريق من المصريين إلى الحلول العرجاء فلم يظفروا بشىء ، وطالما سلك الإنجليز

---

(١) هذا البيت ينسب الى الخليل بن أحمد، قاله للأصمعى وكان قد ذهب ليتلقى عنه العروض فلم يفلح ، وحينئذ قال له الخليل هذا البيت .

ومعهم فريق من المصريين هذه الطرق الملتوية فلم ينتهوا إلى شيء . . . ! استغفر الله ، بل انتهوا إلى الفشل والإخفاق ، واضطروا إلى أن يستأنفوا السعي ، وكأنهم لم يسعوا ويجدوا فى التماس الحل ، وكأنهم لم يلتمسوه من قبل . . . !

ومصدر هذا الاضطراب والتورط فى هذه المحاولات العقيمة أن الإنجليز وأعوانهم من المصريين لا يريدون أو لا يستطيعون أن يعترفوا بالحقيقة الواقعة ، وهى أن الأمة المصرية موجودة حقا ، شاعرة بوجودها حقا ، جادة فى طلب استقلالها حقا ، متنبهة لما يراد بها من الكيد حقا . فهى لا تؤخذ على غرة ، ولا تخدع بالأمانى والآمال . وهى لا تؤخذ بقوة ولا بعنف ، ولا تقبل إلا ما ترضاه هى ، لا ما يراد لها .

وإذن فلن يكون لما بينها وبين الإنجليز حل صحيح منتج إلا أن تشترك هى فى هذا الحل . وإذن فالدوران حولها لا يفيد ، ولا خير فى هذه المحاولات التى جربت مرات منذ كانت الحركة الوطنية ، فلم تنته إلا إلى ما أرادت الأمة نفسها .

نعم إن مذاق هذه الأمة مر على الإنجليز ، ولكنهم مضطرون إلى أن يحتملوا هذه المرارة ، وإلا فالأمر باق على ما هو عليه . وهم مهما يفعلوا فلن يزيدوا على تأجيل اليوم الذى يذوقون فيه هذه المرارة ويعترفون بأن أمور مصر يجب أن ترد إلى مصر ، وبأن الاتفاق يجب أن يكون مع الأمة المصرية .

نعم إن من المصريين من يحبون الحكم ويتعجلون الوصول إليه ويظنون كما يظن الإنجليز أن خداع هذه الأمة أمر يسير ، وأن من الممكن أن تزين لها الألفاظ فتغرها وترضيها بما لا ترضى ، ولكن هؤلاء المصريين قد رأوا وزارات قامت على هذا الخداع فلم تصنع شيئا ، وهم يرون الآن وزارة تقوم على تزيين الألفاظ حينا ، وعلى العنف والعسف حينا آخر ، فلا تصنع شيئا رغم البقاء الطويل والتأييد القوى المتصل .

إن الزمن لا يمضى عبثا ، ولا يذهب سدى ، ولعل خير ما أنتجه مر الغداة وكر العشى فى هذه الأيام عندنا هو أنه لم يبق أمل ما لرجل له حظ من العقل والتفكير فى أن يأخذ مصر بغير ما تريد . فما أجدر الإنجليز وأصدقاءهم من المصريين أن يواجهوا هذه الحقيقة الواقعة فى شجاعة وحزم وزهد فيما يغر ويخدع من الأمانى والأحلام ...

يذكرون الائتلاف ، فعلام يقوم هذا الائتلاف ؟ وبين من يكون هذا الائتلاف ؟ وأى طريق تسلك إلى تحقيق هذا الائتلاف ؟ وعمن تصدر الرغبة فى هذا الائتلاف ؟ أيقوم الائتلاف على حل الأزمة الاقتصادية ! ولكن هناك أزمة سياسية يجب أن تحل وهى معقدة ، شديدة التعقيد ، تتصل بعلاقاتنا مع الإنجليز ، وتتصل بالدستور ونظام الحكم .

وإذن فهل يقوم هذا الائتلاف على الاقتصاد دون السياسة ؟ ولعل الأزمة السياسية عندنا هى أكبر المؤثرات فى الأزمة الاقتصادية ، فإن قام الائتلاف على حل الأزمة السياسية ، فبأى الأزمتين يراد الابتداء ؟ أبا لأزمة الخارجية بحيث يحل ما بيننا وبين الإنجليز قبل كل شىء ؟ أم بالأزمة الداخلية بحيث يرد إلى البلاد دستورها قبل كل شىء ؟ وعلى كلتا الحالين فمن يكون الائتلاف ؟ أمن الأقليات المختلفة التى تمثلها الأحزاب المتباينة بحيث تحكم القلة وتقف الكثرة موقف المعارضة كما هى الحال الآن ؟ وإذن فأى شىء تغير ؟ وماذا يصنع المؤتلفون ؟ أو متى كان الحكم للقلة والمعارضة للكثرة ؟ أم تأتلف القلة والكثرة فلا يكون هناك حكام ومعارضون ؟

وإذن فمن أين تصدر الرغبة فى هذا الائتلاف ؟ أمن المصريين أنفسهم ؟ وإذن فيجب أن تسمع فى ذلك كلمة للكثرة قبل أن تسمع أى كلمة أخرى . أم تصدر هذه الرغبة من الإنجليز فيملى علينا الائتلاف منهم إملاء !! وإذن فأين تكون الكرامة القومية ، ومن ذا الذى زعم أن للأجنبى أن يكون الوزارات مؤتلفة أو غير مؤتلفة فى البلاد المستقلة ... ؟

كل هذه مسائل يجب أن يدرسها الذين يفكرون فى الوزارة الائتلافية أو فى الوزارة القومية . وهم إن فكروا فيها عرفوا أن هناك شرطا لابد منه قبل الكلام فى وزارة ائتلافية أو قومية ، وهى أن ترد لمصر حريتها ، فتستقيل الوزارة القائمة ، وتعود الحياة النيابية الحرة . يومئذ ويومئذ فحسب يمكن التفكير الجدى الصادق فى الائتلاف . يومئذ تصدر الرغبة فى الائتلاف عن الشعب المصرى الحر ، وتصدر هذه الرغبة فى وضح النهار ، وتحت أعين الناس جميعاً ، لا يوصى به أحد ، ولا يمليها أحد ، ولا تصدر فى ناحية من الأنحاء .

وإلى أن يأتى هذا اليوم الذى تستطيع مصر أن تفكر فيه حرة كريمة ، مستقلة الرأى يجب أن تجتمع كلمة المصريين على مقاومة الوزارة القائمة والذين يؤيدونها من الإنجليز .

سيقولون : ولكن الائتلاف هو الوسيلة إلى إسقاط الوزارة ، والتخلص من ثقلها . فمن الذى يشترط هذا الشرط ويلح فيه ؟ أهم الإنجليز ؟ وإذن فلندعهم وما يشاءون حتى يجدوا أنفسهم فى المأزق الذى لا مخرج منه إلا بالنزول عند إرادة الأمة .

قد يكون هذا طويلا ، وقد تحتمل فيه الآلام ، ولكن الجهاد السياسى ليس عبثا ولا لعبا . ومن لم يعرف الصبر واحتمال الألم وطول الانتظار خليق أن لا يتورط فى سياسة الشعوب ...

لست أكره الائتلاف ، ولا الوزارة القومية ، ولعلى أحبها وأتمناهما ، ولكنى أحب ائتلافا يصدر عن إيمان الأمة ورغبتها . أحب ائتلافا يصعد من الشعب ، ولا يهبط عليه . وما رأى أنصار الائتلاف فى حل أرى أنه من العدل الذى لا حيف فيه ، والقصد الذى لا يتعرض لشك ولا يحتمل تأويلا . ما رأيهم فى أن تستقيل الوزارة القائمة قبل كل شىء ، وفى أن يمهد لانتخاب حر بعد ذلك ، وفى أن يكون الائتلاف والوزارة القومية موضوع الانتخاب .

ويتقدم أنصار الائتلاف والوزارة القومية إلى المصريين برأيهم، ويتقدم خصوم الائتلاف والوزارة القومية إلى المصريين برأيهم هذا . فأى الفريقين انتصر فى الانتخاب الحر الشريف، فإليه أمور مصر كلها فى حدود الدستور، يقضى فيها دون أن يتعرض لريبة أو شك أو اتهام .

أظن أن عرض المسألة على هذا النحو خليق أن يزيل الخلاف حول الائتلاف ، وأن يجمع كلمة الذين يحرصون على أن يكون حل المسألة المصرية معتمدا قبل كل شىء ، وبعد كل شىء ، وفوق كل شىء على إرادة الأمة خالصة من كل شائبة ، بريئة من كل شبهة ، آمنة من كل تأثير.

فليتعاون خصوم الوزارة بالصبر والصدق فى الجهاد والمقاومة حتى يكشف الله ضرها عن مصر، ثم ليحتكموا بعد ذلك إلى الأمة فى الوزارة التى تحل مشكلاتها الكبرى ، أهى الوزارة الحزبية أم الوزارة القومية ؟

(٢١)

عدوان

وليس هو بالعدوان(١) الذى يقدم عليه الرجل الشجاع الجرىء القادر على أن ينهض بالتبعات ويثبت لعظائم الأمور، وجلائل الأعمال . وإنما هو عدوان الرجل الضعيف الذى يشفق من الظل ويخاف من الخيال ، ويرى فى كل ما يحيط به ،ومن يحيط به عفريتا من الجن ، أو شيطانا من الإنس ، يريد به الشر، ويدبر له الكيد ، ويدفعه إلى المكروه .

وليس هو بعدوان الرجل الذى يهيئه عمله للعدوان ، أو يعرضه عمله للتورط فى العدوان . وإنما هو عدوان الرجل الذى يجب أن يمنعه عمله

---

(١) ٤ — ٤ — ١٩٣٣ ، عدد ٢٣٥٤

عن كل إثم ، وينهاه منصبه عن كل بغى ، وترده الأخلاق عن كل ما فيه جور أو ظلم أو مخالفة عن أمر الله .

نعم هو عدوان قوامه الضعف وخور الطبيعة ، صدر عن رجل لم يكن ينبغى أن يصدر عنه عدوان ، بل لم يكن ينبغى أن يصدر عنه إلا البر الذى ليس فوقه بر ، والخير الذى ليس فوقه خير . وصدر فى ظروف ما كان ينبغى أن يشوبها شر ، أو يكدر صفوها مكدر . وهذا العدوان الذى تتحدث السياسة صباح اليوم بأن شيخ الأزهر قد اقترفه ، وتورط فيه ، يوم تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك فشرف كلية أصول الدين بزيارته الكريمة .

فالسياسة تحدثنا أن جماعة من أبناء الأزهر هم من علماء التخصص أرادوا أن يستقبلوا مع الأزهريين حامى الأزهر وراعيه ، وأن يشتركوا مع الأزهريين فى الإعراب لحامى الأزهر وراعيه عن حبهم له ، وشكرهم لنعمته المتصلة عليهم ، وأملهم فى أن ترقى إليهم عناية المليك ورعايته من خير إلى خير ، ومن فوز إلى فوز ، ومن إصلاح إلى إصلاح . فأبى عليهم الشيخ أن ينهضوا بهذا « الواجب » وامتنع عليهم الشيخ أن يؤدوا هذا الشكر . وصدهم الشيخ عن أن يعلنوا مع إخوانهم وفاءهم وإخلاصهم لصاحب عرش مصر ، وحامى الأزهر والأزهريين .

وما علمنا قبل اليوم أن من الأعمال التى ينهض بها شيخ الأزهر وزعيم الرياسة الدينية العليا أن يمنع الناس من أداء الواجب ، أو يصرف الناس عن النهوض بالحق ، أو يذود الناس عن الاعتراف بالجميل لصاحب الجميل ، ولاسيما حين يكون صاحب الجميل هو صاحب الجلالة المصرية الذى لا يدع سبيلا إلا سلكها ليصلح من أمر الأزهر ، ويبعث فيه القوة والحياة ، ويرفع الأزهريين إلى حيث ينبغى أن يكونوا من حياة مصر العاملة الراقية .

نعم ما علمنا قبل اليوم أن من أعمال شيخ الأزهر أن يحول بين الأزهريين وبين زائرهم العزيز عليهم ، الكريم فى نفوسهم ، ومع ذلك فقد فعل شيخ

الأزهر هذا ، ، وتورط فيه إن كان ما تحدثت به السياسة صحيحا . ولابد من أن يتبين أولو الأمر أصحيح ما تحدثت به السياسة ، فيسأل الشيخ عنه ، ويلام الشيخ فيه . أم غير صحيح ما تحدثت به السياسة فيعلن إلى الناس أن شيخ الأزهر ،ورئيس هيئة كبار العلماء لم يمنع الأزهريين من أداء الواجب، ولم يصرفهم عن الاحتفال بالزيارة الملكية الكريمة .

والسياسة تروى لنا أنشيخ الأزهر لميكن قويا فى عدوانه ، ولا شجاعا فى جوره ! وإنما سلك إلى العدوان طريقا يتنزه عنها رجال الدين ، أويجب أن يتنزه عنها رجال الدين ! هى طريق الوشاية والسعاية واستعداء إدارة الأمن العام على هؤلاء الناس — أستغفر الله — على هؤلاء العلماء الأزهريين الذين يجب أن يحميهم الشيخ ويذود عنهم ، ويحوطهم من سعاية الساعين، ووشاية الواشين .

زعموا للسياسة أن الشيخ أنبأ إدارة الأمن العام بان هؤلاء العلماء يريدون أن يكدروا صفو الزيارة الملكية ، فسمعت إدارة الأمن العام للشيخ ، ومن الحق عليها أن تسمع له فى مثل هذه الأشياء ، ثم أرسلت إلى هؤلاء الناس من روعهم فى بيوتهم آخر الليل،وانتزعهم من بين أهلهم وأبنائهم،وساقهم فى ظلمة الليل وهدوء الناس إلى حيث السؤال والجواب والتحقيق . . . ! وأخذ عليهم العهود والمواثيق ، ثم أطلقهم مع الصبح وبث حولهم العيون ، ووكل بهم الأرصاد .

ماذا ؟

أحدث هذا كله حقا ؟ وكان مصدره شيخ الإسلام ؟! وإذن فماذا ترك الشيخ لغيره من السعاةوالوشاة ، والذينيتربصون الدوائر بالناس،ويدبرون لهم الكيد بالليل والنهار ؟ إحدى اثنتين : إما أن يكون هذا قد حدث من الشيخ ، فلابد من سؤاله عنه ، وأخذه به ، فان شيوخ الإسلام لم ينصبوا ليروعوا الآمنين ، ويزعجوا المطمئنين ، ويقولوا فى الناس بغير الحق . وإنما ينبغى أن يكونوا رسل أمن وسلام .ودعاة هدوءوطمأنينة ، وحراصا

على الصدق والجد والإخلاص . وإن لم يكن هذا قد حدث فيجب أن يبين للناس ليعلم المسلمون أن الأزهر برىء من أن يكون وكرا من أوكار الكيد، ومكمنا من مكامن الساعين والواشين .

يجب أن يعلم الناس جلية الأمر فى هذا ، فنحن نعلم أن التجاء الشيخ إلى إدارة الأمن العام كثير ، وإنه كثير فى غير طائل ولا جدوى . ويذكر أنه التجأ إلى إدارة الأمن العام فى الصيف الماضى فكلفها من مصادرة الكتب والاعتداء على حرية العلم شراً ثقيلا . ثم ظهر بعد ذلك أنه كان آثما فيما فعل وأن إدارة الأمن العام كانت متورطة حين استجابت له وصدعت بأمره .

يجب أن يعلم الناس جلية هذا الأمر ، فقد يروعهم أن يكون بين الأزهريين — سواء فيهم العلماء والطلاب — من يفكر فى أن يكدر صفو الزيارة الملكية للأزهر . فاذا كان الشيخ قد سعى حقا بهؤلاء العلماء إلى إدارة الأمن العام فروعهم وأفزعهم ، وبث عليهم العيون والأرصاد ، وحال بينهم وبين الاشتراك فى استقبال الزائر الكريم فلابد أن يعلم الناس نتيجة هذا التحقيق . أبين الأزهريين حقا جماعة كانوا يريدون أن يكدروا صفو الزيارة الملكية للأزهر ؟ ماذا أثبت التحقيق من أمر هؤلاء ؟ وبماذا كان هؤلاء الناس يريدون أن يكدروا صفو الزيارة الملكية ؟ أبشىء يبيحه القانون ؟ فليس هناك تكدير للصفو إذن . أم بشىء ينكره القانون ؟ فلم لم يسق هؤلاء الناس إلى حيث يسألون عما دبروا .

كل هذه أشياء يجب أن تعنى بها الحكومة ، وأن تبين للناس جلية الأمر فيها . وأكبر الظن أن الأمر كله وهم وخوف من الظل وفزع من الخيال .

لقد أنبئنا أن الشيخ كان مسرفا فى الخوف حتى انتهى به الإسراف إلى شىء لا يخلو من طرافة ! فقد زعموا أنه لم يدع أستاذا ولا مدرسا يقول بين يدى جلالة الملك شيئا حتى اتفق معه على تهيىء هذا الشىء ، ثم قرأه وأنعم النظر فيه ، وحذف منه وأضاف إليه ، وجعل ما ألقى بين يدى صاحب الجلالة من الدروس أشبه بما يلقيه الممثلون فى ملاعب التمثيل ... ! يحفظونه

فيتقنون حفظه : وقد هيءلهم من قبل ، ثم يلقنونه فيحسنون إلقاءه .وإذن فلم ير جلالة الملك الأزهر كما هو فى حقيقة الأمر ، وكما يحب جلالة الملك أن يراه ليغتبط برقيه إن كان قد ارتقى ، وليتفضل فيأمر بالإصلاح إن كان فى حاجة إلى الإصلاح . وإنما رأى جلالة الملك الأزهر كما هيأه له الشيخ وأعوان الشيخ . ولعل ما رآه جلالة الملك أبعد الأشياء عن تصوير الأزهر على الوجه الصحيح .

أنصح هذا لولى الأمر أم غش ؟ أجد هذا أم هزل ؟ ومع ذلك فقد أنبئنا أنه كان ، وكذلك تقدم إلى الزائر الكريم صور ليس وراءها شىء . ويتقدم الشيخ بين يدى الزيارة باغراء إدارة الأمن العام بجماعة من العلماء تروعهم وتفزعهم وتغرى بهم العيون والأرصاد .

ويقال بعد ذلك أننا نعيش فى القرن العشرين ، وفى ظل الدستور والنظام ، وفى جو إسلامى خالص صفو برىء من الكيد ، برىء من الغش برىء من التدليس .

كل شىء ممكن فى مصر حتى أن يسعى شيوخ الأزهر بعلماء الأزهر إلى إدارة الأمن العام ...!

(٢٢)

صراحة

من المؤكد(١) أنى لا أحب أن آخذ بخناق أحد ، ولا أن يأخذ أحد بخناقى فى أمر من الأمور مهما يكن عظيما .

فاذا كان الأمر يسيرا ضئيلا كأمر الوزارة الائتلافية أو القومية ، كانت رغبتى عن المخالفة فيه أشد ، وانصرافى عنها أعظم . فليطمئن الكتاب الذين

---

(١) ٧ - ٣ - ١٩٣٣ عدد ٢٣٥٧

يحبون الوزارة القومية ، ويكلفون بها ، ويحرصون على أن يدافعوا عنها منذ الآن ، فلن أخالفهم فيها... ولكنهم يوافقوننى فيما أظن على أن الأخذبالخناق شيء ، والرغبة فى الوضوح والصراحة شيء آخر . وهم يوافقوننى فيما أظن على أن إطالة الكلام وتكرار القول فى هذا الموضوع الآن لا نتيجة له ، إلا أنه حوار فى الهواء ، ومناقشة أقل ما توصف به أنها قد تدعو إلى شيء من الحرج فى غير طائل ولا غناء . . .

رئيس الوزراء ما يزال مطبقا يديه الضعيفتين على أعنة الحكم ، لم يرسلها ولم يدعه أحد إلى إرسالها .

ويظهر أنه سيظل كذلك حتى يزهدفيه مؤيدوه ، وينصرف عنه ناصروه ويطلب إليه أن ينصرف هو عن هذا الحكم الذى يحبه ويتهالك عليه ، ويضحى فى سبيله بالشيء الكثير من صحته وراحته ، ومن ذكائه وكفايته . ونحن نتحدث منذ الآن – استغفر الله – بل منذ أكثر من عام فى الوزارء التى تخلفه ، أتكون حزبية أم قومية ؟ فلا يجدى حديثنا إلا اختلافا وافتراقا ، وإلا إغراء للانجليز بالمضى فيما هم فيه من تأييد رئيس الوزراة ونصره لعله إن بقى فى الحكم أن يزيد الاختلاف بيننا سعة والاضطراب فى صفوفنا عنفا وشدة .

أظن الذين يحبون الوزارة القومية ، ويكلفون بها يوافقوننى على أن الحديث فيها كان سابقا لأوانه منذ عام ، وما زال سابقا لأوانه الآن ، وما زال الخير فى أن ندعه حتى تخلص مصر مما هى فيه الآن ، وينكشف عنها ضر الوزارة القائمة ، وترد إليها حرية التنفس والحركة والحياة .

وإذن فقد كنت أود لو قنع أنصار الوزارة القومية بما قالوا وقال خصومهم فسكتوا وسكت خصومهم ، وفرغوا جميعاً لما ينبغى أن يفرغوا له من تسجيل الآثام التى تقترف والسيئات التى تجترح ، وتثبيت الأمة فى موقفها البديع ، موقف المقاومة لطغيان الطاغين ، وعدوان المعتدين . ولكن أنصار الوزارة

القومية يسرفون فى حبها فيعجزون عن الصمت عنها ، ولو صمتنا مؤقتا فيقولون ويقولون . . ولا يلتفتون إلى أن غيرهم يقول معهم فيثير الريب ويدفع إلى الشك ، ويدل دلالة قوية على أن فكرة الوزارة القومية هذه إن تكن مصرية من بعض نواحيها ، فان للانجليز فيها هوى مريبا . . ومهما يكن من شىء فأنا حريص كل الحرص على أن يكون رأيى فى الوزارة القومية واضحا ، لا لبس فيه ولا غموض .

وأنا أفهم من الوزارة القومية – كما قلت من قبل – هذه التى تصدر عن إرادة الأمة ، لا عن إرادة الأجنبى . وعن إرادة الكثرة إذا تعذر الإجماع ، لا عن إرادة القلة : واذن فكل وزارة يوحى بها الإنجليز فليست وزارة قومية ، وإذن فكل وزارة تؤلفها القلة فليست وزارة قومية . واذن فلا يمكن أن تكون الوزارة قومية حقا إلا نتيجة للانتخاب الحر الصحيح الذى لا عسف فيه ولا ظلم ، والذى لا يثور حوله شك ولا ريب ، والذى لا يتهم المشرفون عليه بهوى ولا ميل .

وهذا فيما أظن واضح جلى ، ومعناه أن الوزارة القومية يجب فى ظروفنا الحاضرة أن تنشئها الانتخابات ، لا أن تجرى هى الانتخابات ...

وليس من الحق ، ولا من المنطق أن يحتج بما صنع الإنجليز ، فقد يقال أن رئيس وزارة العمال ألف وزارته القومية ، ثم لجأ إلى الشعب ليستفتيه فى أمرها فأيده الشعب وانحاز اليه .

قد يقال هذا ، ولكن الذين يقولونه ينسون أن رئيس وزارة العمال حين ألف وزارته القومية كان فى بلاد حرة مستقلة تجرى فيها أحكام الدستور على سجيتها . وقد حاول تأليف وزارته القومية من أعضاء البرلمان القائم ، فلما خذله العمال ، وأبوا عليه لجأ إلى استفتاء الشعب فمنحه الشعب نصره وأيده فأعاد تأليف وزارته القومية ، مستفيدا من نتائج الانتخابات .

فما كان فى بلاد الإنجليز لا يمكن أن يقاس به الأمر فى مصر ، فالوزارة القومية التى يفكر فيها بعض الساسة لا يمكن أن تؤلف داخل البرلمان القائم.

وأظن هؤلاء الساسة كلهم أو أكثرهم يرون أن من الخير ألا يشترك فى هذه الوزارة القومية أعضاء للبرلمان القائم . وإذن فأين تؤلف وكيف تؤلف ؟

ستؤلف خارج البرلمان ، فاذا أبتّها كثرة الناس فقدت صفتها القومية وأصبحت وزارة حزبية تمثل القلة ليس غير . . . ! فلا مخرج إذن من هذا المأزق إلا بالعدول عن هذه الفكرة الآن وتأجيلها حتى تخلص مصر من الوزارة القائمة ، ثم تنهض بالأمر وزارة محايدة أو سمها ما شئت فتجرى الانتخابات الحرة ، ولتكن الوزارة القومية موضوع هذه الانتخابات ، فان أيدتها الأمة ومنحتها الأغلبية ألفت كأقوى ما تؤلف الوزارات ، وحققت الأصل الدستورى الذى لا خلاف فيه ، وهو نهوض الأغلبية بأعباء الحكم ، وإن أبتها الأمة ونصرت خصومها ومنحتهم الأغلبية ، نهض هؤلاء بأعباء الحكم تنفيذا لأصول الدستور .

هذه هى الطريق التى أعتقد أن الخير كل الخير فى سلوكها ، لأنها واضحة مستقيمة ، لا عوج فيها ولا التواء ، ولا شك حولها ولا ريب . وأظن أنصار الوزارة القومية يوافقوننى على أن سلوك طريق غير هذه الطريق غير مأمون العاقبة ، ولا مبرأ من الخطر ، وأقل ما ينتجه أن تستحيل وزارتهم القومية هذه إلى وزارة تحاربها الكثرة وينفر منها الشعب نفوراً شديداً .

وأنا أكره لأنصار الوزارة القومية أن يسيروا سيرة صدقى باشا ، فذاكرتهم – والحمد لله – لا يمكن أن تعاب بالقصر . وهم يعلمون أن صدقى باشا قد زعم حين نهض بأعباء الحكم أنه يؤلف وزارة قومية ، وقال وأكثر القول إن وزارته لا تنتمى إلى حزب ، ولا يعنيها أن تعتمد على تأييد حزب . ومع ذلك فلم تكن لوزارته صفة الوزارة القومية يوما ما ، ولم يستطع أن يثبت على قوميته هذه فاضطر إلى ما اضطر إليه من تأليف حزبه البديع وإقامة وزارته أو أقل وزاراته على أساس من الحزبية ،

بل من الفردية الشخصية ، هو أبعد ما يكون عن رعاية المنافع القومية الخالصة . . . !!

أرجو ألا يتورط أنصار الوزارة القومية فيما تورط فيه صدقى باشا ، فان الرجل الحازم ذا النظر البعيد هو الذى يعتبر بالتجارب البعيدة فضلا عن التجارب التى ما تزال تقع تحت حسه . وأنا أؤكد لأنصار الوزارة القومية أن وجود سياسى واحد من أمثال رئيس وزرائنا كثير فى مصر. فكيف بهم إذا دفعوا بأنفسهم إلى هذه الوزارة القومية التى لا تؤيدها الكثرة ، ولا تصدر عن إرادة الشعب ، فجعل كل واحد منهم نفسه مثلا من أمثال صدقى باشا ، وكثر فى مصر أمثال رئيس وزرائنا النابغة الفذ . . . ! ! الذى ينبغى أن يظل وحيداً فى مصر ، ليس له ضريب ولا نظير . . .

(٢٣)

خاتمة

المصريون(١) جميعاً قلقون وجلون ! لا يستقر لهم نهار ولا ينام لهم ليل . وما أظنهم عرفوا عيدا كهذا العيد ، لم ينعموا فيه بلذات الحياة، ولم يسع فيه بعضهم إلى بعض ما تعودوا أن يسعوا به من التحية والتهنئة ، لأنهم عن العيد ولذاته وتحياته فى شغل شاغل بهذا الهم المهم ، والخطب الملم ، والبلاء الذى ليس فوقه بلاء . . . ! استغفر الله — بل أنا أذكر عيدا شغل فيه المصريون عن لذة الحياة وعن التحية والتهنئة.

كان ذلك قبل الحرب الكبرى حين شبت نار الحرب بين تركيا ودول البلقان ، وحين دنت جيوش البلقان من قسطنطينية وعرضت دار الخلافة

---

(١) ١٩٣٣/٤/٨ عدد ٢٣٥٨

للخطر . هنالك شغل المصريون عن العيد ، واتصلت نفوسهم بعاصمة الخلافة ، يشفقون عليها ويتمنون لها النجاة . وقد استجاب الله يومئذ لهذه النفوس فلم تقتحم جيوش العدو خطوط المسلمين ، وذاق المسلمون لذة الحياة فيما بقى من أيام العيد .. !

أما عيدنا هذا الذى نحن فيه فقد شغل المصريون عنه شغلا متصلا . ومع أن الصحف لم تنقطع بل أخذت تنقل إليهم الأنباء وتذيع فيهم الأخبار ، فقد ظلوا قلقين مضطربين ، تترجح نفوسهم فى السماء بين اليأس والرجاء ، أى الخصمين ينتصر فى هذه الحرب الضروس التى تشب نارها ، ويتلظى أوارها حول سمنود . . ! أهو الجيش الظافر أم هو الرئيس الزائر ... ؟

وقد سكتت القيادة العليا فى وزارة الداخلية فلم تصدر بلاغات رسمية عن تفصيل الهجوم والدفاع ، وما كان فيهما من صراع . وأخذت صحف الوفد وحدها تقول فتفصل القول ، والناس يقرأون ويخافون على جيش الدولة ، ويتوقعون شرا من هذا الصمت الذى أغرقت فيه الدولة إغراقا شديداً . . !

وقد استمرت هذه الموقعة ثلاثة أيام ، وانتهت بعد ظهر أمس ، وعاد رئيس الوفد إلى القاهرة يحيط به عشرة من كبار الضباط ، ومن ورائه قطار مسلح ، وعن يمين القطار وشماله جنود منثورة ، وبنود منشورة ! فخيل إلى الناس حين وصل رئيس الوفد إلى محطة القاهرة أن جيشنا الظافر قد ظفر ، وأن قيادتنا العليا ستصدر بلاغا رسميا تطمئن له القلوب بين الجنوب ، وتعلن فيه الدولة هذا الفوز الباهر ، وأنها قد ربحت الموقعة كلها ؛ وجاءت برئيس الوفد أسيرا إلى العاصمة . . . !

ولكن القيادة العليا ظلت مغرقة فى الصمت ! فلم تقل شيئا ، وظلت مغرقة فى السكون فلم تصنع شيئاً ! وانطلق رئيس الوفد حيث شاء ،

وسينطلق رئيس الوفد حيث يشاء ، ومن حوله العيون والرقباء على أن لا يبرح القاهرة وإلا تجددت الحملة ، وعبىء الجيش والشرطة مرة أخرى .

وإذن فأى الخصمين انتصر ؟ هل انتصرت الحكومة فجاءت بخصمها أسيرا ؟ هل انتصر رئيس الوفد فذهب وجاء كما شاء ؟ مسألة فيها نظر.. ولكن الشيء الذى لا شك فيه هو أن قلب وزير الداخلية قد استقر بين جنبيه منذ أمس ، وليس هذا بالشيء القليل ، فأنت تعرف أن قلب وزير الداخلية إذا خفق خفق له قلب مصر ، وإن جبين وزير الداخلية اذا تقطب تقطب له جبين مصر ، وأن سعادة مصر كلها رهينة برضى وزير الداخلية ، وشقاء مصر كلها رهين بغضب وزير الداخلية .

فيجب الآن أن تهدأ مصر ، لأن وزير الداخلية قد هدأ ! ويجب الآن أن تسعد مصر لأن وزير الداخلية قد رضى ! ويجب الآن أن ترفع الأعلام ، وتزدان المدن والقرى لأن وزير الداخلية قد انتصر ، ولأن رئيس الوفد قد وقع أسيراً فى يده . . . !

ألست ترى أن الأمر قد بلغ من الهزل أقصاه ؟ ! وانتهى من السخف إلى غايته ؟ ! فى مصر برلمان حقا ؟ وإذن فهل يريد هذا البرلمان أن يكون تابعا مطيعا لحكومته الرشيدة ، سعيداً أن ظفر من هذه الحكومة بالثقة !

لو أن هذا العبث الذى ليس إلى وصفه سبيل وقع فى بلد يقدر كرامته ويحرص على هيبة الحكومة فية لأدتالوزارة عنةأمام البرلمان حسابا عسيرا، أشد العسر . ولاضطرت الوزارة أمام سخط البرلمان إلى أن تستقيل ، فإن لم تفعل أقيلت وأكرهت على أن تنزل عن مناصب الحكم .

فالناس جميعاً يعلمون أن الوزارات إنما تقوم لرعاية مصالح الأمم وحماية منافعها ، فهى تقوم للجد لا للعب ، وهى تنصب للعمل لا للتمثيل.

والناس جميعاً يعلمون أن الوزارات قد تجور عن القصد ، وتضل عن سواء السبيل فتفسد حين يجب أن تصلح ، وتضر حين يجب أن تنفع ، ولكنها تحتفظ على كل حال بهيبة الحكومة وكرامة الدولة ، لأن الاحتفاظ بهذه الهيبة والكرامة شرط أساسى لاستقرار الأمن والنظام . فأما وزارتنا القائمة فقد أضاعت من مصالح البلاد ما أضاعت ، وأهملت من منافعها ما أهملت ، وأنكر الناس منها ذلك ، ولكنهم صبروا عليه ، واعتقدوا أنها ستحتفظ للحكومة بهذه الهيبة التى لا قوام للحكومات بدونها . فاذا هى تضيع هذه الهيبة أيضاً ، وإذا هى تجعل سلطان الدولة موضوعا للسخرية وتعرض جيش الدولة وشرطة الدولة للاستهزاء والازدراء .

يجب أن يعلم الذين إليهم أمر هذه البلاد أن المصريين جميعاً قد سخروا سخرية عميقة خطرة من هذه الحركات السخيفة التى دفع إليها جنودنا وضباطنا فى هذه الأيام الثلاثة الماضية . فان الإغارة على الحدود وحدها هى التى كانت تبيح تجنيد الجنود وإرسال القطارات المسلحة وتسخير السفن فى النهر ، وحرمان الضباط أن يستمتعوا بحقهم الطبيعى من الراحة فى أيام العيد . الإغارة على الحدود ، أو اضطرام الثورة هما اللذان كانا يبيحان للحكومة أن تأتى ما أتت من الأمر فى هذه الأيام . فأما أن يسافر رئيس الوفد ليزور قبر أبويه ، وليلقى أهله وعشيرته الأقربين فأمر يسير ، أيسر من أن يضطر الحكومة إلى كل هذه التعبئة .

إحدى اثنتين : إما أن يكون النظام الطبيعى اليومى عاجزا عن حماية الحكومة من سفر رئيس الوفد إلى سمنود ، وإذن فيجب أن تستقيل الوزارة لأنها اعترفت بالعجز عن حماية النظام وإقرار الأمن . وإما أن يكون النظام العادى اليومى قادرا على حماية الحكومة من سفر الرئيس إلى سمنود ، وإذن فيجب أن تستقيل الوزارة لأنها عبثت بالجيش والشرطة ، وجعلت كرامة الدولة وسلطانها عرضة للازدراء والاستهزاء !

لو أن البرلمان القائم يريد أن يؤدى عمله حقا لحاسب الوزارة حسابا عسيرا على هذا الموقف السخيف الذى وقفته ولاضطرها إلى أن تستقيل

لتقوم مكانها وزارة أخرى تحمى هذا النظام الجديد بعد أن عجز رئيس وزرائنا المريض ووزير(١) داخليتنا الظريف عن حمايته .

ولكن يظهر أن هذا النظام الجديد نفسه لا يمكن أن يحمى ويصان إلا على هذا النحو ، فهو لا يستمد قوته من إيمان الأمة به وتأييدها له ، واطمئنانها إليه . وإنما يستمد قوته من رئيس الوزراء ، وقد مرض رئيس الوزراء فمرضت معه الوزارة ، ومرض معه البرلمان ، فلابد من أن يمرض النظام أيضا ، وهو مريض، وأى مرض أشد من أن يسافر رجل واحد الى مدينة من المدن ، فترسل الحكومة وراءه ألفا من الجند ، وتلغى الحكومة فى سبيل ذلك أجازة جماعة من الضباط وتأمر الحكومة فى سبيل ذلك مديرين ألا يبرحا إقليميهما . . . !

أى مرض أشد من هذا المرض ؟ ومع ذلك فالذين يؤيدون رئيس الوزراء ، ويسندونه ما يزالون راضين عن هذه الحالة ، مبتهجين لها ، ينتظرون منها الخير . . . ! أما مصر فانها مشفقة من هذه الحال أشد الإشفاق ، لا ترجو منها خيرا ، بل لا تنتظر منها إلا الشر .

لقد نهض رئيس الوزراء ليمحق الفوضى محقا ، وإن وزارته الآن لتأتى كل شيء لتبسط سلطان الفوضى على البلاد . . . ! أما إذا كان رئيس الوزراء قد أراد أن يجعل وزارته لهو اللاهين ، ولعب اللاعبين فقد وفق الى ذلك كل التوفيق حين اختار وزير داخليته الجديد . . ! ولكن أين رئيس الوزراء ؟ أمتصل هو بالناس والأشياء حقا ؟ أعالم بما يجرى حقا ؟ إذن فقد فقد رئيس الوزراء بعد مرضه أخص ما كان يمتاز به من الخصال ، وهو الإشراف الدقيق على أمور وزارته والضبط الدقيق لتصريف هذه الأمور . إنما الوزارة القائمة أشبه شيء الآن بسفينة فقدت ربانها ، وعجز أعوان هذا الربان عن تسييرها ، وهى فى بحر لجى شديد

---

(١) هو محمود فهمى القيسى باشا ، وكان محبوبا من سلطات الاحتلال .

العواصف ، ملتطم الموج . . ! فهى تسير على غير هدى ولا نظام ! تتقاذفها الأمواج وتعصف بها الريح ، فليعلم ذلك من إليهم تأييد الوزارات وخذلانها ، فقد يكون فى هذا العلم شىء من النفع .

(٢٤)

نذير

قليل(١) من الناس يستطيع أن ينصرف عن حديث اليوم إلى حديث أمس . وقليل جدا من الناس من يستطيع أن ينظر إلى أحداث اليوم فيتبين منها أحداث الغد ، ذلك لأن الحوادث الحاضرة التى تحيط بنا تشغلنا عن الماضى والمستقبل جميعا ، وتحد أعمالنا وآمالنا وتفكيرنا ، فإذا نحن مثلها مؤقتون فى كل ما نأتى وما نقول . ولو قد أتيح لكثير من الناس أن يفكروا فى أمس لاعتبروا بما كان فيه ، ولجنبوا أنفسهم شرا كثيرا . ولو قد أتيح لكثير من الناس أن يتبينوا ما ستتكشف عنه غدا أحداث اليوم لأعرضوا عن كثير من الأعمال : ولجنبوا أنفسهم آلاما كثيرة وضروبا من الخيبة لا تحصى ...

هذا كلام نقوله دائما ، ولكننا لانتعظ به ، ولا نعتبر بما فيه ، وكأنه قد كثر حتى أصبح مملولا ، وكأننا قد أسرفنا فى ترديده حتى زهدنا فيه ، كما نزهد فى الحديث المعاد . وليس كل حديث معاد خليقا أن يمل ونزهد فيه ، بل من الحديث المعاد ما تستطيع أن تعيده وتعيده دون أن تستقصى ما فيه من عظة ، وتستوعب ما فيه من حكمة ، وتنتفع حق الانتفاع بما فيه من عبرة .

والظاهر أن الوزراء ورجال الحكم هم أشد الناس إعراضا عن أمس ، ونفورا من غد . وهم لذلك أشد الناس تعرضا للخطأ ، وتورطا فى الشر

---

(١) ١٩٣٣/٤/٩ عدد ٢٣٥٩

والإثم . وكأن الوزارة – كما صورتها جريدة « الشعب » منذ أيام – فى تشبيه بديع :خمر معتقة ، لا يكاد يذوقها شاربها حتى تنسيه كل شيء فتمحو من نفسه أمس ، وتلقى بينه وبين غد حجابا صفيقا ! ولو قد ذكر رئيس وزرائنا ما كان من الأحداث ذات الخطر أمس القريب ، أو أمس البعيد لا تعظ واعتبر ، وصد نفسه عن أشياء ، وكف عزيمته عن أشياء . فما أكثر الذين ضاقوا من قبله بالديمقراطية فنصبوا لها الحرب ، وبحرية الشعوب فدبروا لها الكيد ، ثم باءوا بالهزيمة المنكرة والخذلان المبين ، لأن الديمقراطية أقوى من أن تغالب ، وأصلب عودا من أن تحطم ، لأن الديمقراطية صورة لإرادة الشعب ، ومظهر لقوته ، ومن العسير إن لم يكن من المحال أن يستطيع الفرد مهما تعظم قوته : ويبلغ شأنه من الارتفاع والعلو أن يقهر شعبا كاملا ، أو يذله فيطيل اذلاله .

ولو قد فكر رئيس الوزراء فى غد لرأى هولا بشعا ، ونكرا عظيما ، فقدر قبل أن يخطو ، وتدبر قبل أن يعمل ، ولكن الحكم وهو هذه الخمر المعتقة قد ألهى رئيس الوزراء فأنساه أمس وصرفه عن غد ، ودفعه إلى ما أتى من الأعمال ، وورطه فيما تورط فيه من شر ، فهو يجنى اليوم ثمار هذا النسيان لأمس ، والإعراض عن غد ، ويذوقها فاذا هى فجة مرة...!

نهض بالحكم وهو مؤمن بقوته ، معتز بكفايته ، واثق بذكائه ، مطمئن إلى سعة حيلته ، لا يشك فى أنه سيبلغ من هذا الشعب ما يريد ، ولم يذكر أن قوما آخرين كانوا مثله أقوياء أعزاء ، وكانوا مثله أذكياء ، وكانوا مثله أكفاء بارعين ، قد نصبوا الحرب للشعب فلم يبلغوا منه ما كانوا يريدون ، بل بلغ الشعب منهم ما أراد . بل يذكر أنه قد وقف قوته وعزته وذكاءه وكفايته على حرب الشعب والكيد له فصال وجال ، وقال فأطال القول ، وأذاق الناس ضروب المحن وألوان الفتن ، ثم لم يبلغ منهم شيئا ، وإنما انتهى به الأمر إلى أن أذعن لما كان الشعب يريد ، فعمل تحت لوائه ، وتقرب إلى زعمائه ، وأسرف فى تملقهم والتقرب إليهم حتى انصرفوا عنه وزهدوا فيه .

لم يذكر رئيس الوزراء ذلك ، ولم يفكر فيه ، فجدد فى عهده الحاضر ما اقترف فى عهده القديم ، وأنا زعيم لك بأنه إن يسبغ الله عليه الصحة ، وبمتعه بالحياة الهادئة ، فسيرى فوز الشعب وانتصاره ، وسيرى ظفر الديمقراطية وتفوقها ، وسيحاول الانضواء تحت اللواء ، وسينفق كثيراً من حيلته الواسعة ، وكفايته الرائعة ليتقرب من الزعماء الذين يسرف الآن فى الإساءة إليهم ، والإغراء بهم ، والتحريض عليهم ، وسيود بجدع الأنف لو شملوه بالعطف ، ولكن الحكم وهو هذه الخمر المعتقة قد ألهى رئيس الوزراء فانساه أمس ، وصرفه عن غد ، وشغله عن اليوم ... !

ولو أن الأمر وقف عندما يتعرض له رئيس الوزراء من خيبة الأمل ، ومرارة الخذلان لكان احتماله يسيرا . فرئيس الوزراء رجل من الناس يجب أن يتعلم كما يتعلم غيره من الناس ، ويجب أن يستفيد من الدروس القاسية التى يلقيها الزمان على أبناء الإنسان ، ولكن الأمر يتجاوز رئيس الوزراء إلى وطنه كله ، وأمته كلها . فرئيس الوزراء حر فى أن يسيء إلى نفسه ، ويعرضها للمكروه ، ولكن رئيس الوزراء لا يملك وما كان ينبغى له أن يملك الإساءة إلى أمته وتعريضها كلها للمكروه . ورئيس الوزراء يعرض أمته لخطر ليس بعده خطر ، ويدفعها إلى شر ليس مثله شر . ولو قد تمت له الآن فى هذه الراحة التى يضطره إليها المرض أداة الروية والتفكير فنظر وراءه ، ونظر من حوله ، ومد بصره قليلا إلى أمام لاستيقن أنه قد أشرف بأمته على هوة بعيدة القرار .

لم يصل رئيس وزارة قط بمصر إلى ما وصل بها إليه صدقى باشا من ترغيبها عن قوة الحكومة ، وإساءة الصلة بينها وبين الحاكمين ، وإفعام قلوبها بالشك والريب فى اخلاص الذين يشرفون على أمورها . ورئيس الوزراء أذكى عندنا من أن يصدق أنصاره الذين يزعمون له أن الناس يحبونه ويميلون إليه ! فلم يرغب الناس قط عن وزير كما يرغب المصريون عن صدقى باشا . ولم يضق الناس بوزير كما يضيق المصريون بصدقى باشا .

ورئيس الوزراء يعلم حق العلم أن ليس أخطر على حياة الأمم من أن يسود البغض بين الحاكمين والمحكومين ....

ولم يصل رئيس وزارة قط بمصر إلى ما وصل بها إليه صدقى باشا من سوء الحال الاقتصادية ، وهو يعلم من هذا أكثر مما نعلم ، ولعله يقدر من هذا مثل ما نقدر . وهو واثق بأن فى مصر آلافا وآلافا من الناس يؤذيهم الجوع ، ويلذعهم الحرمان ، ويعذبهم ذكر ما كانوا فيه من نعمة ، ويروعهم انتظار ما يتعرضون له من شقاء . وهو يعلم كما نعلم أن هذا البؤس المتصل ، وهذا الإعدام المحيط أخطر الأشياء على استقرار النظام الاجتماعى (١) فضلا عن النظام السياسى .

ولم يعجز رئيس وزارة قط كما عجز صدقى باشا عن إقرار النظام ، وتثبيت الأمن ، وهو يقيم نفسه بنفسه فى كل يوم الأدلة القاطعة والبراهين التى لا تدع سبيلا إلى الشك على أنه محتاج دائماً إلى الجيش كله ، وإلى الشرطة كلها ، وإلى المكر كله ، وإلى الكيد كله ليحمى النظام ، ويضمن هذا الهدوء المصطنع المتكلف .. ! ذلك ولم نذكر هذه القوه الخفية الظاهرة ، الغائبة الحاضرة ، التى يسمونها الاحتلال ... !

ورئيس الوزراء يعلم كما نعلم أن ليس أخطر على حياة الأمم من هذا النظام الذى يقوم على دعائم من القش ، والذى لولا الجيش والشرطة والكيد والمكر لانهار فى ساعة من نهار ... !

عجز عن توثيق صلة الحب بين الحاكم والمحكوم ، عجز عن حماية الشعب من الفقر والجوع ، عجز عن إقرار النظام إلا بهذه القوة الخارقة التى لا يلجأ إليها إلا فى أوقات الخطر الداهم .

---

(١) يشير إلى احتمال انتشار الشيوعية

هذه هى الحال التى تورط فيها رئيس الوزراء ، لأن الحكم وهو هذه الخمر المعتقة قد ألهاه فأنساه أمس : وصرفه عن غد ؛ وهو مع ذلك قائم فى الحكم . مصر على أن ينسى أمس وينصرف عن غد . فهل لهذه الكوارث العظام التى قد تتردى فيها مصر إذا استمرت هذه الحال زمنا طويلا أو قصيرا .

ولكن رئيس الوزراء ليس وحده الذى يجب أن يذكر أمس ، ويفكر فى غد ، ويقدر هذا الخطر الذى ينتظر وطنه ، بل هناك قوم آخرون(١) لعلهم حراص أشد الحرص على ألا تتردى مصر فى هذه الهوة السحيقة التى أشرفت عليها ، ولعلهم حراص على أن تظل مصر كما كانت من قبل بلد الأمن والنظام ، واللين والرخاء . فما أجدر هؤلاء الناس أن يأخذوا أنفسهم بما لا يريد رئيس الوزراء أن يلم به ، فيذكروا أمس ؛ ويفكروا فى غد ..

(٢٥)

وداع

لأول مرة(٢) منذ مرض رئيس الوزراء استطاع أن يزور ديوانا من دواوين الحكومة ، فذهب مع الأصيل أمس إلى وزارة الداخلية مودعا رجالها الذين عملوا معه فيها أعواما ، وكان كل شىء فى ذلك الوقت شاحبا كاسفا ، يلقى على النفس رداء رقيقا من الشحوب والحزن . كان النهار فى آخره ، وكانت الشمس منحدرة إلى الغروب ، وكان فى الجو شىء من هذا الحزن العام الغامض الذى يبعثه ميل الشمس إلى الغروب ، وانحسار ضوئها عن الأشياء .

---

(١) يقصد الملك فؤاد ، والإنجليز

(٢) ١٢ — ٤ — ١٩٣٣ عدد ٢٣٦٢

وكان رئيس الوزراء فى أكبر الظن نشيطا ، ولكن نشاط المتعب ، مبتسما ولكن ابتسام المحزون ! وكان رجال الداخلية فى أكبر الظن مبتهجين للقاء وزيرهم بعد أن حال المرض بينه وبينهم أكثر من شهرين . محزونين لأنهم يلقونه ليودعوه ، لا ليعملوا معه . وكان حديث رئيس الوزراء إليهم لا يخلو من ثناء عليهم وتشجيع لهم ، وأمل فيما سيلقونه من توفيق فى غد ، يشبه ما أتيح لهم من توفيق أمس ! ولكن صوت رئيس الوزراء كان فى أكبر الظن هادئا مطمئنا ، أدنى إلى الخفوت منه إلى الجهر الذى عرفه الناس! ولعل شيئا من الأسف والأسى كان يتردد فى رنات هذا الصوت ، ويعرب عن حزن وزير الداخلية السابق لفراق أعوانه الذين نهضوا معه بهذه الأثقال الثقال التى تنوء بالرجال !

فكان كل شىء حزينا إذن فى هذه الزيارة منذ ابتدأت مع المساء إلى أن انتهت مع أول الليل ، حتى حديث رئيس الوزراء إلى من حضر زيارته من الصحفيين ، فقد كان هذا الحديث شاحبا ممتقعا كئيبا ، يظهر فيه الجهد والاعياء . فانظر إلى رئيس الوزراء ، وهو يتحدث إلى الصحفيين بأنه سيذهب إلى مكتبه فى الرياسة فى المساء ، لا فى الصباح .

وقد كان يذهب إلى مكاتبه مع الصبح ، ولا يدعها حتى يتقدم الليل ، وسيقضى فى مكتبه ساعتين ، وقد كان ينفق فيه بياض اليوم ، وشطراً من سواد الليل ! وسيتخفف من المقابلات فلا يلقى أحدا ، وقد كان يلقى فى البكرة ، ويلقى فى الغداة ، ويلقى فى العشى ، ويلقى فى الآصال ، ويلقى تحت جنح الظلام . . . !

وسيتخفف من الأعمال فلا ينظر منها إلا ذا الخطر . وقد كان لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا دعاها إليه وقلبها ظهرا لبطن ، ووقف عندها فأطال الوقوف ، ونظر فيها فأنعم النظر ، وجادل فيها فأتعب المجادلين . . . !

ولن يطول تردده على مكتبه إلا ريثما يسافر إلى أوربا ليستريح ويتعجل سعيه إلى الشفاء ، أو سعى الشفاء إليه . وقد كان أزهد الناس فى سفر ،

وأحرص الناس على إقامة ، وأرغب الناس فى أن يشرف بنفسه على كل شىء لا فى وزارتى المالية والداخلية وحدهما ،بل فى كل ما يتصل بالوزارات الأخرى . ثم تضيف « الشعب » أنه سيحضر جلسات البرلمان من حين إلى حين متى سمحت له الظروف . . . !

كل هذا يحزن ، وكل هذا يسوء ! فمهما يكن سخط الناس على سياسة رئيس الوزراء ، فهم كانوا يريدون لحكمه خاتمة خيرا من هذه الخاتمة . وهم كانوا يريدون أن تظل الحرب بينه وبينهم قوية عنيفة حتى يدع الحكم ، لا أن تكون كما هى الآن حربا لغير محارب ، وهجوما على من يعييه الدفاع .

كان كل شىء أمس حزينا كئيبا حين زار رئيس الوزراء ديوان الداخلية ، وسيكون كل شىء اليوم وغدا شاحبا كئيبا حين يختلف رئيس الوزراء إلى حزب الشعب أو إلى ديوان الرياسة ، لأن رئيس الوزراء قد فقد هذه القوة التى كانت تبعث فى أنصاره وأعوانه القوة ، وهذا النشاط الذى كان يبعث فى أعوانه وأنصاره النشاط . وأصبح رئيس الوزراء فاترا ، ففتر الناس من حوله ، كئيبا فاكتأب الناس من حوله ، وليس الغريب أن يفتر الناس بعد نشاط ، ويضعفوا بعد قوة ، ويكتئبوا بعد ابتهاج . فهذه أعراض الحياة ، ليس منا إلا من هو معرض لأن يلقاها ، ويأخذ منها بحظ قليل أو كثير . وإنما الغريب أن يحتمل الناس هذه الأثقال ويأبوا إلا إنكارها !وأن يخضع الناس لهذه الأعراض ويأبوا إلا تصريف أمورهم كأن شيئا لم يعرض لهم ، وكأن حدثا لم ينزل بهم ، وكأنهم مستكملون لكل ما يحتاجون إليه من قوة ونشاط وطمأنينة تمكنهم من تصريف الأمور !

أمختار رئيس الوزراء حين يصر على البقاء فى الحكم والنهوض بأعبائه الثقال رغم هذا الضعف الذى لا سبيل إلى الشك فيه ؟ وإذن فما أجدر الذين يحبونه ويرفقون به أن يشفقوا عليه ، ويخففوا عنه هذا الثقل ، ويخلوا بينه وبين الراحة يأخذ منها بحظ موفور .

أمكره رئيس الوزراء على البقاء فى الحكم ليمكن للذين إليهم أمر السياسة من البحث والتفكير فيما يمكن من التغيير ؟ وإذن فما أقسى وما أبعدها عن الرفق ! وما أشد إسرافها فيما تطلب إلى أهلها من تضحية لا تتحرج أن تبلغ بها الصحة نفسها . . !

وأى قسوة تشبه هذه القسوة التى تكره على العمل رجلا قد يكون أحب شىء إليه أن يدع العمل ويستريح . . ! ! وسواء كان رئيس الوزراء مختارا للبقاء فى الحكم أو مكرها عليه ، فإن حياة الشعوب نفسها أقسى من السياسة ، وأقسى من الظروف ، وأقسى من هذه الاعتبارات التى تدعو إلى الرفق ، وتفرض المجاملة على الناس .

حياة الشعوب هذه لا تستطيع أن تلقى بأعنتها إلا إلى الذين يقدرون على تصريفها حقا ، ويستطيعون أن يقفوا عليها وقتهم وجهودهم وتفكيرهم . وليس رئيس الوزراء بالذى يقدر على هذا الآن . لقد فكر الرجل وأطال التفكير ، وقدر وأطال التقدير ، واستشار الأطباء فأكثر الاستشارة . وأكبر الظن أنه ساومهم وألح فى المساومة ، وأكبر الظن أنهم مانعوه فغلوا فى الممانعة . وانتهى الأمر بينهم وبينه إلى أن يأذنوا له بساعتين يختص بهما أعمال الدولة أياما قبل أن يسافر إلى أوربا ، وعلى أن تكون هذه الأعمال خفافا ، لا مشقة فيها ولا عناء .

هذا أقصى ما يملك الرجل ، وهو أقصى ما يستطيع الأطباء أن يأذنوا به . وهو أيسر ما يمكن أن يقدمه إلى الحياة العامة رجل يشتغل بالحياة العامة . وأين تقع ساعتان من حياة مصر ؟ وأين تقع أيام من هذه الحياة ؟ وكيف يخطر للذين إليهم أمر السياسة المصرية أن شيئا كهذا يمكن أن تجرى عليه الأمور ، أو يستقر له نظام ؟ ولو أن الوزراء الذين وضعهم صدقى باشا فى مناصب الحكم يستطيعون أن يثبتوا لهذه المناصب ، وينهضوا بأثقالها لما جاز أن تبقى الوزارة ورئيسها مريض إلى هذا الحد . فكيف والناس جميعا مؤمنون و أولهم الإنجليز بأن هؤلاء الوزراء أعجز من أن يحتملوا وحدهم

أعباء الحكم ، أو يستقلوا بأثقاله ؛ فهم قد وضعوا فى مناصبهم ليعينوا رئيسهم على تدبيرها ؛ لا ليستقلوا هم بهذا التدبير .

كل شيء يدعو إلى أن تتخلى هذه الوزارة عن الحكم . صحة رئيسها ومصلحة مصر ؛ لا أقول مصلحتها الحقيقية ، فليس هذا بالوقت الذى يقام فيه للمصلحة الحقيقية وزن ، وإنما أقول مصلحة هذا النظام الذى استحدثه صدقى باشا . كل ذلك يدعو إلى أن تستقيل هذه الوزارة ليستريح المريض ، وليجد هذا النظام الناشىء إذا لم يكن بد من محاولته للبقاء من يمكنه من المضى فى هذه المحاولة .

ما أجدر رئيس الوزراء ، والذين يؤيدونه فى منصبه أن يقرأوا قصة تمثيلية ظاهرها مضحك وباطنها كله عظة ، وهى قصة المحامى التى وضعها الكاتب الفرنسى راسين ، والتى يذكرنا بها ما نحن فيه الآن ...!!.

(٢٦)

جلسة

كل شيء(١) مستعجل فى هذه الأيام متى وصل إلى البرلمان ! كأن قوة خفية عنيفة تدفع سادتنا الوزراء والنواب والشيوخ إلى أن يمضوا أمامهم مسرعين ، لا يقفون عند شيء ، ولا يلوون على شيء ، ولا يتفكرون فى شيء ..!!

فمن أحب منهم أن يتفكر أو يتدبر أو يصطنع الأناة ، فهو كليل حسير ، قد فقد أسباب السبق ، وعجز عن إتمام الشوط ، فلابد من أن يتخلف ، ولابد من أن يرد عن المضى فى الطريق . ولعل هذه السرعة فى العمل ، وهذا الميل إلى خطف الأعمال خطفا ، كما يخطف الناس خطفا

---

(١) ١٣ – ٤ – ١٩٣٣ عدد ٢٣٦٣

غرض من الأغراض التى من أجلها استحدث رئيس الوزراء الانقلاب الدستورى الخطير منذ أكثر من عامين ... !

فللأناة منافعها ، وللتفكير فوائده . ولكن الأناة فى الأعمال العامة تكشف فى أكثر الأحيان عن تقصير وشر كثير ، والتفكير فى الأعمال العامة يظهر أشياء لابد من أن تخفى ، ويجلو أمورا لابد من أن تظل غامضة .

والتفكير والأناة يؤديان فى أكثر الأحيان إلى ما لا يحمد ولا يحب . فمن يدرى أى شىء كان يحدث لو لم يخطف رئيس الوفد من قنا ؟ ومن يدرى أى شىء كان يظهر لو لم تخطف ميزانية وزارة الأشغال من مجلس النواب أمس ؟ لنصطنع إذن الأناة والروية فى أعمالنا الخاصة ، فلا نقدم على شىء حتى نقتله بحثا ودرسا وتفكيرا . فأما الأعمال العامة فلنمسها مسا رفيقا ، ولنمر عليها مرا سريعا ، ولنخطفها خطفا لبقا بديعا ! وكذلك تجرى أمورنا على وجهها ، لا يظهر فيها عيب ، ولا يتبين فيها فساد واضطراب .

وكذلك نقيم الدليل على أن الأمة تحب الحكومة ، وتتولاها بالود والنصح والإخلاص حين نخطف منها رئيس الوفد خطفا ، أو نلقى بينها وبين رئيس الوفد حجابا كثيفا من الجند الكثيف .

وكذلك نقيم الدليل الواضح والبرهان القاطع على أن وزارة الأشغال قد بلغت الكمال وحققت الآمال حين تعرض ميزانيتها على مجلس النواب ، وتأخذ هذا المجلس بأن ينظر فيها ويناقشها ويقرها ويتخفف منها فى جلسة واحدة ، لا تزيد عن ساعتين أو عن ساعات .

وكذلك يشهد العالم المتحضر بأن الانقلاب الدستورى الذى أحدثه صدقى باشا قد آتى ثمره حلوا شهيا ! فأقام فى مصر إدارة منظمة حازمة سريعة لبقة ! وأقام فيها برلمانا متقنا فطنا بصيرا حريصا على مصالح الأمة ، دقيق الإشراف على ما ينفق من أموالها ، سريعا على ذلك كله سرعة

لا تعرفها البرلمانات الأوربية التي بعد عهدها بالحياة النيابية ، والإشراف على أعمال الحكومات ... !

قدمت الحكومة منذ حين إلى مجلس النواب قوانين الجامعة ، واستعجلت نظرها ، فتعجل المجلس نظرها وأقرها في أقل من ساعة ! وقدمت الحكومة منذ حين إلى مجلس النواب قانون التخصص في الأزهر وتعجلت نظره ، فأسرع المجلس في ذلك وفرغ من القانون في جلستين ! وقدمت الحكومة أمس إلى مجلس النواب ميزانية وزارة الأشغال وتعجلت نظرها ففرغ منها المجلس في جلسة واحدة !!

وفي قوانين الجامعة مستقبل التعليم الحديث كله فتنظر في أقل من ساعة. وفي قانون التخصص مستقبل التعليم الديني كله فينظر في جلستين . وفي ميزانية وزارة الأشغال أكثر من ستة ملايين من الجنيهات وفيها خزان جبل الأولياء ، وفيها مستقبل الري ، وفيها مرافق أقل ما توصف به أنها تمس حياة الأمة في أدق فروعها فتنظر هذه الميزانية ويقرها المجلس في جلسة واحدة ! ويقال بعد ذلك إن الانقلاب الدستوري الذي أحدثه رئيس الوزراء لم يحقق منفعة مصر ، ولم يصن مصالحها كلها من العبث ، ولم يعصم منافعها من الضياع . اللهم جنبنا العناد في الحق ووفقنا إلى الإيمان بالخير .. !

ماذا تبتغي مصر أكثر مما وصلت إليه ؟ هذه قوانينها تشرع في دقائق. وهذه ميزانياتها تقر في ساعات ، وهذه وزارتها تستمتع بثقة البرلمان ، وهذه إدارتها تستأثر بحب الناس جميعاً . كل شيء يجري على وجهه مستقيما لا عوج فيه ولا اضطراب ، فماذا نريد ؟ وماذا نبتغي ؟ وما لنا لا نرضى ؟

ولكن ما هذه الأزمة التي أثيرت أمس في مجلس النواب ؟ وما بال فريق من النواب قد أخذهم هذا الغضب المتأخر فسخطوا وطالما رضوا ، وثاروا وطالما هدؤا واستقروا . وخرجوا من الجلسة وطالما لزموا كراسيهم لزوم الغريم ؟

زعموا أن هؤلاء السادة كانوا فى قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، رفعوا إلى مجلس النواب استجوابا عن خزان جبل الأولياء فأهمل ثم أجل ليرد عليه رئيس الوزراء حين يمن الله عليه بالشفاء . فلما كان أمس ، وجاءت ميزانية الأشغال أرادوا أن يؤجلوها كلها أو بعضها حتى يكون الاستجواب وتكون المناقشة فيه ، فضاق بهم وزير الأشغال ، وضاق بهم رئيس المجلس ، وضاقت بهم كثرة المجلس نفسها ، وظهر لهؤلاء السادة أنهم مبطئون والدنيا من حولهم مسرعة ، وأنهم مقصرون والدنيا من حولهم مشمرة ، وأنهم يريدون الجد ، والدنيا من حولهم تؤثر الهزل . وما هذا الجد الذى جاء بعد إبانه وتأخر عن أوانه ؟

ظن هؤلاء السادة أن الوزارة كانت جادة حين طلبت تأجيل الاستجواب ، وقد قيل لهم مع ذلك إن الوزارة إنما تؤجل لتخرج بهذا التأجيل من التأويل والتعليل ، ولترجىء هذا الاستجواب إلى الفصل الذى ينضج فيه التين والعنب كما يقول الشاعر القديم . فلما أحس هؤلاء السادة ضيق الوزير والرئيس والكثرة ، غضبوا واحتجوا وانصرفوا ! فماذا كان ؟ دار الفلك كما يدور ، ومضى المجلس كما كان يمضى ، وانتهى إلى أقصر الشوط ، وأقرت الميزانية وفيها خزان جبل الأولياء ، وسيعود النواب المحترمون مساء اليوم إلى المجلس كأن لم يكن شىء بالأمس ، وقد برئت ذممهم ، ورضيت ضمائرهم ، ولم لا ؟ لقد غضبوا وأنكروا ، وخرجوا وامتنعوا من إقرار ما لم يكونوا يريدون . ما أسهل هذه البراءة وما أيسر هذا الرضى ، وما أسهل أسباب الفكاهة واللعب فى مصر !

ثم ينهض وزير الأشغال فيعلن أنه كان يرى فى الخزان رأيا ، ثم بدا له فرأى فيه رأيا آخر . وكان ينكره فأصبح يكبره ، وأى حرج فى ذلك ؟ وأى بأس ؟ كل شىء يدور حتى الحق والباطل ، وحتى الخطأ والصواب ، وحتى الرفض والقبول . وسواء أرضى وزير الأشغال عن الخزان أم غضب عليه فسيقام الخزان ! لقد قبله مجلس النواب منذ عام ، وأقر له

الأموال أمس . ليغضب وزير الأشغال وليرض ، كما غضب النواب ورضوا فلن يغير ذلك من الأمر شيئا . ويأبى الله إلا أن تكون فى المجلس فكاهة أمس ، فقد اعترف وزير الأشغال فى صراحة ظريفة بان وزارته لم ترسم لنفسها سياسة بعد ! وإذن فهى لا تستطيع أن تقدم هذه السياسة إلى المجلس ، لأنها لا تحب أن تقدم إليه إلا الكامل الشامل الذى قد يكمل غداً أو بعد غد . ولكنه سيكمل بعد أن يتم إقرار الميزانية على كل حال .

ويؤخذ الرأى على الميزانية جملة ، ولم تناقش تفصيلاتها ، فإذا أنكر النواب غضب الرئيس ، وإذا غضب الرئيس وجب أن يرضى النواب ، وإذا رضوا فمرت الميزانية كما يمر البرق . قالت الأهرام : « وكان الأعضاء الباقون خمسة وثلاثين عضوا » عدد يكفى ليقر أكثر من ستة ملايين ، ثم يزعم المصريون أن أمورهم لا تجرى على ما يحبون . وهل إلى ما يحبون من سبيل ؟

(٢٧)

أزمة

ليست هى الأزمة الاقتصادية(١) ، فالناس جميعاً يلقون من شرها(٢) ونكرها ما يطاق وما لا يطاق . والناس جميعاً يتحدثون عنها بالمعقول وغير

---

(١) ١٤ – ٣ – ١٩٣٣ عدد ٢٣٦٤

(٢) جاء فى تقرير مدير مكتب العمل أن القيود التى وضعتها حكومة اسماعيل صدقى على استخدام سيارات النقل والركوب قد أحدثت ضرراً كبيراً بالمشتغلين بالنقل الميكانيكى حتى ترتب على ذلك أن (٧٢٧٠) شخصاً أصبحوا عاطلين ، فلو قدر أن كلا منهم يعول ثلاثة أشخاص لكانت النتيجة أن ٢٨ ألف شخص قد حرموا من أرزاقهم وتعرضوا للجوع « الشعب فى ١٤ – ٣ – ١٩٣٣ »

هذا وغير الموظفين الذين فصلوا من وظائفهم بحجة الاقتصاد فى الميزانية :

المعقول ، والناس جميعاً يتمنون لها حلا . ويعجزون عن هذا الحل ؛ لأن الذين إليهم الأمر لا يعملون ، ولا يخلون بين غيرهم وبين العمل .

وليست هي الأزمة الوزارية ، فقد فتح باب هذه الأزمة ثم أغلق ، وانتهى الأمر إلى ما عرفت من ترقيع إثر ترقيع . وما زال باب الأزمة الوزارية مغلقا منذ الترقيع الأخير وإن كانت الحوادث والأحداث تقرع هذا الباب منذ حين ملحة عنيفة ، وتوشك أن تنتهي إلى فتحه . لأن الشاعر القديم لم يكذب حين قال :

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته

ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

والحوادث والأحداث محتاجة إلى أزمة وزارية ملحة فيها ، وهي ظافرة بها من غير شك ، ولعل ظفرها أن يكون قريبا ، أقرب مما يظن المسلطون على مصر في هذه الأيام .

فلا أريد إذن أن أتحدث إليك عن الأزمة الاقتصادية ، ولا عن الأزمة الوزارية ، لأني لا أريد أن أحزنك . ولأني لا أريد أن أعلك بالأماني والآمال .

وإنما أريد أن أحدثك عن الأزمة البرلمانية ، لأني أريد أن ألهيك بعض التلهية ، وأسليك بعض التسلية ، وأصرفك بعض الوقت عما أنت فيه من التفكير في السياسة والاقتصاد . وقد اعتقدت منذ ثقل على الناس هم الوزارة القائمة أن خير وسيلة إلى احتمال هذا الهم الثقيل والتخلص مما يبعث في النفوس من الحرج والضيق ، إنما هو الضحك منه والعبث به . وكثيرا ما يكون الضحك دواء ناجعا للأمراض الثقال والهموم المعضلة ! وقد زعموا أن هذه الأزمة نشأت أول أمس بين المعارضين والمؤيدين للوزارة في مجلس النواب ، ومضت بعض الصحف في التفصيل والتهويل إلى حد بعيد ، حتى قدرت « السياسة » صباح اليوم أن الأمر سيتعقد ويغلو في

التعقد ، وسيتحرج ويغرق فى التحرج حتى يرفع إلى حضرة صاحب الجلالة الملك ليتفضل فيرى رأيه فيه قبل أن يتفضل فيأمر باصدار قانون الميزانية.

وكتبت الأهرام فصلا طويلا عطفت فيه على المعارضين ، وأشفقت فيه على المؤيدين ، وسعت فيه بالخير المشوب بين أولئك وهؤلاء ،وكتبت صحف أخرى فصولا أخرى ، منها الهادىء ومنها المضطرب ، ولكن شيئا من هذه الفصول لم يصل إلى أن يمس جمهور الناس أو يثير فى الرأى العام شيئا من الاهتمام . ومصدر هذا واضح جدا . فقد قلت غير مرة إن فى وادى النيل الآن مصرين ، تحيا كل واحدة منهما حياة مستقلة اتم الاستقلال عن حياة صاحبتها : إحداهما مصر الرسمية التى تتألف من الوزارة والإدارة والبرلمان . والأخرى مصر فحسب التى يكونها الشعب المصرى الذى يألم ، ولكن الألم لا يصرفه عن الأمل ، ويحزن ولكن الحزن لا ينتهى به إلى الجزع . ويخضع للخطوب ولكن الخطوب لا تحوله عن الثقة بنفسه والإطمئنان إلى غده المشرق الرائع .

فاذا حدثت أزمة فى مصر الرسمية فقل أن تحسها مصر الشعبية ، وقل أن تحفل بها أو تلتفت إليها ،لذلك لم يعن أحد من الناس عناية ما بهذه الأزمة الطويلة العريضة العميقة التى حدثت فى مجلس النواب أول أمس ، والتى يريد فريق من الناس أن يكبر من أمرها وهو صغير ، ويجل من خطرها وهو ضئيل . وأى شىء يدعو إلى العناية أو يبعث على التفكير فى أمر هذه الأزمة ؟ فى مجلس النواب مؤيدون رسميون ، ومعارضون رسميون ، ولكنهم جميعا أصدقاء مخلصون للوزارة القائمة ،يؤيدها أولئك وهم يعلمون أن تأييدهم إياها لن يطيل بقاءها ، ولن يعصمها من السقوط ، لأن بقاءها وسقوطها ربما كانا إليهم بحكم الدستور ، ولكنهما إلى غيرهم بحكم الحقائق الواقعة . . . ! ويعارضها هؤلاء ، وهم يعلمون حق العلم أن معارضتهم لن تضرها شيئا ، ولن تعرضها لخطر ما ، لأن الخطر إن جاء فلن يجيئها من البرلمان ، ولكن يجيئها من نواح أخرى ، ليس للبرلمان عليها سلطان ...!

وأولئك وهؤلاء يؤمنون بعجزهم عن الخير والشر ، فتصفو بينهم هذه المودة التى تصفو عادة بين العاجزين ، فهم يختصمون ولكن بألسنتهم ، وهم يحتربون ولكن دون أن تصل الحرب إلى قلوبهم ، وهم متفقون فى كل حال على أن لا تكون خصوماتهم وحروبهم مصدراً لتنغيص قليل أو كثير على الوزارة القائمة ، وعلى رئيسها المريض بنوع خاص . وقد رأينا بعض المؤيدين يتمدحون فى الصحف لأنهم مستمتعون بثقة الوزارة ، ورأينا بعض المعارضين يقفون فى المجلس فيسرفون فى الثناء على الوزارة ، لأنها خطفت رئيس الوفد أثناء رحلته فى الصعيد .

فاذا كانت هذه نفسية النواب مؤيدين ومعارضين ، فمن غير المعقول أن يحسب أحد لما يقع بينهم من الخصومة حسابا . إنما هو فن من فنون الدعابة ، ولون من ألوان المزاح ! لقد قيل منذ عام إن زعيم المعارضة استقال من مجلس النواب ، أو أنذر بالاستقالة ، وألح فى التذير ، ولكن الأمر جرى بعد ذلك على خير ما تجرى به الأمور ، فعاد زعيم المعارضة إلى مجلس النواب ، واستقامت أموره فيه ، وإن تحدث الناس بأنه ساخط غير راض ، ومحزون غير مسرور . . ! وسمعنا منذ أيام وزير الأوقاف الجديد يصيح فى مجلس النواب « الحكومة تريد ذلك » فأذعن لصيحته المؤيدون والمعارضون جميعا ، وعدل أكثر أصحاب الاقتراح الذى أنكره الوزير عن اقتراحهم لأن الحكومة أرادت ذلك .

وأى شيء كان أول أمس ؟ ثارت الكثرة بالقلة فمنعتها من الكلام ، فغضبت القلة وانصرفت محتجة ، وأى غضب لا يعقبه رضى ؟ وأى خروج لا يتبعه رجوع ؟ خرجت المعارضة أول أمس وسترجع بعد غد إن شاء الله ! غضبت المعارضة أول أمس وسترضى بعد غد إن شاء الله . وقد تصدر بيانا عن الخروج والرجوع ، ولكن الأمر لا يعدو هذا البيان إن صدر . وأكبر الظن أنه لن يصدر اللهم إلا إن تحس المعارضة ما نحس نحن من أن فى الجو السياسى شيئا يكفى ليمتنع الغاضبون عن الرضى ، والخارجون عن الرجوع !

وفى « السياسة » تلميح لهذا الشيء الذى لعله يفتح أبوابا إذا لم تستفتح الآن فقد يتعسر فتحها غدا . . !

يسير جدا إذن ما كان . ويسير جدا إذن ما سيكون بين المعارضين والمؤيدين فى مجلس النواب ، إلا أن تمتد إلى أولئك وهؤلاء يد من هذه الأيدى التى تعمل فى بعض النواحى لتأليف الوزارة المقبلة والتمهيد للعهد الجديد . هنالك يتغير الأمر : ويتبدل الموقف ، ومن يدرى ؟ لعل المعارضة تستقيل من مجلس النواب . ولعل ما يسمونه الحزب الوطنى يسترد حريته ويهيء نفسه لائتلاف جديد ، وانتخاب جديد ، ولعل بعض الشاردين أن يعودوا إلى حظائرهم ، ولعل بعض المؤيدين أن ينقلبوا مخاصمين ، ولعل هذه الأزمة اليسيرة أن تستحيل إلى مشكلة خطيرة — ولكن هذه الآمال لا تخطر إلا للذين يلتمسون الوسيلة إلى مخرج ما من هذا الموقف الدقيق الذى نحن فيه .

هناك أزمة أخرى لعلها أشد وأخطر من أزمة المعارضين والمؤيدين لو أن الحياة النيابية فى مصر تسير سيرة الحياة النيابية فى البلاد الأخرى . وهى هذه التى ثارت بين مجلس النواب ورئيسه حول ميزانية وزارة الأشغال ، فقد تغيرت سيرة الرئيس فظهر حازما عازما ، شديدا حديدا ، بعد أن كان لينا سمحا ، ويسيرا سهلا . وقد أخذ يفرض إرادته على مجلسه فرضا من غير أن يلتفت حتى إلى الأشكال والأوضاع التى يلتفت إليها رؤساء المجالس النيابية عادة . أخذ الأصوات أول أمس على ميزانية وزارة الأشغال دون أن ينظر فى تفصيلها ، وكان المصوتون أقل من العدد القانونى الذى يجيز الميزانيات ، ولكن الرئيس أجاز الميزانية ، وأرسلها إلى مجلس الشيوخ ! وفى هذا كله مخالفة واضحة للدستور والنظام البرلمانى . وقد يستطيع النواب أن يتعلقوا به على الرئيس ، وقد يستطيعون أن يتخذوه وسيلة إلى أزمة . والذين يفكرون فى الوزارة المقبلة ، ويلتمسون إليها الوسائل يرجون أن يتعلق النواب على رئيسهم بهذه الغلطة ، ويأخذوه بهذه الهفوة ، ولكن الذين يسيرون النواب فى الأحزاب أقدر وأمهر من أن يؤخذوا على غرة ،

ومن أن يعرضوا أنفسهم لمثل هذا الخذلان ، فلن يتعلق النواب على رئيسهم بشىء ، ولن ينكر النواب على رئيسهم شيئا ! وسيجتمع النواب يوم الثلاثاء مؤيدين ومعارضين فيمضون فى طريقهم هادئين كأن لم يحدث حدث بالأمس ! وستبسم الوزارة لهذه الأزمة كما تعودت أن تبسم للأزمات التى تشبهها لأنها تعلم حق العلم أن ريح السقوط لن تهب من البرلمان ، ولكنها تهب من حيث تعلم ويعلمون .

(٢٨)

مؤتمر

يقال(١) إن أمس كان يسمى يوم الجمعة ، ويقال إن هذا اليوم يوم مشهود عند المسلمين ، تقام فيه الصلاة العامة إذا كان الظهر . ويقال إن لهذه الصلاة العامة فى هذا اليوم خطرا ليس لغيرها من صلوات الظهر فى كل يوم . أمر المسلمون أن يسعوا إليها وأن يدعوا البيع والتجارة وغيرهما من المصالح التى تمس مرافق الحياة على اختلافها . ويقال إن التقاليد الإسلامية أرادت أن تعنى الدول الإسلامية عناية خاصة بهذه الصلاة ، فيشهدها أولو الأمر ، وكانوا هم الذين يقيمونها عادة فى العصور الإسلامية الأولى .

كل هذا يقال ، وكل هذا يدرس فى الأزهر الشريف ، وكل هذا يعرفه المسلمون جميعا إذا بلغوا سن الرشد ، ووجبت عليهم الصلاة . وكل هذا تؤمن به مصر الرسمية والشعبية معا ، لأن الدين يأمر به ، ولأن الدستور ينص على أن الإسلام دين الدولة .

وقد تقرأ صحف اليوم التى صدرت فى الصباح فترى أن رجلا من الناس يقال له مصطفى النحاس كان يشهد هذه الصلاة فى مسجد من مساجد المسلمين الجامعة . فحشدت له الجنود حول المسجد ، وحشدت له الجنود داخل

---

(٢) ١٥ — ٤ — ١٩٣٣ ، عدد ٢٣٦٥

المسجد ، لأن هذا الرجل لا يكاد يذهب ، ولا يكاد يجيء حتى تضطرب له الوزارة ، وتخاف من ذهابه وإيابه على النظام واستقرار السلام ، فهي مضطرة أن تتبعه بالجند إذا قام ، وهي مضطرة أن تحرسه بالجند إذا نام ، وهي مكرهة على أن ترصد له الجند إذا صلى وهي مكرهة على أن تراقبه إذا صام.

وهي لذلك قد حشدت الجنود حول المسجد أمس ، وهي لذلك تمنع جماعة من المسلمين من أن يشهدوا صلاة المسلمين ، ويؤدوا فرضا فرضه الله على المسلمين ، لأنها تخاف هذا الرجل على المسلمين ، وبينما كان هذا الرجل يصلي وقد رصد له الجند داخل المسجد وخارجه ، في أيدى فريق منهم السياط ، وفي أيدى فريق منهم العصى ، وفي قلوبهم جميعا — في أكبر الظن — تحرق على أن يؤدوا الصلاة ، وتخلص ضمائرهم لله ساعة من نهار ، كان جماعة من وزراء الدولة ، وجماعة من نواب الدولة يشهدون في دار من دور الدولة مؤتمرا عظيم الخطر ، بعيد الأثر ، لم يكن بد من انعقاده أمس ، ومن انعقاده في هذه الساعة ، ومن انعقاده في هذه الدار ، لأن حياة المسلمين كانت رهينة به ، ولأن صلاح أمر المسلمين كان موقوتا عليه ..!

أظنك قد عرفت هذا المؤتمر ، وأظنك قد فطنت للموضوعات الخطيرة التي كان يدرسها ويجادل فيها ، ولا يحاول أن ينتهي بها إلى حل تصلح له حياة المسلمين بعد فساد ، وتستقر له نفوس المسلمين بعد اضطراب ...!

فان لم تكن قد عرفت هذا المؤتمر ، وفطنت لموضوع بحثه الخطير ، فلعلك تتنبه له حين تعرف أن وزير التقاليد كان يشترك فيه وحين تعرف أن وزير الأوقاف كان يشترك فيه أيضا ، وحين تعرف أن زعيم المعارضة الرسمية وأصحابه المعارضين الرسميين كانوا يشتركون فيه أيضا ، فهو إذن مؤتمر المؤيدين والمعارضين ، انعقد صباح أمس ليمحو ما ثار بين الفريقين من شر ، ويزيل ما شجر بين الفريقين من خلاف . وأنت توافقني على أن

الخصومة بين المؤيدين والمعارضين فى مجلس النواب خطر على أمن الدولة، واستقرار النظام فيها ، فيجب أن يفرغ لها الوزراء والنواب ؛ وأن يفرغ لها بنوع خاص وزير التقاليد ووزير الأوقاف ، فالى أولها تربية الشباب، وتعويده أن يقدم مصالح الدولة على كل شيء ، وإلى ثانيهما بمقتضى النظم الجديدة أن يشرف على الأزهر الشريف ، ويسير به فى هذه الطريقة القويمة التى تقدم مصالح الدولة على كل شيء !

وأنت توافقنى على أن تقديم مصالح الدولة على كل شيء ، أن تختار الساعة التى اختيرت أمس لإزالة الخلاف الذى شجر أول من أمس بين المؤيدين والمعارضين فى مجلس النواب والجمعة تصلى فى كل أسبوع . فإن فاتت يوما فقد لا تفوت فى يوم آخر ، ولكن الخلاف لا يشجر بين المؤيدين والمعارضين فى مجلس النواب فى كل أسبوع فليس من بأس على وزراء الدولة ونواب الدولة أن يفرغوا لمحو الشر إذا ثار ، وقلما يثور ، ولإزالة الخلاف إذا شجر وقلما يشجر . وكذلك كانت ترعى مصالح الدنيا والدين أمس ... !

وزراء التقاليد والأوقاف والزراعة يمحون الشر ، ويزيلون الخلاف بين النواب . ووزير الداخلية يرصد الجنود داخل المسجد الجامع وخارجه ليراقب رجلا يصلى مع الناس هو مصطفى النحاس . فأما رئيس الوزراء فمريض يستريح . وأما بقية الوزراء فعلمهم عند الله وعند أنفسهم . وقد أدى كل عمله . فأما الوزراء والنواب فمحوا الشر وأزالوا الخلاف ، وردوا الأمر صفوا كما كان . وأما الجند فحاصروا وظاهروا . وأما النحاس فصلى وعاد إلى داره موفورا .

وفيم يطمع المصريون بعد هذا ؟ وقد صلحت أمور دينهم ، وصلحت أمور دنياهم ، وجرى كل شيء على أحسن حال ، كأنما كنا ملهمين حين كنا نكتب أمس أن ما شجر من خلاف بين المؤيدين والمعارضين لا خطر له ، ولا شر فيه . وإن الذين يكبرون من أمره ، ويعظمون من شأنه ، ويعقدون به الآمال الطوال ، والأمانى العراض يغلون ويسرفون . فالكثرة

فى مجلس النواب أحرص من أن تغضب القلة ، والقلة فى مجلس النواب أبرع وأمهر من أن تمضى فى الغضب إلى أمد بعيد .

كنا ملهمين حين كتبنا هذا أمس . فقد كان الخصام بين المختصمين أقصر من أن يتصل أياما ، وأيسر من أن يحتاج إلى الجهد الطويل لعلاجه وإزالة أسبابه ، فما هى إلا أن يكون التمهيد فى جلسات سرية تعقد بين عضو وعضو وبين نائب ووزير ، ثم يكون المؤتمر العام يجتمع فيه المغضبون والمسترضون ، فيعتب أولئك ويعتذر هؤلاء ، ويتفق أولئك وهؤلاء جهرة على ما اتفقوا عليه خفية ، وهو أن تكتب صيغتان ، يتلو إحداهما رئيس المجلس معتذرا عن الكثرة ، ويتلو إحداهما الأخرى زعيم المعارضة معلنا رضى القلة . وإذا تليت الصيغتان فقد صفا كل شىء ، وعاد الأمر بين المعارضين والمؤيدين إلى مثل ما كان عليه من نصر الوزارة ، وشد أزرها . أولئك ينصرونها بالتأييد ، وهؤلاء ينصرونها بالمعارضة !

وتسألنى بعد ذلك عن ميزانية الأشغال ، كيف أقرت بما فيها من الملايين فى أقل من ساعتين ، وكيف أقرت دون أن يدرس المجلس تفصيلها ؟ وكيف أحيلت إلى مجلس الشيوخ ولم يصوت عليها إلا خمسة وثلاثون من النواب ؟

وتسألنى بعد ذلك عن استجواب المستجوبين ، وسؤال السائلين ، وعن خزان جبل الأولياء ، أتأذن ميزانية الدولة باقامته أم لا تأذن ؟ أتحمل خزانة الدولة نفقاته أم تعيا بتحملها ؟ وتسألنى بعد ذلك عن مذكرة وكيل المالية فى شأن الخزان ، ورأى المستشار المالى فى أمر هذا الخزان ، أيعرفها المجلس أم يجهلهما ؟ أيظهران أم يستتران ؟

تسألنى عن هذا كله فلا أجد مشقة ولا عسرا فى الإجابة ، لأن أمر هذا كله يسير ، أيسر جدا مما تظن . ذهب هذا كله لأن الصلح قد تم بين المؤيدين والمعارضين فى هذا المؤتمر الذى عقده الوزراء والنواب ضحى أمس فى الدار الفرعونية . وهم إنما عقدوا مؤتمرهم هذا ، فى ساعتهم هذه ، فى يومهم

هذا ، فى مكانهم هذا ليذهب هذا كله ولينساه النواب . ولينساه الناس جميعا فليس من الخير للوزارة ولا للبرلمان ولا للمصريين أن يعود الحديث فى الخزان والناس جميعا يعلمون أن إقامة هذا الخزان أمر يتجاوز طاقة الدولة فى هذه الأيام . وليس من الخير لأحد أن تحرج الوزارة فتظهر مذكرة وكيل المالية ورأى المستشار المالى . فمن الأسرار ما لا يجوز إظهاره بحال من الأحوال! وليس من الخير لأحد أن يعاد النظر فى تفصيل ميزانية الأشغال بعد أن لفها رئيس مجلس النواب لفا ، وخطفها خطفا ! فقد يكون فى النظر فى هذا التفصيل ما يثير القال والقيل ! وليس من الخير لأحد أن يعترف رئيس مجلس النواب على نفسه بمخالفة النظام . وإحالة الميزانية إلى الشيوخ قبل أن يقرها النواب . ليس شىء من هذا كله خيرا . وإنما الخير كل الخير أن يسدل الستار على ما كان. وأن يعود المجلس إلى سيرته الهادئة المطمئنة . راضيا عن نفسه وعن الوزارة ، مرضيا من نفسه ومن الوزارة !

وأما الذين كانوا يدورون حول هذا الخلاف . وينتظرون منه الأزمة الخطيرة التى قد تقلب كل شىء رأسا على عقب ؛ وقد تضطر الوزارة إلى الاستقالة ، وتمهد للعهد الجديد والوزارة المقبلة فقد يتجرعون شيئا من خيبة الأمل . . ! ولكنهم قد تعودوا هذه المرارة . فما أكثر ما أملوا ، وما أكثر ما خابت الآمال ، وما أكثر ما تمنوا وما أكثر ما كذبت الأمانى ! ذلك أن الآمال التى تعقد بغير الشعب لا خير فيها . والأمانى التى تناط بغير الأمة لا خطر لها .

وليس من شك فى أن الوزارة القائمة ستستقيل ، ولكن ليس من شك فى أن الذى سيضطرها إلى الاستقالة ليس هو البرلمان ومن فيه من مؤيدين ومعارضين ، ولعل الشىء الوحيد الذى يريح مصر مما تلقى ، ويزيح عنها هم الوزارة القائمة إنما هو الصبر لها ، والثبات لما تسلط على الناس من شر ظاهر ، وكيد خفى . أما الأمة فصابرة ثابتة لا يعرف اليأس ولا الضعف إليها سبيلا . فهل للمتعجلين أن ينظروا إليها ، ويجدوا فيها الأسوة الصالحة والقدوة الحسنة ...؟

سجين

أما أن(١) مصر جزء من أوربا كما قال الخديو إسماعيل فيما يتحدث عنه الناس فشيء ليس إلى الشك فيه من سبيل . ففي مصر البخار والكهرباء ، وفي مصر البرق والتليفون ، وفي مصر الأوبرا ، وما يكون في الأوبرا من تمثيل ورقص وغناء . وبين مصر وأوربا طرق برية وبحرية وجوية تقطعها السفن والقطارات والطيارات في الأوقات القصار والطوال. وفي مصر وزارات على رأسها وزراء ، وفي مصر مجلس للنواب ، ومجلس للشيوخ . وفي مصر مدارس أولية وأخرى ابتدائية ، وفيها مدارس ثانوية ، وأخرى عالية خصوصية ، وفيها جامعة أيضا . وفي مصر مسارح وملاعب ، وفيها أندية وقهوات . وفيها بعد هذا كله ، وقبل هذا كله ، وفوق هذا كله وتحت هذا كله صحف سيارة ، يظهر بعضها في الصباح وبعضها في المساء ، وبعضها حين تتوسط الشمس في السماء . وصحف أسبوعية وأخرى شهرية ، وكلها يجول وكلها يصول ، وكلها ينقد فيجيد النقد ، وكلها يحمد فيحسن الحمد . وكلها يؤيد ويعارض . في مصر هذا كله ، وفيها أكثر من هذا كله ، فليس من سبيل إلى الشك إذن أن مصر جزء من أوربا .

ولكنها جزء مادي من أوربا المادية ، أو جزء ظاهر من أوربا الظاهرة ، أو جزء مترف من أوربا المترفة . فأما أن تكون مصر جزءا متحضراً من أوربا المتحضرة ، أو جزءا مثقفا من أوربا المثقفة ، أو جزءا راقياً في العقل والخلق ، وفي الحس والشعور ، وفي أنحاء التهذيب كلها من أوربا الراقية في العقل والخلق والحس والشعور ، وفي أنحاء التهذيب فذلك ما لم يقم عليه الدليل بعد . بل ما زال موضوعا للشك . ويظهر أنه سيظل موضوعا للشك

---

(١) ١٦ - ٤ - ١٩٣٣ عدد ٢٣٦٦

زمنا طويلا . وكأن الخديو اسماعيل حين قال كلمته هذه ؛ إنما كان يصور مثله الأعلى أكثر مما كان يصور الحقيقة الواقعة .ولكن بيننا وبين عهد إسماعيل نصف قرن ، وكان يحسن أن يتحقق شيء من هذا المثل الأعلى الذى كان يصوره إسماعيل فتصبح مصر جزءا متحضرا من أوربا المثقفة ، مهذبا(١) من أوربا المهذبة . كان ينبغي ذلك ، ولكن ما ينبغي شيء ، وما هو كائن شيء آخر . والحق أن الواقع الذى لا شك فيه هو أن هذا المثل الأعلى مازال بعيدا كل البعد عن أن يتحقق . وما زالت مصر المتحضرة فى حياتها المادية بعيدة جدا عن الحضارة فى حياتها المعنوية . وآية ذلك أن الذين يحكم عليهم القضاء بالسجن فى جريمة الرأى ، ما زالوا يعاملون فى سجنهم كما يعامل الأشقياء الذين يحكم عليهم فى جرائم السرقة وقطع الطريق العام . فهم يحبسون فى غرفة ضيقة معرضة للهواء المهلك ، لا للهواء المحيى . وهم ينامون على الأرض ، وتحول بينهم وبين الأرض وسادة من القش .وهم يشربون فى كوز ، وهم

---

(٢) كان محمد توفيق دياب صاحب صحيفة « الجهاد » ، نشر مقالين فيهما إهانة لأعضاء البرلمان واللجنة البرلمانية التى عهد إليها ببحث مشروع خزان جبل الأولياء ، وقدم للمحاكمة فحكم عليه بالبراءة . إلا أن النيابة استأنفت الحكم أمام محكمة النقض . وقد حكمت محكمة النقض برياسة عبد العزيز باشا فهمى بحبس توفيق دياب ثلاثة أشهر مع الشغل والنفاذ . وقد جاء فى حيثيات الحكم :

« إنه رمى أعضاء البرلمان واللجنة البرلمانية التى نيط بها بحث مشروع جبل الأولياء بأنهم قوم لا ضمير لهم ، ولا عواطف ، وأنهم فى سبيل بقاء الوزارة القائمة فى الحكم يضحون بمصلحة وطنهم وتراث أجدادهم لكى يعيشوا فى ظل تلك الوزارة غير مبالين بما يجنون بفعلتهم على الأجيال المقبلة »

« وهذا هو منحى المقالين غير محتمل المكابرة . ولا عبرة بالحيل الإنشائية التى جاء بها الكاتب عندما أورد بعض الجمل البينة الإهانة بصيغة الاستفهام فان السياق ينم على أن ذلك التساؤل لم يكن إلا تساؤل توكيد وتوبيخ . على أن المداورة فى الأساليب الإنشائية بفكرة الفرار من حكم القانون لا نفع فيها للمداور ما دامت الإهانة تتراءى للمطلع خلف ستارها ، وتستشعرها الأنفس من خلالها . إنما تلك المداورة مخبثة أخلاقية ، شرها أبلغ من شر المصارحة ؛ فهى أحرى بترتيب حكم القانون . « الشعب فى ١٩٣٣/٣/٥ »

لا يستضيئون فى الليل ولا يكادون يتروضون فى النهار . وهم يعملون كما يعمل غيرهم من المجرمين ،ويعيشون كما يعيش غيرهم من المجرمين ؛ تعطل ملكاتهم العقلية كلها ؛ فلا يقرأون ولا يكتبون ، كأنما تعاقب عقولهم لأنها فكرت فتحرم وسائل التفكير ، وكأنما تعاقب قرائحهم لأنها أنتجت فتحرم أسباب الانتاج . وهم يعرضون بهذا كله للضعف . ثم للضيق ؛ ثم للمرض المبرح والألم الملح ، وليس لهم رغم هذا كله خطر ؛ وقلما يصيبهم حظ ولو ضئيل من عناية الطبيب ؛وفى السجن مع ذلك أطباء ؛ وللسجن مع ذلك مستشفيات ،ولكن الطبيب لا يزور المريض إلا إذا أشرف من المرض على الطور المخيف ، ولكن المريض لا ينقل إلى مستشفى السجن إلا حين لايكون من ذلك بد . وأنت تستطيع أن تفهم هذا وتقدره فى لغة السجون .

هذه هى حال الذين(١) يعاقبون فى مصر على جرائم الرأى .وأما الذين يعاقبون فى أوربا على جرائم السرقة وقطع الطريق فهم ينامون على الأسرة ؛ وهم يتروضون ،وهم يعاملون معاملات قد لا يظفرون بها فى حياتهم خارج السجن . وهم يقرأون الصحف التى تنشأ لهم فى بعض البلاد .

---

(٢) توجه وفد من الصحفيين إلى وزير الحقانية لمخاطبته بشأن معاملة توفيق دياب فى السجن فصرح لهم بقوله : يمكنكم أن تطمئنوا على الأستاذ دياب ، فقد زاره أمس مدير مصلحة السجون وعرف منه أنه لا يشكو الآن من شىء ، إذ صرفوا له مرتبة ووسادة ، وزادوا البطانيات التى يستعملها أربعا من الصوف الخالص . وهو فى غرفة متسعة ، أى ليست زنزانة . ويتناول الطعام الذى يتفق مع صحته وهو غير طعام السجن وغير طعام المستشفى ؛ كما يعطى بعض أنواع الفاكهة ، ويعطى له اللبن والشوربة وبعض الخضر . وقال الوزير : اطمئنوا على الأستاذ دياب وطمئنوا زملاءكم » « الصحف اليومية فى ٦ — ٣ — ١٩٣٣ »

فأين هذا من معاملة المواطنين فى عهد جمال عبد الناصر . لم يتعرض أحد فى عهد إسماعيل صدقى لدخول السجن الحربى والتعذيب على يد أحمد أنور ، وحمزة البسيونى وشمس بدران وغيرهم .

أما الذين يعاقبون على جرائم الرأى فى أوربا فهم يقرأون ويفكرون وينتجون ويلقون فى حياتهم المادية من العناية كل ما يحتاج إليه الرجل المترف من أهل الطبقات الوسطى . ذلك أن أوربا قد أصبحت لا تفهم السجن على أنه عذاب ، وإنما تفهمه على أنه كف للمجرم عن المضى فى جريمته وقتا طويلا أو قصيرا .

أما هنا فالسجن عذاب . والسجن انتقام ، والسجن نوع من أنواع الأخذ بالتأر ، والسجن فن من فنون التأديب الذى لا بأس من أن يشوبه العنف من حين إلى حين .

أفبعد هذا نستطيع أن نقول إن مصر جزء مهذب من أوربا المهذبة ؟ لا ، ليس إلى مثل هذا القول من سبيل . إن الذين يعيبون الحضارة الأوربية ويزدرونها خليقون أن يفكروا ويطيلوا التفكير قبل أن يتورطوا فى هذا العيب والازدراء . فمصر لم تعرف من الحضارة الأوربية إلى الآن إلا شرورها وآثامها من جهة ، وإلا مظاهرها وأشكالها من جهة أخرى . فأما خيراتها ومنافعها ، فأما حقائقها وجواهرها فمصر تجهلها جهلا يوشك أن يكون تاما .

هذا صديقنا توفيق دياب قد سجن فى جريمة من جرائم الرأى التى يعاقب عليها القانون اليوم ، وقد يثيب عليها غدا ، ولكنه يعامل فى سجنه كما رأيت معاملة غيره من المجرمين ، لا يرعى حق لثقافته ، ولا لعقله ، ولا لمكانته ، ولا لضعفه ومرضه . وإنما دفع به فى معمل العذاب ، هذا الذى يسمونه السجن ، فيجب أن يحتمل فى هذا المعمل ما أعد له من ألوان العذاب .

وأجمل ما فى الأمر وأبدعه ، وأحسن ما فى الأمر وأروعه أن صديقنا توفيق دياب عضو فى أسرة يقال لها أسرة الصحافة . وإن هذه الأسرة الصحافية ترى نفسها كبيرة عظيمة الخطر . وتعطى نفسها الحق فى قيادة

الرأى العام ، وتهذيب العقول والأخلاق ، وترقية الحس والشعور ، وترى لنفسها الزعامة فى الشرق العربى كله ، ولا تتحرج أن تدعو الصحفيين الأوربيين إلى أن يعقدوا مؤتمرهم فى مصر ، ولا تتحرج من أن ترى أنها مظهر من مظاهر الرقى المصرى ، ودليل على أن مصر قد أصبحت جزءا من أوربا !! ثم هى بعد ذلك تقبل أن يعامل أحد أعضائها فى السجن معاملة اللصوص وقطاع الطريق العام .

سيقال إنها لم تقبل ، فقد اجتمعت واجتمعت ، وقد خطبت وكتبت ، وقد قالت فأطالت ، وقد سعت ودعت ، ولكنها على هذا كله تقبل أن يعامل عضو من أعضائها فى السجن معاملة اللصوص وقطاع الطريق العام! لأن الاجتماع والخطابة ، والكتابة والسعى والدعاء ، كل ذلك أهون ما ينبغى أن تأتيه الصحف للدفاع عن كرامتها والنضال عن حقوقها . هو لا يكلفها شيئاً ، وأى مشقة فى أن يلتقى الزملاء ويخطب الخطباء فيصفق لهم ويكتب الكتاب فيثنى عليهم ؟ ويسعى الساعون فلا يحفل بهم ؟ ويدعو الداعون فلا يستجاب لهم ؟ لا مشقة فى ذلك ولا غرم . ولعل فى ذلك لذة ، ولعل فى ذلك غنما أيضاً . ومن ذا الذى ينكر أن الصحفيين يجدون لذة حين يلتقى بعضهم بعضا ، وحين يصفق بعضهم لبعض ، وحين يثنى بعضهم على بعض !! فمن ذا الذى يستطيع أن ينكر أن الصحفيين قد غنموا من قصة الأستاذ دياب فأنشأوا لأنفسهم ناديا يختلفون إليه ، ويسمرون فيه ، ولم يكد هذا النادى ينشأ حتى سعت إليه بعض الهدايا !

كان هذا كله ، ولكن الأستاذ توفيق دياب يعامل فى سجنه معاملة المجرمين العادين حتى مرض — أستغفر الله — حتى عاوده المرض فأضناه وألح عليه .

وعرف الصحفيون هذا فأسفوا ، وأنكروا ورجوا ، وثق بأن أحدا منهم لن يعدو الأسف والإنكار والرجاء ، لا تكلف مشقة ولا تفرض

تضحية ، ولا تحمل ضرراً . ومادام الأمر كلاماً أو ما يشبه الكلام ، فنحن قادرون عليه ، بل راغبون فيه . فأما أن تطلب إلى الصحف عملاً يشعر الحكومة والشعب بأنها غاضبة حقاً ، متألمة حقاً . فأما أن تطلب إلى الصحف الاحتجاب يوماً أو أياماً ، فذلك منك غلو وإسراف ، لن يجد من الصحف إلا إعراضاً وازوراراً . ومع ذلك فهذا أيسر ما كان يجب على الصحف أن تعمل لو أنها تقدر التضامن حقاً .

يجب أن يحتمل صديقنا دياب آلامه وحده ، لأن إخوانه أحب لأنفسهم من أن يشاركوه فى هذه الآلام ! ولكن يجب أن يعلم الذين يسعدون اليوم وغداً بعيد الفصح وشم النسيم ، يجب أن يعلم هؤلاء الذين يغدون ويروحون بالتحية والتهنئة ، يجب أن يعلم الذين يذوقون غداً نعمة الحرية واسعة سعة مصر ، منطلقة انطلاق الهواء ، لذيذة لذة النسيم ، أن فى السجن مصرياً قضى عليه فى جريمة من جرائم الرأى ، فأذعن كما يجب لحكم القضاء ، ولكنه طريح على وسادة من القش ، ليس بينها وبين الأرض حاجز ، تمضه الآلام المضنية ، وتنهكه العلة القاسية . ولا يفكر أحد من القادرين على أن يعينوه ويرفهوا عليه ، فى أن يجعلوه سجيناً كغيره من الذين يسجنون فى جرائم الرأى .

يجب أن يفكر الذين سيشمون النسيم غداً أن صديقنا توفيق دياب قد قبل ألا يشم النسيم ، ولكن من حقه أن يكتفى منه بهذا الرضى ، وألا يذوق مع هذا الحرمان مرارة الألم والعذاب .

(٣٠)

تبعة

زعموا أن المقاومة(١) فى مصر للسلطان الأجنبى قد أصابها الضعف ، ومشى فيها الفتور ، ودب إليها نوع من الخمود حال بينها وبين أن تنتج فى

---

(١) ١٨ — ٤ — ١٩٣٣ عدد ٢٣٦٧

تحقيق الآمال القومية ما كان ينتظر منها ، فلم تتقدم مصر فى سبيل استقلالها كثيرا منذ كانت الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ ، بل مازالت الامتيازات قائمة لا تستطيع مصر أن تلغيها إلا أن تتولى انجلترا حماية المصالح الأجنبية ، وإلغاء الامتيازات بنفسها ، لأن مصر أعجز من أن تثبت لأوربا وللانجليز ، وأقصر باعا من أن تقدم على إلغاء الامتيازات بنفسها كما فعل الفرس والترك ... !

وقد أخذ بعض أصدقائنا يعلل ضعف المقاومة هذا ، ويرده إلى مصادره ، ويبحث عن الذين يحتملون تبعته ، فاهتدى إلى العلة الصحيحة لهذا الضعف ، ووضع يده على الداء الذى كان يجب أن يستأصل منذ ظهرت أعراضه ، والذى أصبح استئصاله الآن ضرورة وطنية لا مندوحة عنها إذا كان قادة الرأى فى هذا البلد — كما نعتقد — لا يزالون يؤمنون بأن الاستقلال حق لمصر ، وبأن الواجب عليهم أن ينتهوا بها إليه .

وهذا الداء الذى انتهى إليه صديقنا ، ووضع يده عليه ، وهو تشعب الأحزاب فى غير داع إلى تشعب الأحزاب . فالمصريون جميعا يطلبون الاستقلال ، ويسعون إليه ويلحون فيه ، ويتمنون لو أتيحت لهم الفرص التى تمكنهم من تحقيقه ، بل من التضحية الكبرى فى سبيل تحقيقه . وقد أقاموا على ذلك أدلة واضحة لاتقبل الشك يوم نهضوا سنة ١٩١٩ يطالبون بالاستقلال ويثورون بالحماية حتى ألغوها .

المصريون جميعا إذن يطالبون بالاستقلال ويلحون فيه ، لا تختلف أحزابهم فى ذلك ، ولم ينشأ من أسباب الخلاف ما يدعو إلى أن تتشعب الأحزاب وتفترق ، وإنما هى — كما يقول صديقنا — الأهواء والأمزجة والمنافع تنشىء الأحزاب وتنقل الأشخاص فيما بينها . وليس فى ذلك شك ولا ريب فالحكم وحده هو الذى أنشأ الأحزاب فى مصر بعد أن كانت كلمة المصريين مجتمعة على المطالبة بالاستقلال والإلحاح فيه ، والتضحية فى سبيله .

وتستطيع أن تتبع تاريخ الأحزاب(١) التى أنشئت فى مصر بعد أن تألف الوفد للمطالبة بالاستقلال وأيدته الأمة المصرية كلها ، لم يشذ منها شاذ . ولم يخرج عليها خارج فسترى أن الأمل فى الوصول إلى الحكم والسيطرة على الأمور ، وتحقيق المنافع لبعض الجماعات وبعض الأفراد ، هو الذى ألف هذه الأحزاب واحدا إثر واحد ، وهو الذى جعل فى مصر هيئات سياسية مختلفة تحترب فيما بينها وتقتتل ويسىء بعضها إلى بعض ، ويغرى بعضها ببعض ، ويكيد بعضها لبعض . وهى كلها تسعى إلى تحقيق غرض واحد ، هو الاستقلال .

وهذه الأحزاب وإن تشعبت ليست كثيرة ، وليس تاريخها بعيدا يحتاج إلى الجهد والتعب فى درسه وتحقيقه . فأنت تستطيع أن تحصى ما نشأ منها بعد الحركة الوطنية ، وتستقصى الأسباب التى دعت إلى نشوئه ، وتستقصى كذلك الأسباب التى دعت إلى تطوره ، وتستقصى كذلك الأسباب التى دفعته حينا إلى الشمال حتى اتصل بالوفد وكاد يندمج فيه ، ودفعته حينا إلى اليمين حتى انفصل عن الوفد ونصب له الحرب. تستطيع أن تستقصى هذا كله فلن تحتاج إلى مشقة ولا إلى جهد لتنتهى بهذا

---

(٢) عرفت الأحزاب فى مصر قبل سنة ١٩١٩ ، فظهر الحزب الوطنى ، وحزب الأمة ، وحزب الإصلاح على المبادىء الدستورية . ثم إن الحياة النيابية لا يمكن أن تتحقق إلا مع وجود الأحزاب السياسية .

إن الذين اختلفوا مع سعد زغلول كانوا يريدون التساهل مع الانجليز وقد سبق لهم أن قبلوا الحماية ، وتعاونوا مع سلطات الاحتلال فى خلال الحرب العالمية الأولى . كما عارضوا مصطفى كامل فى معاداة الانجليز وكان شعارهم « سياسة المسالمة ، لا المعاندة » وهم أعضاء حزب الأمة الذى تغير اسمه إلى حزب « الأحرار الدستوريين» .

ثم أنشأ الملك فؤاد حزب الاتحاد ليتخذه ستارا يحكم الأمة من ورائه وليسهل عليه اقتناء الأطيان الواسعة والأموال الطائلة . ثم أنشأ اسماعيل صدقى حزب الشعب ، ومكن لسلطة الملك . أما الأمة المصرية فلم تعترف بهذه الأحزاب ، وظلت متمسكة بحزب الوفد إلى سنة ١٩٥٢ حيث صدر قرار بحل الأحزاب ، لأن تحويل الأمة عن حزب الوفد كان أمرا مستحيلا .

الاستقصاء إلى شيء واحد ، هو أن الطموح إلى الحكم قد أنشأ الأحزاب ، وأن الطموح إلى الحكم قد ترجح بالأحزاب فمال بها إلى اليمين مرة ، وإلى الشمال مرة أخرى .

ومادام الأمر كذلك فلابد للأشخاص أن يتنقلوا بين الأحزاب ، منهم من تغريه المنفعة فيميل من شمال إلى يمين ، ومنهم من يضيق صدره بالمداورات والمناورات وتقديم المنافع الخاصة على المنافع العامة واتخاذ الشعب وسيلة إلى الحكم حين يجب أن يتخذ الحكم وسيلة إلى تحرير الشعب فيميل من يمين إلى شمال .

نعم ، سبب واحد أنشأ الأحزاب هو الحكم ، وسبب واحد دعا إلى تطور الأحزاب هو الحكم ، وسبب واحد رغب فى الائتلاف ورغب عن الائتلاف هو الحكم . فما أجدر الأحزاب التى نشأت بعد الحركة الوطنية أن تعاود تاريخها الحديث فى وقت واحد متذكرة فإن الذكرى تنفع أحيانا . وما أجدر الأحزاب التى نشأت بعد الحركة الوطنية أن تعود إلى الفكرة الصالحة التى يجب أن تقوم عليها الأحزاب ، وهى أن الحكم وسيلة لا غاية ، وأن سعادة الشعب غاية لا وسيلة ، وأن جهود الافراد والجماعات يجب أن تخلص لتخرير الشعب إن كان مستذلا ، وتعليم الشعب إن كان جاهلا ، وإغناء الشعب إن كان فقيراً .وإن من الإثم أن يتخذ خداع الشعب وتضليله وسيلة إلى الاستمتاع بالحكم والاستئثار بالثروة والجاه والسلطان .

لقد لاحظ صديقنا الذى استكشف هذا الداء ، ووضع يده عليه أن الإنجليز اضطروا أن يقمعوا الحركة الوطنية بقوتهم الانجليزية بعد أن نشأ الوفد ، وقبل أن تنشأ الاحزاب . فلما نشأت الأحزاب استغنى الإنجليز عن قوتهم واستعانوا بالمصريين على إذلال المصريين ، ووجدوا أحزابا تصل إلى الحكم عن طريق الإنجليز حتى إذا اطمأنت فى المناصب ، سخرت جنود الدولة وأموال الدولة لإضعاف المقاومة المصرية ،والتمكين لسلطان الإنجليز ، وهذا — مع الأسف الشديد — حق لا شك فيه .

ولكن استكشاف الحق شيء، والانتفاع بهذا الاستكشاف شيء آخر! وإذا كان من الخير أن تعرف الداء، فان من الواجب أن تحسمه وتشفى منه المريض. وأى حسم لهذا الداء الذى استكشفه صديقنا ووضع يده عليه أحسن من أن تعود وحدة الأمة إلى ما كانت عليه قبل نشأة الاحزاب، ومن أن تجتمع كلمة الأمة كما كانت مجتمعة قبل نشأة الاحزاب، ومن أن تنحل هذه الاحزاب ويعود أفرادها إلى العمل للشعب ومع الشعب، لا فضل لأحد منهم على صاحبه إلا بالكفاية وصدق الجهاد، وحسن البلاء فى سبيل الاستقلال.

هذا هو الدواء بعد أن استكشف الداء، ولكن الانتفاع بهذا الدواء مع أنه واجب وطنى لا سبيل اليه فيما يظهر، لأن الانجليز ما زالوا يلوحون بالحكم، ولأن نفوسا ما زالت تهفو إلى الحكم. وما دام الانجليز يلوحون، وما دامت النفوس تهفو وتصبو، فقد يكون انحلال الاحزاب مستحيلا، بل قد يكون ائتلاف الاحزاب على ما يحقق المنفعة الوطنية الخالصة عسيرا. وإذن فلابد من أن تمتحن الأمة فى أبنائها كما تمتحن فى حياتها كلها. ولابد من أن تنهض الأمة مجاهدين، فتجاهد الانجليز من جهة، وتجاهد أصدقاء الانجليز من أبنائها من جهة أخرى!

ولابد من أن تصبر للإنجليز حتى يعجزهم صبرها، ولابد من أن تحتمل المحنة فى أبنائها حتى ينقطع أمل هؤلاء الابناء فى الحكم أو تردهم ضمائرهم الحية إلى الصفوف. وإذا كان هناك واجب يحسن أن تنهض به الشعوب فى شجاعة وكرامة لتصل إلى الحياة الكريمة المستقلة، فهو ألا تخدع هذه الشعوب نفسها عن نفسها، ولا تتعمد الجهل بمواطن الضعف فيها. وإذن فالواجب على الشعب المصرى إن كان يريد أن يعيش حرا كريما أن يعترف أمام نفسه بأن فيه موطنا للضعف، هى هذه الأحزاب التى نشأت بعد الحركة الوطنية، والتى تيامن حينا، وتياسر حينا آخر، وتأبى أن تسير فى طريق مستقيمة، لأن الطريق المستقيمة طويلة شاقة، لا توصل إلى الحكم إلا بعد جهد ثقيل وعناء شديد.

لتكن تبعة ذلك بعد هذا على من تكون ، لتكن على المصريين ، لتكن على الانجليز ، لتكن على فريق من المصريين دون فريق ، فان الذى يعنى من هذا كله هو أن تعرف الأمة موضع الضعف فيها فتجد فى حقها ، وتشتد فى المحافظة على وحدتها ، وتوسع صدرها للذين يريدون أن يعودوا إلى هذه الوحدة ، وتتنكر فى رحمة وإشفاق للذين يأبون إلا أن يتخلفوا عن الصفوف . !

(٣١)

قمر

هو رئيس وزرائنا أتم الله له الشفاء ، وأسبغ الله عليه العافية . وقد طلع فى سماء مجلس النواب فبهر الأبصار ، وخلب العقول ، وهز القلوب فى الصدور ، وأطلق لسان أحد النواب المحترمين بهذه الجملة الشعبية الظريفة « طلع القمر » .

ولكن القمر يطلع فى أول الشهر ، ويطلع فى أثنائه ، ويطلع فى آخره . وله فى مطالعه المختلفة هذه أسماء مختلفة ، منها ما يبعث السرور والبهجة ، ومنها ما يبعث الأمل والرجاء ، ومنها ما يبعث فى النفس شعورا هادئا شاحبا ، لا بهجة فيه ولا سرور . ولا أمل فيه ولا رجاء .

فالهلال يبعث فى النفوس الأمل لأنه سيصير بدرا كاملا كما قال أبو تمام . والبدر يبعث فى النفوس بهجة وسروراً وثقة ، لأنه يصور القمر فى أجمل صوره وأبهاها ، وأخلبها للعقول والأبصار .

ما القمر فلا يبعث فى النفوس شيئا خاصا ، وإنما هو شعور هادىء قلما يتجاوز هذا الجمال العام . ففى أى طور طلع قمر رئيس الوزراء أمس فى مجلس النواب ؟ لم يكن هلالا من غير شك ! فقد كان هلالا منذ زمن بعيد حين ألف الوزارة ونهض بأعباء الحكم ! ولم يكن بدرا من

---

(١) ١٩٣٣/٤/١٩ عدد ٢٣٦٨

غير شك ، فقد كان بدرا منذ زمن بعيد حين استحكم له الأمر ، واجتمعت له أسباب القوة ، فسيطر على مصر غير منازع ولا مدافع ، وأجرى أمورها كما أحب بيد قوية حازمة ، لا تعرف الضعف ، ولا يجد الخور إليها سبيلا . وأطلق لسانه بألوان الخطابة فى السياسة حينا ، وفى الاقتصاد أحيانا ، بالعربية حينا ، وبالفرنسية أحيانا ، فى القاهرة حينا وفى الأقاليم أحيانا ، بل فى مصر حينا ، وفى أوربا أحيانا .

كان فى ذلك الوقت بدرا كاملا ! كان قوى البأس ، شديد المراس ، حديد الشكيمة . وكان صحيح الجسم ، موفور النشاط . أما الآن فقد هان بأسه ، ولان مراسه ، وضعفت شكيمته ، وتفرقت عليه الأمور فهو لا يضبطها ، وندت عليه الأعمال فهو لا يستقل بتسييرها وتدبيرها ، وأثر فيه المرض فهو لا يخطب فيطيل ، وإنما يشكر فيوجز . وهو لا يزور فيقيم ، وإنما يلم ثم ينصرف .

لم يكن هلالا ، ولم يكن بدرا ، وإنما كان قمرا فى آخر الشهر على أنه لم يكن قمرا فحسب وإنما كان عرفا وطيبا أيضا ، لاح نورة فى مجلس النواب ، وكان المجلس مختنقا بريح(١) البصل كما قال بعض الخطباء !! فتبددت هذه الريح ، وتردد فى الجو عطر خفيف ظريف ، أنعش نفوسا ، وأحيا آمالا . وأقر السلام فى نصابه بين

---

(١) كان المجلس يناقش مشكلة تراكم محصول البصل وإضراب المصدرين عن شرائه . وقد عقد اجتماع فى الاسكندرية حضره أحمد عبد الوهاب باشا وكيل وزارة المالية وكبار التجار ، فاقترح أحد الحاضرين أن يعدم جزء من البصل الموجود فى الميناء حتى يخف الضغط على السوق كما فعلت حكومة البرازيل فرد وكيل الوزارة قائلا إن هذا الحل ليس من الحلول العملية بدليل أن حكومة البرازيل لم تكرر هذا العمل بعد المرة الأولى . وقد بيع جانب منه بسعر يتراوح بين عشرين وأربعين قرشاً للقنطار . وأخيرا قررت الحكومة شراء البصل لحسابها وتصديره إلى الخارج ليباع بمعرفة مندوبى الحكومة ، وتحملت هى مسئولية ذلك . «كوكب الشرق فى ١٩٣٣/٣/٣٠» .

الفريقين المختصمين ، بين المؤيدين والمعارضين . وكان هذا السلام قد استقر من قبل فى ذلك المؤتمر الذى انعقد صباح الجمعة ، والذى مهد له بالاجتماعات الخاصة والمقابلات المتكررة ، والذى انتهى إلى صيغتين كتبتا ثم قرئتا ثم أقرتا ، ثم تم الاتفاق على أن يتلو إحداهما رئيس المجلس ويتلو الأخرى رئيس المعارضين . وقد أنفذ الاتفاق فى أمانة لا غبار عليها . واتخذ تنفيذه مظاهر تمثيلية لا تخلو من جمال ، ولا تعوزها اللباقة والرشاقة .

فأما فى الفصل الأول من القصة فيجتمع مجلس النواب وتفتح جلسته ، ويأخذ فى أعماله كأن لم يكن شيء ، ولكن النظارة لا يشكون فى أن شيئا قد كان ، لأن هناك مجالس خالية ولم تكن عادتها أن تخلو ، وكراسى تنتظر أصحابها ولم يكن من شأنها أن تطيل الانتظار . فأنت إذا تردد بصرك بين المجلس وهو يمضى فى أعماله أو يظهر المضى فيها ، وهذه الكراسى الفارغة ، لا تشك فى أن شيئا ذا بال قد كان ، وفى أن أمرا ذا خطر سيكون . وفيما أنت تفكر فيما كان وتترقب ما سيكون يدخل المعارضون وعلى رأسهم زعيمهم فتشخص الأبصار ، وتشرئب الأعناق ، ويتقدم زعيم المعارضين إلى رئيس المعتذرين ، فيكون حديث لا يسمعه أحد ، ولكن كل إنسان يذهب فى تقديره وتفسيره المذاهب . ثم يعود زعيم(١)

---

(١) زعيم المعارضين هو حافظ رمضان رئيس الحزب الوطنى ومعه عبد الحميد سعيد وعبد العزيز الصوفانى . وكانت المعارضة تقدمت باستجواب إلى وزير الأشغال محمد شفيق باشا بخصوص خزان جبل الأولياء وما هى الحاجة الملحة لإنشائه .

فذكر الوزير أن دولة رئيس الوزراء سوف يرد على هذا الاستجواب بنفسه ، وطلب مهلة شهر . والذى حدث أن رئيس الوزراء سقط مريضا ، وأرادت الحكومة أن تمرر ميزانية وزارة الأشغال مع إهمال الاستجواب ، فانسحبت المعارضة احتجاجا على ذلك ومرت الميزانية بعد أن وافق عليها النواب جملة واحدة دون مناقشة تفصيلاتها ثم عقد مؤتمر بين المعارضة وبعض الوزراء وانتهى الأمر باجراء صلح بين الطرفين .
صافى يالبن .

المعارضة إلى مكانه ، ويتلو رئيس المجلس الصيغة التي كتبت فاذا هو يعتذر فيبسط العذر ، ويؤكد حبه لحرية الرأى ولحرية الكلام . ثم إذا أتم هذه الصيغة نهض زعيم الغاضبين فتلا صيغة الرضى ، وإذا هو يسجل ويشكر ويتمنى ! ثم يجلس ويمضى المجلس فى أعماله كأن لم يكن شيء ! وكأن لم يحدث خلاف .

وتفكر أنت فى العواطف التى ثارت فى نفوس الغاضبين والمعتذرين ، والعواطف التى هاجت فى قلوب المعارضين والمؤيدين ، وهم يسمعون اعتذار الرئيس واسترضاءه ، وشكر الزعيم ورضاءه ، وتفكر فى العواطف والعواصف فلا يهتدى تفكيرك إلى شيء ، وتحدق النظر فى الوجوه ملتمسا للعواطف ، والعواصف فلا ترى عاطفة . ولا تظفر بعاصفة ، وإنما هو هدوء شامل قبل الاعتذار والرضى ، وهدوء شامل بعد الاعتذار والرضى . كان الجو ملبدا بالغيوم كما يقولون ، ويقصف فيه الرعد ، ويخطف فيه البرق ، ولكنك تعلم أن الجو يصفو بعد الزوبعة . وقد كانت الزوبعة يوم الأربعاء فبدأ الجو يصفو يوم الخميس ، وانجلى صباح الجمعة ، وتم صفوه وانجلاؤه بعد ذلك ، وعاد إلى المجلس هدوءه الشامل وسكونه الكامل ، وإذا هو يتحدث فى بنك التسليف العقارى وفى قانون البصل .

ثم يكون الفصل الثانى ، وفيه يشرق القمر فيبعث فى المجلس ضوءا هادئا فاترا مريحا ، ولكنه باعث للنشاط ، موقظ للهمم على كل حال . وإذا القوم يقفون إجلالا للقمر ، وإذا القوم يهتفون ترحيبا بالقمر . وإذا القوم يصفقون إكبارا للقمر ، وإذا أشد القوم نشاطا وأعظمهم قوة يطير فى الجو ، ويصعد فى السماء حتى يبلغ القمر فيقبل راحته !! وأى غرابة فى أن يكون للقمر راحة ينهال عليها محب القمر باللثم والتقبيل ؟ ثم يتكلم رئيس المجلس فيرفع التحية إلى القمر ، ويتكلم القمر فيرد التحية على محبيه ، ثم يغيب القمر فتتبعه القلوب والنفوس ، وتمضى فى أثره الأمانى والآمال .

ويعود كل شيء إلى الهدوء والاطمئنان ، وقد نجا المجلس من خصومة المختصمين ، واعتذار المعتذرين ، ورضى الراضين . وربح البصل وانغمس فى وزارة الزراعة يدرس ميزانيتها فى نفس العجلة التى درس فيها ميزانية وزارة الأشغال مساء الأربعاء !

كذلك تجرى أمورنا فى مصر : اضطراب يعقبه هدوء ، وغضب يعقبه رضى ، وقمر يطلع ثم يغيب ، ونظارة يرون فيبتسمون ، ويسمعون فيضحكون حتى إذا أصبح الصباح وتناول الناس الأهرام ، نظروا فاذا الجد كل الجد فى لندرة ، وإذا سياسة مصر تدبر فى وزارة الخارجية البريطانية . أيعود المندوب السامى فيظل القمر مشرقا فى السماء ؟ أم ينقل المندوب السامى فيهوى قمر ويصعد مكانه قمر آخر يبدو هلالا ، والله يعلم أيتم دورته أم يهوى قبل أن يصير بدرا !

(٣٢)

توسع

بين يدى مجلس النواب(١) فى هذه الأيام مشروع قانون تتعجل الحكومة إصداره كما تعجلت إصدار قوانين الجامعة منذ حين . ومن الحق على المصريين الذين يفكرون فى المستقبل السياسى لهذا البلد تفكيرا نزيها صادقا ، خالصا من كل شائبة أن يقفوا عند هذا القانون وقفة فيها شيء من الروية والتنبه لما يشتمل عليه من نذير . فهو ينذر بخطر شديد لا يفطن له الناس عند النظرة الأولى ، ولكنهم لا يكادون يطيلون النظر فيه حتى يشعروا بأن حربا عنيفة تهيأ لمستقبل الديمقراطية فى مصر ... !

ومهما أقل فى ذلك فلن أصل إلى المبالغة ، ولن أتورط فى الغلو ، فان بعد النظر وقصره لا يمسان تنظيم الصلات بيننا وبين الإنجليز فحسب ،

---

(١) ٥ — ٤ — ١٩٣٣ — عدد ٢٣٣٥

ولا يمسان حل المشكلة السياسية الظاهرة من إنزال الوزارة القائمة عن مناصب الحكم ، وإقامة وزارة حزبية أو قومية مكانها فحسب ، بل يجب أن يمس شيئا آخر ، هو قيام حياتنا السياسية الداخلية والخارجية ، وهو إقامة الديمقراطية فى مصر على أساس ثابت متين . وأنا واثق بأنك ستدهش حين أسمى لك هذا القانون ، لأنك لم تتعود أن تحفل بمثله . ولكنى أرجو ألا يصرفك الدهش عن التفكير ، وأن تنتهى معى إلى الإيمان بأن هذا القانون كيد يدبر للديمقراطية المصرية ، والناس عنه غافلون .

هذا القانون هو قانون التخصص فى الأزهر . أسمعت هذا اللفظ ! إنه يسير ، تراه كل يوم فى الصحف فلا تقف عنده . وقد يتحدث الناس به من حولك فلا تلقى إليه سمعا ولا بالا . ولكنه مع ذلك خليق أن تقف عنده ، وخليق أن تلقى إليه سمعك وبالك . وخليق أن تتهيأ لاتقاء ما فيه من شر . ولست أريد اليوم أن أتحدث عنه إلا من ناحية واحدة ، هى التى تعنينى ، وهى التى تعنيك حين تفكر فى المستقبل السياسى لهذا البلد الحزين .

يشتمل هذا القانون على حكم يبسط سلطان الأزهر بسطا منكرا على التعليم فى مصر . وإذا سيطر الأزهر على التعليم فقد سيطر على كل شىء . ولم لا ؟ وهو يسيطر على تنشىء الأطفال وتثقيف الشباب .

هذا الحكم هو الذى ينشىء فى الأزهر قسما للتخصص فى المهنة ، وأنت تنكر لفظ المهنة هذا كما أنكره أنا ، وتراه مبتذلا سقيما ، ولكن معناه ليس مبتذلا ولا سقيما ، فهو يدل على فن التعليم .

ينشىء هذا القانون إذن فى الأزهر قسما يتخصص فيه الأزهريون فى فن التعليم ، حتى إذا أتموا تخصصهم هذا خرجوا منه فانتشروا فى أقطار مصر ، يعلمون فى المدارس المصرية على اختلافها ، وليس بهذا بأس إذا حسن الدرس فى الأزهر ، وضمن لنا قسم التخصص تخريج المعلمين

الأكفاء . ليس بهذا بأس على عقول الأطفال والشبان وأخلاقهم ، فالأزهر إذا صلح كان كغيره من المدارس مصدرا للخير ، لا خوف منه ولا بأس به . ولكنك تعلم أن للأزهر نظاما أقل ما يوصف به أنه بدعة فى الإسلام، وهو هذا النظام الذى يجعل لهيئة كبار العلماء سلطانا واسعا يشل سلطان الحكومة أيضا ، فكل من تخرج من الأزهر خاضع لسلطان هذه الهيئة ، تحاكمه إذا شذ فى سيرته شذوذا ما ، وتحاكمه بنوع خاص حين يشذ فى التفكير ، وحين يخرج فيما يكتب أو ينشىء عن مألوف العلماء الأزهريين . وهى إذا حاكمته جازلها أن تخرجه من زمرة العلماء الأزهريين ، وهى إذا أخرجته من هذه الزمرة حرمته طائفة من حقوقه المدنية ، وأوجبت على الحكومة أن تفصله من أى عمل فيها ، وحرمت على الحكومة أن تكل إليه أى عمل من أعمال الدولة . وقد ظهرت آثار هذا النظام منذ سنين حين حوكم الأستاذ على عبد الرازق أمام هذه الهيئة فأخرجته من زمرة العلماء ، وأذعنت الحكومة المصرية يومئذ لحكم هذه الهيئة فعزلته من منصب القضاء .

ومعنى هذا أن الأساتذة (١) الأزهريين الذين سينبثون فى مدارس

---

(١) هذا المقال من تخريف طه حسين ، فكثيرا ما يخونه التوفيق فيأتى بالمضحكات . فهؤلاء المتخصصون فى اللغة العربية يدرسون مناهج مقررة على تلاميذ الابتدائى والثانوى . فما هو الشذوذ الذى يتحدث عنه الكاتب ، والذى يستوجب العقوبة التى ذكرها . حقا لقد صدق الشاعر حين قال :

سبحان من قسم العقو ل فلا عتاب ولا ملامه

وقد مر نصف قرن على هذا الكلام ولم يقع الخطر الذى نبه عليه الكاتب ودعانا لإعمال الروية ، وأنذرنا بقيام حرب عنيفة تهدد الديمقراطية فى مصر من جراء إنشاء كلية للغة العربية بالأزهر .

وقدر لطه حسين أن يعيش حتى يرى الأزهر يتحول إلى جامعة ذات كليات لا تختلف عن غيرها من الجامعات .

الحكومة على اختلاف درجاتها وأنواع التعليم فيها سيخضعون لهذه السلطة القضائية الغريبة ، فيفكرون بمقدار ، وينتجون بحساب . ويسيرون على الشوك . فإذا شذ أحدهم عما يجب للأزهر – استغفر الله – بل عما يراد لهيئة كبار العلماء أن تحب ، أقول إذا شذ أحد من هؤلاء الأساتذة حوكم أمام هذه الهيئة ! فإذا قضت بإخراجه من زمرة العلماء الأزهريين وجب على وزارة المعارف أن تخرجه من زمرة المعلمين ،وأن تحول بينه وبين التعليم. ووجب على الحكومة كلها بعد ذلك ألا تكلفه عملا رسميا ما .

سيخضع هؤلاء الأساتذة لهذه الهيئة ، وستخضع معهم وزارة المعارف لهذه الهيئة ، وستنزل الحكومة عن شيء من سيادتها لهذه الهيئة، وسيصبح الوزراء منفردين فى مكاتبهم ومجتمعين فى مجلسهم أداة لهذه الهيئة تصرفهم كما تريد ، أو كما يراد لها . هم كذلك الآن بالقياس إلى القضاة الشرعيين وإلى الموظفين القليلين من رجال الأزهر فى مصالح الدولة .

فسينبسط هذا السلطان بعد أعوام فيتناول التعليم كله . أرأيت إلى هذا الخطر الذى يضع وزارة المعارف تحت سلطان شيخ الأزهر ؟ أفكرت فيما قد يكون لهذا من تأثير ؟ لا أقول فى مستقبل التعليم ، بل أقول فى مستقبل السيادة التى يجب أن تكون لحكومة الدولة، بل أقول فى مستقبل الديمقراطية المصرية كلها ...

أنا واثق كل الثقة بأن الديمقراطية منتصرة آخر الأمر ، بل إنها ستشتمل الأزهر نفسه . فمهما تبلغ قوة المحافظين والمسرفين فى المحافظة ، فلن تغير طبيعة الأشياء . وطبيعة الأشياء تقضى أن يأتى النظام الديمقراطى على كل شيء ، ولكنك توافقنى فيما أظن على أن الذين يشرعون هذا القانون يهملون طبيعة الأشياء ، ويخلقون لمصر مصاعب ومشاكل لا فائدة فى خلقها . وقد أثبت كل شيء أنها كانت دائما مصدر الشر والفساد .

لقد كان الأزهر حريصا على إنشاء قسم التخصص فى التعليم منذ زمن بعيد ، وكان ظاهر هذا الحرص أن تفتح أبواب العمل للأزهريين ، وباطن

هذا الحرص أن يبسط (١) سلطان الأزهر على المرافق المصرية . وقد قاومت الحكومة هذه الفكرة فى عهد الوزارات التى سبقت هذه الوزارة القائمة ، وأبت على الأزهر العناية بتخريج المعلمين ، لأن هذه العناية حق خالص لوزارة المعارف فى كل دولة لها حظ من حضارة ، ولكن الذين يحرصون على بسط هذا السلطان الأزهرى قد انتهزوا قيام هذه الوزارة التى لا تأبى شيئا إلا على الشعب : فوضعوا قانونهم ، ووضعوا فيه هذا الحكم وقدموه إلى مجلس النواب . والغريب (وهل بقى شىء يستغرب فى مصر) أن اللجنة البرلمانية فى مجلس النواب قد نظرت هذا القانون وأقرته ورفعته إلى مجلس النواب ، ولم تفطن لهذا الحكم ، ولا لما فيه من اعتداء على وزارة المعارف ولا لما فيه من تجاوز لأصول الديمقراطية ، ولا لما فيه من بسط هذا السلطان الخطر إلى جانب سلطان الحكومة . لم تفطن لشىء من هذا ، أو فطنت له ولكنها طوته طيا واكتفت بأن تلاحظ أن تعليم اللغات الأجنبية فى أقسام التخصص ضيق يجب أن يوسع ، وناقص يجب أن يزاد .

ومع ذلك فالبرلمان بطبيعته خليق أن يدافع عن النظم الديمقراطية ، وأن يحوطها من كل ما يمكن أن ينتقص أطرافها أو يحد من سلطانها . ولكنك تعلم أن الديمقراطية شىء بغيض إلى بعض الناس فى هذه الأيام ، ماذا ؟ أيحد استقلال الجامعة حتى يمحى ؟ أيبسط سلطان الحكومة على الجامعيين إلى أقصى حد ممكن ؟ أيقسم السلطان الجامعى بين الحكومة والأجانب وتحرم الجامعة حتى أن تقضى فى أبنائها ورجالها ، ثم يبسط سلطان الأزهر حتى يتجاوز الأزهر إلى مدارس الدولة ومصالح الدولة ؟ !

ماذا ؟ أبلغ الأمر بسادتنا الذين يحكموننا الآن أن يضعوا معهد العلم الحديث تحت هذه الوصاية الخائفة المشفقة ، المسرفة فى الخوف والإشفاق وأن يمكنوا لمعهد قديم من أن يبسط سلطانه إلى هذا الحد البعيد !

---

(١) لم يحدث أن بسط الأزهر سلطانه على المرافق المصرية . والأزهريون مواطنون ، لهم ما لطلبة كلية الآداب من الحقوق . فلماذا لا يعملون مدرسين للغة العربية وما الذى يمنع من ذلك ؟

ماذا ؟ أيراد بمصر أن تمشى إلى أمام فيسيطر العلم الحديث على مرافقها ويسعى بها إلى تحقيق آمالها ، ويرقى بها إلى مثلها العليا ؟ أم يراد بمصر أن تمشى إلى وراء فيصبح أمر التعليم والتربية فيها إلى من لاحظ لهم من تربية وتعليم !!

كل هذا مخالف لطبيعة الأشياء . وكل هذا جهد ضائع وتبديد للقوة والوقت ، ولكنه على كل حال تأخير للرقى . واستهزاء بحق الشعب فى أن يرقى ويأخذ مكانه بين الشعوب الحرة .

ألست توافقنى بعد ذلك على أن الوزارة القائمة لا تفسد من شئوننا الحاضرة وحدها فى السياسة والاقتصاد والتعليم ، ولكن لها برنامجا آخر خفيا تنفذه شيئا فشيئا ، وهو أن ترد مصر إلى حيث كانت فى القرون الوسطى ، بلدا خاضعا لسلطان(١) مطلق يؤيده رجال الدين ...!!

يجب أن يتنبه المعارضون وأن يسجلوا هذه الحركات الخفية التى تهيأ لحرب الديمقراطية فسيصلون إلى الحكم غدا أو بعد غد .وسيجدون أمامهم أبنية قائمة تمنعهم من التقدم إن لم يزيلوها .

(٣٣)

معضلة

هى(٢) معضلة فلسفية لا تمس السياسة ، ولا الاقتصاد ، ولا التعليم ، ولا شيئا من هذه المرافق التى يعنى بها الناس ، ويريدون الصحف اليومية

---

(١) أخطأ طه حسين فى حملته على رجال الدين المسلمين فى هذا الموضوع . فهل إنشاء كلية للغة العربية فى الأزهر يرد مصر إلى حيث كانت فى القرون الوسطى ؟ ! والعجب من صحيفة «كوكب الشرق» التى نشرت هذا المقال .

(٢) ٢١ – ٤ – ١٩٣٣ – عدد ٢٣٧٠

على أن تتحدث إليهم فيها . لا تمس شيئا من هذا ، وإنما تمس فرعا من فروع الفلسفة العليا ، هو ما بعد الطبيعة أو ما وراء المـــادة كما يسميه الفلاسفة .

وأنا أريد أن أتحدث إليك فى هذه المعضلة الفلسفية العليا ، وأنا ألح عليك فى ألا تخاف ولا تفزع ولا تنصرف عن هذا الحديث مخافة أن تجد فيه من العسر والمشقة ما لا تحب أن تجد حين تقرأ فى الصحف أحاديث الصباح وأحاديث المساء ، فلن تجد مشقة ولا عسرا . ولعلك أن تجد فكاهة ولهوا ، لأن وزير التقاليد هو بطل هذه المعضلة الفلسفية العليا . ومجلس الشيوخ هو المدرسة التى عرضت فيها هذه المعضلة ، وحاول الفيلسوف العظيم أن يحلها فظفر من التوفيق بما لم يظفر به أفلاطون فى الأكادمية ، ولا أرسطاطليس فى الليسيه ،ولا ديكارت فى مدفئه ، ولا أحد من الفلاسفة المعاصرين فى مدرسة من المدارس ، أو مجمع من المجامع ، أو رواق من الأروقة .

وكل ما أطلبه إليك هو أن تمنح هذه المعضلة شيئا من عنايتك ، وقسطا من التفاتك وفراغ بالك ، فسأيسرها لك ، ولكن يحسن أن تعيننى أنت على هذا التيسير .

المعضلة هى أن الحكومة تريد أن تشرف على الجامعة ، فكيف يكون هذا الإشراف ؟ وإلى من يكون هذا الإشراف ؟ أيكون لوزارة المعارف؟ أم يكون لوزير المعارف ؟ وبعبارة أوضح ، أيكون لوزير المعارف من حيث هو وزير المعارف ؟ أم يكون لوزير المعارف من حيث هو الرئيس الأعلى للجامعة ؟

هذه هى المعضلة ، وأظنك توافقنى على أنها خليقة بالعناية والتفكير ، خليقة بالخطابة والتحبير خليقة بالكتابة والتحرير ، خليقة بالجدال والنضال خليقة بقيل وقال ، خليقة بأن ينفق فيها مجلس الشيوخ جهدا عظيما ،

وبأن يقف عليها وزير التقاليد قوته الهائلة ، وبراعته الرائعة وبلاغته التى لا تطاق .

وقد حقق مجلس الشيوخ أملنا فيه، فقلب المعضلة ظهرا لبطن ، وجاءها من حيث تجاء ومن حيث لا تجاء . وقال وزير المعارف فيها فأبدع ، وانصرف القوم بعد جدال طويل . وأكبر الظن أنهم لم يتفقوا ، وأكبر الظن أن بعضهم لم يفهم بعضا ، وأكبر الظن أن تبعة هذه المعضلة تقع على أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد بك ، لأنه هو الذى أثار هذه المعضلة أثناء وضع قانون من قوانين الجامعة ، فزعم أن لوزير المعارف صفتين : باحداهما يشرف على وزارة المعارف ، وبالأخرى يشرف على الجامعة .

وفهم الجامعيون عن مديرهم هذا الكلام لأن لهم بالفلسفة إلماما ، قد يكون قليلا ولكنه يمكنهم من فهمها أحياناً . فلما انتقل هذا الكلام من الجامعة إلى الوزارة ثم إلى مجلسى البرلمان ضاقت به الوزارة ، وأعرض عنه مجلس النواب ، وحاول أن يفهمه مجلس الشيوخ .

أما وزير المعارف فقد وجد هذه المعضلة خصبة تمكن من الكلام وهو يحب الكلام ، وتمكن من الفلسفة وهو يكلف بالفلسفة ، وتمكن من الخطابة وهو يتهالك على الخطابة ، وتجعله هو مشكلة من مشاكل الفلسفة ومعضلة من معضلات ما بعد الطبيعة وما وراء المادة . فقبل المعضلة واعتنقها ، وضمها بين ذراعيه ، وما هى إلا أن تمتزج به ويمتزج بها ، ويصبح هو المعضلة ، وتصبح المعضلة هى وزير المعارف ، ويعجز الشيوخ عن فهم الوزير المعضلة أو المعضلة الوزير ! ويجد وزير التقاليد فى أن يفسر نفسه لمجلس الشيوخ فيقول ويقول ، ويطيل ويطيل ، ويردد على الشيوخ المحترمين أن له صفتين : فهو وزير المعارف ورئيس الجامعة ، فيجيبه أحد الأعضاء : ولكنك وزير المعارف فى الحالين . فيقول الوزير : نعم ، ولكن لى صفتين ، فأنا وزير المعارف ورئيس الجامعة . ويقول بعض الأعضاء الآخرين : ولكنك وزير المعارف حين تكون رئيس الجامعة . فيجيب

الوزير : نعم ، ولكن لى صفتين ، فأنا وزير المعارف ، وأنا رئيس الجامعة. ويدور الوزير ، ويدور معه الشيوخ حتى يأخذ جميعا شيء من الدوار المخيف ، فيصيح شيخ من الشيوخ : لست أدرى ما عناية وزير المعارف بهذه القشور ؟

وهى فى حقيقة الأمر قشور منذ خرجت من الجامعة ووصلت إلى الوزارة والبرلمان . فالفكرة الأولى فى هذه المعضلة هى ألا تكون بين الجامعة ومكاتب وزارة المعارف صلة ما ، وأن تكون الصلة بين الجامعة وشخص الوزير .

وقد خطر للجامعة فى يوم من الأيام (فى أيام العز) أن تتخذ للوزير مكتبا فى دارها حتى لا تذهب أعمال الجامعة إلى ديوان الوزارة . فالفكرة كما ترى فكرة عملية ، تقوم على حقيقة واقعة ، وهى أن وزارة المعارف أعجز من أن تفهم المسائل الجامعية ، وأضيق عقلا من أن تصرفها فيجب أن تقطع الصلة بينها وبين الجامعة . ولما كانت الجامعة معهدا من معاهد الدولة ، لابد أن يشرف عليه البرلمان ، والوزراء هم أداة البرلمان فى الإشراف على أعمال الدولة ومصالحها ، فقد جعل وزير المعارف رئيسا أعلى للجامعة يتكلم باسمها فى مجلس الوزراء ، ويتكلم باسمها فى مجلسى البرلمان .

هذه هى الفكرة الأولى ، وهى كما ترى يسيرة سهلة لا غبار عليها ، ولا عسر فيها . ولكنها لم تكد تنتقل من الجامعة حتى عجز غير الجامعيين عن فهمها ، فألغوا معناها واحتفظوا بألفاظها . ورأى وزير التقاليد أن فى هذه الفكرة مجدا وفخرا يميزه من زملائه الوزراء ، ويقربه من رئيس الوزراء ، فهو ذو صفتين وغيره من الوزراء ذو صفة واحدة ! وهو ذو لسانين ، وغيره من الوزراء ذو لسان واحد . ورئيس الوزراء وحده هو الذى يشبهه فى ذلك بأن له صفتين ، فهو وزير ورئيس وزارة ! لذلك حرص وزير التقاليد على هذه الفكرة الجامعية فى ظاهر الأمر ، ولم ينفذها

فى حقيقة الأمر ! وليس أوضح دليلا على ذلك من أن مضبطة مجلس الشيوخ تنص فى صراحة على أن الذى تولى الدفاع عن قوانين الجامعة أمام لجنة المعارف فيه لم يكن جامعيا ، لم يكن مدير الجامعة أصالة . لأن الجامعة لا مدير لها الآن ، ولا نيابة ، لأن مدير الجامعة بالنيابة مشغول عن هذا السخف فى أكبر الظن ، ولا سكرتيرها العام ، لأن سكرتيرها العام كان فى تونة أو فى الغردقة ليزور حفائر الجامعة فى الصعيد ، أو محطة الأحياء المائية على ساحل البحر الأحمر . أو ليفتش على أعمال الأساتذة الجامعيين هنا وهناك .

إنما الذى تولى الدفاع عن قوانين الجامعة هو السكرتير العام لوزارة المعارف الذى ليس بينه وبين الجامعة . ولا ينبغى أن تكون بينه وبين الجامعة صلة ما ، لأنه من أعوان الوزير من إحدى ناحيتيه . لا من هاتين الناحيتين جميعا .

لوزير التقاليد إذن صفتان فى اللفظ . وليس له فى حقيقة الأمر إلا صفة واحدة ، هى أنه عضو فى مجلس الوزراء ، أى وزير المعارف . وأظنك ترانى قد أطلت فى هذا الحديث . ولكنى معذور فى هذه الإطالة ، فقد أطال مجلس الشيوخ ، وأطال وزير التقاليد فى هذه المعضلة . وأقام كلاهما الدليل للمرة الثانية بعد الألف على أن الأمور فى مصر أمور ألفاظ وأشكال أكثر من أى شىء آخر ، فقد وافق مجلس الشيوخ بعد أن وافق مجلس النواب على قانونين من قوانين الجامعة فى غير مشقة ولا جهد إلا فى الألفاظ ، ومع ذلك فقد وقف بعض الشيوخ وقفة لابد من إنصافها حين أبى على وزير المعارف أن ينقل أعضاء هيئة التدريس دون تقيد برأى مجلس الجامعة ، وقد أطال الرجل فى ذلك وألح ، وذهب فى الإطالة والإلحاح مذاهب مختلفة قيمة ، ولكن الأمر كان مقضيا ، فلم يجد الرجل إلا شيخين أو ثلاثة وافقوه على هذا الموقف ، وتم لوزير التقاليد ما أراد من طغيان . فأصبح رأى مجلس الجامعة استشاريا فى نقل الجامعيين ، لأن هذا المجلس الذى يتألف

من عشرين عضوا ، منهم وكيلان من وكلاء الوزارات ، ومنهم خمسة تعينهم الحكومة ، ومنهم أربعة من عمداء الكليات ، وأربعة من وكلائهم ، وأربعة من أساتذة الكليات ذوى الكراسى . هذا المجلس كله لا يمكن أن يؤتمن على مصالح الجامعة ، فلابد من إشراف الوزير عليه ! هذا المجلس كله لا يمكن أن يأمن من محاباة الجامعيين ، فلابد من إشراف الوزير عليه! هذا المجلس كله قاصر محتاج إلى الوصاية ، فلابد من إشراف الوزير عليه!

ولست أنا الذى أقول هذا الكلام ، وإنما هو كلام قيل كله فى مجلس الشيوخ ، وأثبت كله فى مضبطة المجلس ، وسمعه كله مدير الجامعة بالنيابة، وعميد كلية الحقوق ، وأقره كله مجلس الشيوخ ، وسيقبله كله الجامعيون راضين أو كارهين ، بعد أن قبله كله مدير الجامعة بالنيابة صاحب السعادة الدكتور على باشا إبراهيم !

يجب أن يهنأ الجامعيون الذين تكل إليهم مصر تعليمها العالى ، أى نقل الشاب من طور الشباب إلى طور الرجولة واحتمال التبعات . ويقرر فيهم مجلس الشيوخ أنهم عرضة للمحاباة ، فهم محتاجون إلى المراقبة ، وأنهم قصر ضعفاء ، فهم محتاجون إلى الوصاية ، وأى وصاية ؟ وصاية رجل واحد ، هو وزير المعارف ! فيهم أساتذة الطب ، وأساتذة الحقوق ، وأساتذة الآداب ، وأساتذة العلوم . وفيهم موظفون غير جامعيين ، وكلهم يفترض فيه أن يكون مجربا ، قد انتفع بالتجربة ، وكلهم يفترض فيه أن يكون حسن الخلق ، رضى النفس ، نقى الضمير ، شريف السيرة ، ولكنهم على هذا كله ، بل لهذا كله عرضة للمحاباة ، فيجب أن يراقبوا ! وهم على هذا كله قصر فيجب أن يقام عليهم وصى ، وهذا الوصى هو وزير قد يكون عالما ، وقد يكون جاهلا . قد يكون ذكيا ، وقد يكون غبيا . قد يكون مستقيم السيرة ، وقد يكون معوج الحياة ، لأن مصادفات الظروف السياسية هى التى تضعه فى كرسى الوزير .

فالدولة لم تضع بعد قانونا كقانون الجامعة تبين فيه الشروط التى يجب أن تتم لمن يشغل منصب الوزارة ، كما بينت الشروط التى يجب أن تتم لمن يشغل منصب الأستاذ . ووزير التقاليد يعلم حق العلم أنه قد استطاع أن يكون وزيرا ولن يستطيع أن يكون أستاذا فى الجامعة إذا نفذ قانون الجامعة على وجهه ، ومع ذلك فوزير التقاليد الذى لا يستطيع أن يكون أستاذاً فى الجامعة وصى على الجامعيين ! والجامعيون يقبلون هذه الوصاية ، ويبتسم لها اثنان من عمدائهم فى مجلس الشيوخ ! ما أشد تأثير المناصب فى النفوس !

وأجمل من هذا أن وزير التقاليد أراد أن يدافع عن اعتداء الحكومة على الجامعة ، فاستدل بما يحدث فى أوربا ، ولم يفطن مجلس الشيوخ إلى أن الدليل لم يكن للوزير ، وإنما كان عليه .

زعم الوزير أن القانون الفرنسى لا يسمح بنقل أحد من أعضاء هيئة التدريس فى الجامعات إلا بعد أخذ رأى الوزير . فإذا كان هذا حقا فهو الذى يراد لجامعتنا ، لأن رأى الوزير فيه استشارى لا قطعى ، والرأى القاطع للجامعة ، لا للوزير . أما عندنا فقد أقر البرلمان للوزير أن ينقل بعد أخذ رأى مجلس الجامعة . فجعل رأى الجامعة استشاريا ، ورأى الوزير قاطعا على عكس ما هو واقع فى فرنسا بالضبط .

وأكبر الظن أن المجلس لم يفطن إلى هذا التورط الذى اضطر إليه وزير التقاليد وفى صفتيه المعضلتين ! وكذلك تم لوزير المعارف محو استقلال الجامعة حتى فى أشد أعمالها اتصالا بحياتها الداخلية ، فكل عضو من أعضاء هيئة التدريس فى الجامعة خاضع لسلطان الوزير ، أو لسلطان الذين يصرفون الوزير . ويكفى أن يغضب الوزير ، أو أن يغضب المسيطرون على الوزير لينقل الأستاذ من الجامعة إلى حيث تريد له الحكومة . وقد تجرؤ الجامعة على الكلام فتأبى ، ولكن الوزير قادر على ألا يحفل بما تقول الجامعة .

وأجمل من هذا كله وأبدع أن وزير التقاليد أراد أن يدافع عن سلطانه هذا بالمنطق لأنه فيلسوف فتورط فى سخف لم يفطن له مجلس الشيوخ أيضا .

وهل فطن مجلس الشيوخ لكل شيء؟ زعم الوزير أن بعض الأساتذة قد يتهم بالتحريض على الإضراب ويثبت عليه ذلك، أو قد يتهم باذاعة آراء خطرة، ويثبت عليه ذلك. وإذن فيجب أن يترك للوزير الحق فى نقله! ولكن فيم أنشىء مجلس التأديب إذا لم يكن إليه محاكمة الذين يحرضون على الإضراب أو يفسدون آراء الشباب؟ يجب أن نفهم من هذا أن سيكون فى الجامعة منذ اليوم مجلس للتأديب ترفع إليه الأمور الواضحة الجلية التى يقال فيها نعم أو لا، والتى يمكن أن يقام عليها الدليل. وسلطة أخرى هى سلطة الوزير تقضى فيما لا يقوم عليه الدليل، وإنما يسعى به الوشاة والجواسيس. فاذا سئل الوزير عنه تسلح باحدى صفتيه وبأنه مسئول أمام البرلمان وأمام الوطن وأمام الضمير!

والجامعيون يقبلون هذا ويرضونه، ويبتسم له مديرهم بالنيابة، أمام مجلس الشيوخ! ما أكثر ما تحتمل النفوس من الضيم لتتمكن من أكل العيش!

(٣٤)

مسكينة

هى(١) كلية الآداب، وإن شئت فقل هى الجامعة، وإن شئت فقل كل مصلحة من مصالح مصر فى هذا العهد السعيد الذى يشرف على أمورنا فيه وزراء يرعون مصالح البلاد حقا، ويعنون بآمالها ومستقبلها حقا، ولا يبخلون على مرافقها بجهد ولا قوة. ولا يضنون على رقيها من المال بقليل ولا كثير.

مسكينة كلية الآداب فقد قص جناحها حتى لم يبق فيه ريش! وقد ثقلت عليها الأغلال والقيود حتى ما تستطيع حركة! وقد أخذت عليها

---

(١) ٢٢ – ٤ – ١٩٣٣ عدد ١٣٧١

منافذ للضوء والهواء حتى ما تستطيع تنفسا ولا حياة صالحة . ولولا أن مصر لا تعرف اليأس ، وأن الأيام السود مهما يشتد سوادها ، فهى ماضية منقضية مع طلوع الشمس وغروبها ، وأن ما تكره النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال . لولا هذا كله لقلنا للمصريين : أعظم الله أجركم فى كلية الآداب !

لقد أفكر فأطيل التفكير ، وأروى فأنعم فى التروية ، وأؤول فأذهب فى التأويل مذاهب شتى ، ولكنى لا أستطيع أن أفهم هذه الحرب المنكرة التى ما تزال تشب على كلية الآداب من الجامعة ، ومن وزارة المعارف ، ومن الحكومة والبرلمان .

كان فى كلية الآداب رجل كرهته الحكومة وأقصته عنها ، وزعمت أنها بذلك قد خدمت الجامعة ونصحت لها ولكلية الآداب ! فكان من المعقول بعد أن أقصى هذا الرجل عن كلية الآداب وعن الجامعة أن لا تلقى كلية الآداب من الجامعة ومن الحكومة نكرا ولا شرا . وأن لا تصلى كلية الآداب من الجامعة والحكومة نارا ولا عذابا ، ولكن النكر ما يزال يصب على كلية الآداب ، ولكن الحرب ما زالت تشب على كلية الآداب . فماذا جنت هذه الكلية البائسة ؟ وما هذا الحقد الذى يملأ عليها قلوبا ، ويؤجج حولها لهيبا ، ويجعلها غرضا للسهام وهدفا للأحداث ؟ إلى أين تمضى ؟ إلى أمام أم إلى وراء ؟ لقد استكثروا على الجامعة الاستقلال فمحوه وأتوا عليه . أفهم أنهم يستكثرون(١) علينا العلم أيضا ؟ أفهم أنهم يستكثرون علينا حتى الثقافة الخالصة ؟ أفهم أنهم يأبون علينا إلا أن

---

(١) أرسلت وزارة إسماعيل صدقى ثلاثة طلاب إلى أوربا لدراسة فقه اللغة وذلك فى عام ١٩٣٣ وهم : عبد الحليم على محمد النجار من الأزهر ، وابراهيم أحمد من دار العلوم ، وعبد الحميد عبد السلام الدواخلى من كلية الآداب ، بعد إجراء امتحان نجح فيه هؤلاء الطلاب .

نرد إلى الجهل بعد العلم ، وإلى الظلمة بعد النور ؟ أفهم أنهم يأبون أن يحكموا إلا شعبا جاهلا لا يستطيع أن يفهم ، ولا أن يفقه ، ولا أن يقدر ما يراد به . وكيف يبيح المصريون لأنفسهم أن يعينوا على هذا الشر ويغمسوا أيديهم فى هذا الإثم العظيم ؟ لقد أنشئت كلية الآداب واسعة ، شديدة العناية للدرس العلمى ، فلم تكد تنشأ حتى جدت فى توسيع أفقها ، وتعميق الدرس العلمى فيها . وفتح أبواب للثقافة لم تكن قد فتحت فى مصر من قبل . ومضى المصريون معها فى طريقها هذه فرحين مستبشرين ، يدفعهم الأمل إلى أمام ، ويشجعهم الفوز على المضى ، فما بالهم يردونها اليوم عن طريقها ردا عنيفا ؟ وما بالهم يغلقون هذه الأبواب التى كانت مصر تنتظر منها الخير كل الخير ، والتى كانت وحدها سبيلنا إلى أن ندانى الغربيين فيما انتهوا إليه من رقى ، ونستغنى بعد ذلك عن معونتهم لنا ، ونستقل بعد ذلك بأمور التعليم فينا ، ونرفع بعد ذلك أدبنا العربى إلى حيث ينزل منزلة الكرامة بين الآداب . أهذا كله ليس شيئاً إلى جانب خمسة آلاف من الجنيهات تقتصد فى خزانة الجامعة أو فى خزانة الدولة ؟ فما بالهم لا يقتصدون هذا المبلغ من إعانة الأجانب الممثلين والراقصين ؟ أيهما أهون على مصر : إلغاء التمثيل فى الأوبرا أم تعطيل الدراسة فى كلية الآداب ؟ أيهما أهون على البرلمان : أن تغلق دار للرقص والغناء ، أم أن نضيق دارا للعلم والتعليم ؟ وأى علم وأى تعليم ؟ أمس أنواع العلم بقديمنا وحديثنا ، وأشد أنواع التعليم اتصالا بقوميتنا ؟

بين يدى الآن هذا القانون الذى أقره البرلمان ، والذى الحق به ثبت الكراسى التى أقرها القانون فى الجامعة . ويكفى أن تنظر فى هذا الثبت لتحزن وتأسى ، ويكفى أن تنظر فى هذا الثبت لتتكلف جهدا شديدا تنفى به ما يهاجمك من الجزع ويغمرك من اليأس ، حين ترى إساءة المصريين إلى المصريين .

كانت كراسى كلية الآداب أربعة عشر أو خمسة عشر ، فردت فى القانون الجديد إلى تسعة . وهل تدرى أى الكراسى ألغى ؟ كرسى فقه

اللغة العربية ، فستدرس إذن آداب اللغة العربية في كلية الآداب دون أن تدرس فيها اللغة وفقهها . وألغى كرسى اللغات السامية فستصبح إذن دراسة اللغات السامية فى كلية الآداب دراسة ثانوية إضافية ، وستصبح تكميلا بعد أن كانت أساسا ، وستصبح فرعا بعد أن كانت أصلا ، وستظل لغتنا مجهولة فى كلية الآداب كما هى مجهولة فى غيرها من معاهد العلم ، وسيظل علمنا باللغات السامية محدودا فى كلية الآداب ، كماهو محدود فى دار العلوم . وستظل قوميتنا العربية ناقصة أبشع النقص من هذه الناحية ، وسنظل عيالا على المستشرقين الأوربيين كما كنا من قبل فى لغتنا العربية ولغاتنا السامية الأخرى .

وألغى كرسيان من كراسى التاريخ ، فلم يبق لهذا العلم إلا كرسى واحد ، يكون مرة للتاريخ القديم كما هو الآن ، وأخرى للتاريخ الحديث ، وثالثة لتاريخ القرون الوسطى . وسيعود درس التاريخ فى كلية الآداب مشوها ممسوخا سطحيا كما كان فى مدرسة المعلمين .

وألغى كرسى الدراسات اليونانية واللاتينية ، وأصبحت دراسة هاتين اللغتين صورة من الصور ، وشكلا من الأشكال ، ومظهرا من المظاهر ، يخدع الأبصار ، ولا يدل على شىء . وسيظل المتحف المصرى محتاجا دائما إلى الأجانب يدرسون فيه الآثار اليونانية والرومانية . وسيظل تاريخنا فى أيام اليونان والرومان ، وفى أول العصر الإسلامى مقصورا دائما على الأجانب ، يدرسونه ويؤلفون فيه ، وسنظل عيالا على الأجانب فى هذا كله ، وسيظل علمنا بالآداب الأوربية الحديثة محدودا مقصورا على الظواهر والقشور ، لأن حكومتنا أرادت أن تقتصد ألف جنيه فى كل عام .

ألغيت هذه الكراسى كلها من كلية الآداب فى القانون الجديد ، ولابد من أن يعدل نظام الدروس وبرنامجه تعديلا يلائم هذا الإلغاء ، ولا بد من أن يهدم هذا البناء الذى أقامته مصر فتعبت فى إقامته ، والذى بدأ

يؤتى ثماره طيبة ناضجة ، ولا بد من أن ترد كلية الآداب مدرسة كغيرها من المدارس التى ألفتها وزارة المعارف ، والتى يستطيع الانجليز أن يرضوا عنها دون غيرها . ولقد يكون من الحق على أن أسجل أن هذا الإلغاء ليس أمراً طارئا فى هذه الأيام ، وإنما هو أمر دبر منذ عهد بعيد ؛ وكانت لى فيه مشادات مع جماعة من كبار الموظفين ، لا أحب أن أذكرهم الآن . وكانت لأستاذنا الجليل لطفى السيد بك فيه مواقف مع هؤلاء الموظفين ، ولكنى كنت أعتقد أن خروج الأستاذ لطفى من الجامعة ، وخروجى من كلية الآداب سيردان الأمر إلى نصابه ، وسيصرفان الشر عن هذه الكلية البائسة . وكنت أظن أن محاولة العبث بهذه الكراسى قد كان فنا من فنون سياسة الاحراج تلك التى كان يراد بها اضطرار مدير الجامعة السابق وعميد كلية الآداب إلى الاعتزال ، فإذا الأمر أشد من هذا كله خطراً . وإذا الأمر مكر بالتعليم العالى فى مصر ، وإذا الأمر كيد قد دبر لكلية الآداب من الذين يعجزون عن أن يفهموا كلية الآداب ، ومن الذين يشفقون من تأثير كلية الآداب فى تكوين الشباب وإذاعة الثقافة العالية فيه .

على أنى إن لمت فى ذلك أحدا فلن ألوم وزير التقاليد ، ولا رجال وزارته ، فهم أعجز من أن يفهموا كلية الآداب ما هى ، وكيف تكون ! ولا ألوم الانجليز فهم أمهر من أن يدعوا فى مصر كلية الآداب تفتح للشباب أبواب الأمل وتسلك بالشباب طريق الحرية والاستقلال . وإنما ألوم الجامعيين الذين يدعون الحكومة تقص أجنحتهم بعد ما نبت فيها الريش ونما دون أن يبصروها بمواضع الخطر فى هذا الأمر . كيف يستبيح الجامعيون لأنفسهم أن يروا كلية من كليات الجامعة يمر بها هذا المنكر ، ويكاد لها الكيد ، فينظروا ثم لا يقولوا ؟ أترضى كلية الطب بأن الحكومة لم تبخل عليها بما أرادت من الكراسى فمنحتها منها ما شاءت ، وكلية الآداب يلغى(١) ثلث كراسيها إلغاء ؟ أترضى كلية الحقوق بأن

(١) لقد عاش طه حسين حتى رأى الكراسى تلغى كلها لأنها عقبة فى طريق ترقية المدرسين .

الحكومة قد منحتها ما أحبت من الكراسى فجعلت منها ستة عشر كرسيا ، منها أربعة للقانون المدنى . وثلاثة للاقتصاد السياسى ، ولم تجعل فى كلية الآداب إلا تسعة من أربعة عشر ، بينها كرسى واحد للغة العربية ، وكرسى واحد للتاريخ .

أترضى كلية العلوم أن يكون فيها كرسيان للكيمياء . وفى كلية الآداب كرسى واحد للغة العربية ؟ وأن يكون فيها كرسيان للرياضة ، وفى كلية الآداب كرسى واحد للغة العربية ؟ وأن يكون فيها ثلاثة كراسى لعلم الحيوان . وفى كلية الآداب كرسى واحد للغة العربية وكرسى واحد للتاريخ ؟ أين التضامن الجامعى ؟ ! أيجب علينا أن نسجل أن هذا العهد السعيد قد محا التضامن الجامعى . فاكتفت كل واحدة من الكليات بما أصابت من الكراسى وتركت كلية الآداب للحكومة تضطهدها كما تشاء ؟ أيجب أن نسجل أن الجامعة قد فقدت تضامنها فتركت كلية الآداب نهبا للعابثين ؟ كما أن الصحافة قد فقدت تضامنها فخلت بين توفيق دياب وبين ما يلقى من معاملة اللصوص وقطاع الطريق ؟ ولكن لكلية الآداب حاميا هو فوق الحماة ، وكافيا هو فوق الكفاة ، أنشأها وتعهدها برعايته السامية فمن الذى يبلغ جلالة الملك أن كليته تلقى فى الجامعة ألوان الضيم ؟

(٣٥)

تنبيه

لا أعرف(١) شعبا كهذا الشعب المصرى يلقى أشد ما تلقى الشعوب من عناء ، ويبذل أقصى ما تبذل الشعوب من جهد ، ويحتمل أثقل ما تحتمل الشعوب من أعباء مبتسما لهذا كله ، راضيا بهذا كله ، مخلصا

---

(١) ٢٣ — ٤ — ١٩٣٣ عدد ٢٣٧٢

فى هذا كله . ثم هو بعد ذلك لا يكافأ على ما يلقى ويبذل ويحتمل إلا بالعقوق والجحود ، وإلا بالاستهانة والازدراء !

يهبط الأجنبى إلى مصر فقيرا معوزا ، فما هى إلا أن يغنى بعد فقر ، ويثرى بعد عوز . ويهبط الأجنبى إلى مصر غنيا موسرا فما هى إلا أن تضاعف ثروته ، ويعظم حظه من اليسار . ويهبط الأجنبى إلى مصر جاهلا فما هى إلا أن يصبح عالما ، أو عالما فما هى إلا أن يصبح من كبار العلماء وأفذاذهم .

قلما ينزل أجنبى أرض مصر فتضيق به سبل الحياة ، أو تغلق دونه أبواب الرجاء ، أو ترده مصر عنها قانطا خائب الأمل . والمصرى يبذل ما يستطيع وما لا يستطيع ليغنى الأجنبى بعد فقر ، ويؤمنه بعد خوف ، ويرضيه بعد سخط ، ثم هو لا يجد من الأجنبى إلا عقوقا وجحودا ، وإلا ازدراء وامتهانا .

هذا الأجنبى يضيق بمصر لأن جوها يؤذيه فى الصيف ، وإن استمتع به فى الشتاء . وهذا الأجنبى يضيق بمصر لأن حاجتها إلى الجمال الصناعى والزينة المتكلفة والعناية بأمور الصحة ما زالت شديدة ماسة ، وإن كان قد استأثر فيها بالخير ، وإن كان قد استبد فيها بادارة الأموال والأعمال ، وإن كان قد أشرف فيها على تدبير كل شىء ، فعليه التبعة فيما يشكو منه قبل أن تكون على أى أحد آخر من الناس . وهذا الأجنبى يضيق بجهل مصر وإن كان قد دعى إلى أن ينهض فيها بأمور التعليم ، ومنح على ذلك أجرا لم يكن يحلم ببعضه فى بلاده . فلما هبط إلى مصر لم يخلص فى عمله ، ولم يبذل للمصريين من علمه القليل أو الكثير إلا بمقدار ، ولم يكف فى لحظة من اللحظات عن التفكير فى أن بذل العلم للمصريين خطر ، لأنه يزيل عنهم الجهل ، ويكشف عنهم الظلمة ويجعلهم مثله ، وقد يغنيهم عنه ، وقد يدفعهم إلى أن يضيقوا به ويشعروا بما يتعمد من إهمال وتقصير .

وابحث عن حياة الأجنبي فى مصر من أى ناحية من أنحائها ، وفى أى سبيل من سبلها فستراها قائمة دائما على هذه القاعدة . خذ من المصريين أكثر ما تستطيع ، وأعظم ما تستطيع . أظهر للمصريين مودة وعطفا واضمر لهم ازدراء واستخفافا : حتى إذا انقطعت حاجتك إليهم فأظهر لهم ماكنت تضمر ، وأبن لهم عماكنت تخفى ! وكذلك تلقى الأجنبى فى مصر فتحس منه ظرفا ومودة وإيناسا ، ثم تنقطع الصلة بينك وبين هذا الأجنبى وتسنح له فرصة الحديث عنك فلن يقول إلا شراً ... !

كذلك حال مصر مع الأجنبى ، وليست حال مصر مع بعض المصريين بخير من حالها مع الأجانب . يظهر المصرى شيئاً من الكفاية والقدرة ، فما أسرع ما تفتن به مصر ، وما أسرع ما تحوطه بألوان العناية والرعاية وضروب التشجيع والتأييد حتى يصبح رجلا ذا خطر ، وينزل منزلة اجتماعية ظاهرة ممتازة ، وإذا هو ينسى الذين رعوه وعنوا به ، والذين أيدوه وشجعوه ، والذين رفعوه إلى مكانته الظاهرة ، وأنزلوه منزلته الممتازة ، وإذا هو يفكر فى نفسه قبل أن يفكر فيهم ، ويعنى بنفسه قبل أن يعنى بهم ، ويصبح أثرا من الطراز الأول ، لا يعرف إلا نفسه ، ولا يعمل إلا لنفسه ، ولا ينظر إلى الشعب إلا على أنه وسيلة تنبه الخامل وترفع الوضيع ، وتوصل الناس إلى ما يبتغون من المنافع والمآرب والآمال . وإذا هو لا يتحرج إن أتيح له شىء من السلطان من أن يتخذ السلطان وسيلة إلى المنفعة وإن اضطره ذلك إلى العقوق والجحود وإذلال الشعب الذى رفعه بعد ضعة ، ونبه من شأنه بعد خمول .

وتستطيع أن تبحث عن حياة كثيرين جدا من كبار الموظفين فسترى أنها تقوم على هذه القاعدة : خادع الشعب ما احتجت إلى خداعه ، فإذا بلغت غايتك ، وحققت أملك ، فأفد لنفسك ما تستطيع من منفعة ، وحقق لنفسك ما تستطيع من مأرب ، واحذر أن يقوم وفاؤك للشعب عقبة بينك وبين شىء مما تريد . . ! !

وهذه وزارات لم يكن أعضاؤها شيئاً قبل أن تلقى إليهم أعنة الحكم وأزمته ، فما هى إلا أن يختلف أعضاؤها إلى مكاتبهم ودواوينهم حتى ينسوا ماضيهم القريب ومستقبلهم المحتوم ، ويلهيهم المنصب عن كل شىء إلا لذة المنصب والجاه والسلطان . وإذا هم ينعمون بهذه اللذة ، ويتهالكون عليها ، ويضحون فى سبيلها بأشياء كثيرة أيسرها منافع هذا الشعب الذى إنما رفعهم إلى مناصب الوزارة ليكونوا له خداما ، لا أكثر ولا أقل .

وكذلك يريد الله لهذا الشعب الهادىء الوادع فى نشاط وقوة أن يكون ألعوبة للذين يحسن إليهم ، ويسدى إليهم الصنيعة والمعروف . وهو يحس هذا العقوق أحيانا فينكره ويضيق به ، ثم لا يلبث أن ينساه ويعرض عنه ، وهو حين ينكر رفيق فى الإنكار ، وهو حين يضيق متسامح فى الضيق ، فلا يحفل بانكاره ولا بضيقه هؤلاء الذين يعقونه ويجحدون فضله ، ويجزون إحسانه إليهم بالإساءة إليه . وهو حين ينسى مغرق فى النسيان ، قلما يتذكر ، وقلما يتفكر . ويستغل خصومه قصر ذاكرته ، وسعة مغفرته فيغلون فى الاساءة إليه ، ويغرقون فى إزدرائه وإهماله والانصراف عن التفكير فيه .

بهذا وحده تستطيع أن تفسر هذه الحياة المنكرة التى نحياها ، والتى يسعى إلينا الشر فيها من كل سبيل ، وتهجم علينا الكوارث فيها من كل وجه . فلو أن الذين إليهم أمورنا السياسية يقدرون أنهم حين نهضوا بأمورنا السياسية لم ينهضوا بها لأنفسهم ، وإنما نهضوا بها للشعب وأنهم بحكم مناصبهم ومكانتهم ليسوا سادتنا وإنما هم خدامنا . وإنهم بحكم مناصبهم ومكانتهم لا ينبغى أن يستذلونا ، ولا أن يستغلونا ، وإنما ينبغى أن يستذلوا أنفسهم لمصلحة أمتهم ، وأن يستغلوا جهودهم لمنفعة بلادهم .

لو أن الذين إليهم أمور سياستنا يقدرون هذا لما طغى منهم طاغ ، ولا بغى منهم باغ ، ولما أهدرت حقوق ، وامتهنت كرامات ، ولقيت الحرية ما تلقى فى هذه الأيام . ولو أن ذاكرة الشعب لم تكن قصيرة ،

ولو أن تسامح الشعب لم يكن مسرفا ، لاضطر هؤلاء الساسة أن يفكروا فى الشعب ، ويحسبوا له حسابا ، فيردوا نفوسهم عن شهواتها ، ويضطروها إلى القصد والعدل والإنصاف والاعتراف بالجميل .

ولو أن الأجانب الذين يفدون إلى مصر يقدرون حقهم وواجبهم فى مصر كما يقدرونهما فى بلادهم ، ويستمعون لضمائرهم فى مصر كما يستمعون لضمائرهم فى بلادهم ، لما لقيت منهم مصر ما تلقى من هذه المودة الظاهرة ، والعقوق الخفى . ولو أن مصر لم تكن مغرقة فى التسامح ، ولا مسرفة فى النسيان ، ولا غالية فى التهاون بحقها وكرامتها ، لما طمع فيها الأجنبى ، ولا وجد إلى خداعها والمكر بها سبيلا .

ولو أن مصر إذا جاعت أمضها الجوع ، ولو أن مصر إذا ظمئت أضناها الظمأ ، لما كانت فيها هذه الحوادث التى أخذت الأزمة الاقتصادية تحدثها ، والتى أخذت تبدو الآن يسيرة ولكنها على ذلك مروعة مخيفة ، تنذر بشر لا يعلم نتائجه المنكرة إلا الله .

هذه الأمراض الخطرة للجوع والبؤس قد أخذت تظهر فى القاهرة بشكل مفزع مخيف . هذه حمى التيفوس تسعى بين الفقراء المعدمين بشرها ونكرها . وهؤلاء الفقراء المعدمون يسعون بهذه الحمى فيحملونها إلى أطبائهم فى القصر العينى(١) ليردوا عنهم شرها ، فإذا الشر أقوى من الأطباء، وإذا الأطباء أنفسهم يسقطون فى شباك هذه الحمى وينقلون إلى المستشفى مع مرضاهم ، وإذا طلاب كلية الطب لا يخلصون من هذه الحمى فيسقطون فى شباكها أيضاً .

هذا هو المرض يغزو قلعة الطب ويضطرها إلى الدفاع ، وكان يجب أن تكون هذه القلعة هى التى ترسل جيوشها إلى أحياء الفقراء والمعدمين

---

(١) الصواب : قصر العينى

لتكافح فيها الشر والضر ، وترد عنها جيوش الأوبئة والأمراض ، ولكن أين السبيل إلى ذلك ، والذين إليهم تدبير ثروة الشعب لايفكرون فى الشعب؟ أين السبيل إلى ذلك والذين إليهم حماية صحة الشعب لا يفكرون فى الشعب ؟ وإنما يفكر أولئك وهؤلاء فى مناصبهم أولا ، ثم فى تمكنهم من هذه المناصب ثانياً ، ثم فى استمتاعهم بلذات هذه المناصب وجاهها ، ثم فى الشعب بعد هذا وهذا وذاك .

كيف السبيل إلى ذلك والمصرى قد تعود أن يجوع فيحتمل الجوع ، وأن يظمأ فيحتمل الظمأ ، وأن يعدم فيألف الإعدام . تقصير من أولى الأمر فى ذات الشعب ، وتقصير من الشعب فى ذات نفسه . والحمى تستفيد من تقصير أولى الأمر ، ومن تقصير الشعب فتفتك بالفقراء ، وتغزو الأطباء ، كما يستفيد الأجنبى من تقصير أولى الأمر فى ذات الشعب ، ومن تقصير الشعب فى ذات نفسه فيعبث بحقوق الشعب وحرياته وثروته ومقومات حياته الوطنية كلها ويسخر بعد ذلك من المصريين جميعاً ... !

فكرت فى هذا كله حين قرأت فى الصحف صباح اليوم أن رئيس الوزراء المريض قد حدد موعد سفره للاستشفاء ، فسيسافر فى منتصف الشهر المقبل ، فيقضى فى أوربا أربعة أشهر أو نحوها . ومن قبل ذلك مرض رئيس الوزراء شهرين لم يعمل فيهما شيئا . وبين مرض الرئيس وسفره أخذ يختلف متباطئا متثاقلا بحكم المرض إلى ديوانه فلا يكاد يعمل شيئا . ومن قبل هذا كله أقام فى أوربا ثلاثة أشهر أو نحوها مستشفيا متروضا ، وهو فى أثناء هذا كله يحتفظ برياسة الوزارة ، ويقبض مرتب رياسة الوزارة ، ويعطل مصالح البلاد لأنه مسافر يتروض ، أو لأنه مريض ، أو لأنه فى دور النقاهة ، أو لأنه مسافر يستشفى .

لو قدر رئيس الوزراء حق بلاده عليه لما أذن لنفسه أن يحتفظ بمنصبه هذا وهو عاجز عن النهوض به . ولو قدر المصريون حقهم على أنفسهم لما قبلوا من رئيس وزارتهم أن يحتكر رياسة الوزراء ، ولا يعمل فيها

إلا ثلاثة أشهر أو أربعة فى سنة كاملة ، ولكن مصدر الشر كله فى مصر أن الشعب متسامح ، مسرف فى التسامح ، وأن حكام الشعب يغلون فى استغلال هذا التسامح فلا يحفلون بالشعب ، ولا يلتفتون إليه . . !!

متى يتنبه الشعب إلى حقه ، فيجد فى المطالبة به والحرص عليه ؟ ومتى تتنبه ضمائر الحكام فتردع أصحابها عما يتورطون فيه من اعتداء وإهمال؟!!

(٣٦)

أحاديث

إذا أعسرت الحكومة والشعب(١) موسر كانت عاجزة وإذا أيسرت الحكومة والشعب معسر كانت طاغية . وإنما يصلح أمر الحكومة ويعتدل بين العجز والطغيان حين تكون الملاءمة بين ثروة الحكومة وثروة الشعب. وكل ما يمكن أن يطلب إلى الحكومات فى أيام العسر والأزمة هو أن تدبر أموالها وتحسن التدبير حتى لا يخنقها الضيق ولا يضطرها العسر إلى الإفلاس .

والظاهر أن حكومتنا تكره العجز ، ولا تحب الفقر . والظاهر أيضا أنها تكره الملاءمة بين حياتها وبين حياة الشعب . وقد رأت الشعب فقيرا فأبت إلا أن تكون غنية ، ورأته معسرا فأبت إلا أن تكون موسرة . ورأته مضطرا إلى الجوع والحرمان فأبت إلا أن تصيب من الترف ما يباح وما لا يباح ، حتى إذا انتهى العام المالى أو كاد ، أعلنت إلى الشعب فى شىء من التحدى والازدراء أنها على إترافها وإسرافها قد استطاعت أن توفر ثلاثة ملايين ونصف مليون ، بينما كثير من الناس يتلظون جوعا ، ويصلون نار المتربة والحرمان . ولم يكد الناس يقرأون ما نشرته الصحف أمس من

---

(١) ٢٤ – ٤ – ١٩٣٣ ، عدد ٢٣٧٣

أن حساب الدولة قد أظهر أن دخلها قد زاد على خرجها هذه الملايين حتى

أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، وإذن ففيم كان الإرهاق للشعب ؟ وفيم كان التضييق على مرافق الدولة التى لابد من التوسعة عليها ؟ وفيم كانت هذه الجهود التى بذلت عند المصارف ؟ وفيم كانت هذه الاتفاقات التى أبرمت مع المصارف ؟ وفيم كان هذا القرض الذى عقد لكف أيدى المصارف عن الناس ؟ وفيم الاستمرار على جباية طائفة من الضرائب يشكو الناس منها ويضيقون بها ، ويلحون فى أن يرفع عنهم شرها ، ويكشف عنهم ضرها ؟ وفيم تشريد الطلاب والتلاميذ حين يعجز آباؤهم وأولياؤهم عن أداء المصروفات أو جزء من المصروفات ؟ وفيم رفع المصروفات فى كلية الطب وتقاضى مازيد فيها من طلاب السنة الثانية التى كان يجب إعفاؤهم من هذا المزيد ؟ وفيم إلغاء ثلث الكراسى فى كلية الآداب ؟ وفيم إثبات هذه القاعدة المخزية فى ميزانية الجامعة ، وهى أن بعض الكراسى التى يشغلها الأجانب تنحل إلى مناصب أساتذة مساعدين إذا شغلها المصريون ؟ ثم فيم التضييق على الموظفين أو بعبارة أدق على بعض الموظفين هؤلاء الذين توقفت حقوقهم فى العلاوات والترقيات رغبة فى الاقتصاد ، وإشفاقا على خزانة الدولة من العسر ، بل من الإفلاس ، ثم لا يمن الله عليهم باستثناء من هذه الاستثناءات التى تسقط على بعض الموظفين الآخرين ، كما يسقط الندى على أزهار الربيع .

أقبل الناس بعضهم على بعض يتساءلون : فيم هذا كله إذا كانت خزانة الدولة مكتظة بالمال إلى هذا الحد ؟ وأقبل بعضهم على بعض يتحدثون أيضا بأن من الفلاحين من يبيع ماشيته ليؤدى المصروفات عن أبنائه ، وبأن من الفلاحين من بيعت حتى آنيتهم اليسيرة لأداء الضرائب ، وبأن من الفلاحين من عبثت بأجسامهم السياط فمزقتها تمزيقا ، ومن عبثت بقلوبهم اللوعة فحرقتها تحريقا ، وبأن من الفلاحين من شد بعضهم إلى بعض فى حبل وسيقوا إلى مركز الشرطة ، تلهب جلودهم السياط إن تلكأوا وأبطأوا ، وبأن من أهل المدن من تضيق بهم الحال ، وتنقطع بهم أسباب العيش

حتى إنهم ليقضون بياض النهار، وسواد الليل لا يجدون ما يأكلون ، ولا يجدون ما يلهون به صغارهم عن ألم الجوع . وبأن هذا الحرمان المنكر قد أخذ يعبث بالناس فى بعض أحياء القاهرة حتى ظهر فيها التيفوس ، وحتى هجم هذا التيفوس على مستشفى القصر العينى وكلية الطب فأصاب فريقا من الأطباء ، ونفرا من الطلاب والطالبات ، وبأن كثيرا من الأغنياء الذين لم يعرفوا البؤس قد ذاقوا مرارته ، وتجرعوها واحتملوا ألوانا من الذل فى الاقتراض ، يلتمسون فى هذا المصرف فيأباه ، ويلتمسونه فى ذلك المصرف فيردهم خائبين . وما تعودوا قط أن يسألوا ، وما تعودوا قط أن يذوقوا ألم الرد والاعتذار .

أقبل الناس بعضهم على بعض يتساءلون : فيم هذا كله إذا كانت خزانة الدولة غنية هذا الغنى ، مثرية هذا الإثراء ، موفورة الحظ ، لا من الألوف ، ولا من مئات الألوف ، بل من الملايين ... ! وأخذ بعضهم يجيب بعضا بطائفة من الأجوبة لايسر الحكومة أن تعرفها لو أن الحكومة تشعر بما يشعر به الشعب من ألم ، ولو أن الحكومة تجد ما يجد الشعب من أذى ، ولو أن الحكومة تحسب لما يدور فى نفس الشعب حسابا .

قال بعضهم إن الانجليز تعصرهم الأزمة ، وهم يعصرون الحكومة المصرية كما قالت الأهرام منذ أسابيع . والحكومة مضطرة أن تعصر الشعب ، فما تستصفيه من هذه البقرة الحلوب التى تسمى مصر ، يستصفيه منها الانجليز فيما يريدون أن ينهضوا به من الأعمال فى السودان ، وفى الحبشة .. !

وقال بعضهم إن ذاكرة المصريين قصيرة ، فهم قد نسوا أن الصحف الانجليزية فى الصيف الماضى ، وفى الخريف الماضى تحدثت فأطالت الحديث عن وزير الأشغال السابق ، وعن بعض المقاولين ، وعن مشروعات هائلة للرى وغير الرى ستنفق فيها الملايين والملايين . فلم يكن بد إذن من أن تهيأ الأموال وتدخر حتى إذا تهيأ الانجليز للأخذ فى هذه المشروعات كانت الأموال مهيأة مرصدة ، فانتفعت الشركات الانجليزية واندفعت

إلى الانتفاع ، ووجدت منها الوزارة المصرية فى بلاد الانجليز أعوانا لها على البقاء فى مناصب الحكم !

وقال بعضهم الآخر : ليس المصرى قصير الذاكرة فحسب ، ولكنه سريع الانخداع ، تعبث به الألفاظ وتستهويه الوعود ، فيصدق ما لا يجب تصديقه ، ويؤمن بما لا يجب الإيمان به . زعموا أن طرائق الحكم فى هذا العصر الحديث قد تغيرت فأصبح الشعب لا يستغل ولا يستذل ، ولا يسخر لمنفعة سادته ومواليه ، وإنما تدبر أموره لنفسه ، وتجبى منه أمواله لترد عليه — ورأى المصرى هذا واقعا فى البلاد الأوربية ، وسمع أن بلده قد أصبح جزءاً من أوربا فانخدع وظن أن أموره ستجرى كما تجرى أمور الأوربيين ، وأن وزارته قد قامت لتخدمه ، لا لتظلمه ، وأن أمواله تجبى منه لتنفق عليه ، وترد عنه السوء إن تورط فيه ، حتى إذا كانت هذه الأيام السود ، نظر إلى الوزارة فإذا هى تقطب له الجبين . ودعا الوزارة فإذا هى تضع الأصابع فى الآذان ، وألح على الوزارة فإذا هى تعلن الفقر ، وتعلن الإعدام ، وتلح فى إعلانهما ! ثم لم تكتف الوزارة بالتقطيب له والإعراض عنه ، والإباء عليه ، بل أقبلت عليه تستعينه على أزمتها ، وتلتمس منه أن يكشف عنها ضر الفقر والإعدام ، فلما عجز عن ذلك كذبته وعذبته ، واضطرته إلى أن يكون عندما تريد ! وقد احتمل التكذيب ، وخضع للتعذيب ، وأدى من راحته وأمنه ودمه ما طلب منه ، ثم نظر فإذا هو بائس ، وإذا الحكومة ناعمة ، وإذا هو معسر والحكومة موسرة ، وإذا هو يلتمس القرش وبعض القرش إن كان فقيرا فلا يجده ، ويلتمس الجنيه أو بعض الجنيه إن كان غنيا فلا يظفر به ، وإذا الحكومة قد وفرت ثلاثة ملايين ونصف مليون فى أقل من عام ... !

ظن المصرى المخدوع أنه يحكم لنفسه ، فإذا هو يحكم لغيره ! واعتقد المصرى المغرور أن الوزارات قدقامت لتخدمه ، فاذا هى قد قامت لتهضمه ! وآمن المصرى الغافل بأن طرائق الحكم قد تغيرت ، وبأنه قد

أصبح سيدا راشدا مالكا لأمره، فاذا طرائق الحكم هى هى كما كانت فى العصور القديمة ، تغيرت أشكالها ولم تتغير حقائقها ، وإذا هو كما كان فى العصور القديمة مسود قاصر، لا يملك لنفسه نفعا ، ولا يدفع عن نفسه ضرا . وإنما أموره كلها إلى سادته المعصومين ، الذين يقضون فى أمره وفى أمواله كما يريدون ، لا كما يريد !

تحدث الناس بعضهم إلى بعض بهذه الأحاديث المرة التى تتقطع لها القلوب ؛ وتتصدع لها الأفئدة ، وتذوب لها النفوس . وزاد أحاديثهم مرارة ، وآلامهم لذعا أن الوزارة تفاخر بهذا الاقتصاد ، وأن صحيفة الحكومة تتمدح بهذه الثروة الحكومية ، والشعب معسر معوز معدم ، تلفحه الفاقة ، ويحرقه الجوع . وأصبح الناس اليوم وسيمسى الناس اليوم، وسيصبحون غدا ويمسون ، وفى مصر صوتان يسمعهما الشعب : صوت ينكر غنى الحكومة وبؤس الأمة ، وصوت يحمد غنى الحكومة ويراه مفخرة لرئيس الوزراء . وهذان الصوتان يقعان من نفس الشعب مواقع مختلفة ، ولكنها كلها تنتهى إلى نتيجة واحدة ، وهى إحساس الشعب بأنه بائس تعس ، مستغل مستذل ، يرثى له قوم ، ويسخر منه قوم آخرون ! ونتيجة هذا الاحساس المؤلم الذى يجده الشعب ، والذى يتغلغل فى طبقات الشعب كلها سيئة منكرة ، يعرفها رئيس الوزراء ، ويقدرها إذا خلا إلى نفسه ، ولكنه لا يريد أن ينزل عندما تقتضيه من المواقف وعندما تدعو إليه من الاستقالة والتنحى عن الحكم لقوم آخرين هم أرفق بالشعب وأعطف عليه ، وأرحم له من أن يدعوه فى هذا البؤس والعسر والفاقة ، بينما تقتصد الحكومة ثلاثة ملايين ونصف مليون . . . !

كل شىء فى مصر الآن مؤلم محرج ، يثير حفيظة الشعب ، ويملأ قلبه مرارة وحزنا . حكومته غنية وهو فقير ، حكومته مترفة وهو بائس ، حكومته مسرفة وهو لا يجد ما ينفق . ثم يفكر الشعب فيرى رئيس وزرائه يستمتع بما لا يستمتع به المصرى العادى ، يعمل أشهرا ويقتضى أجر سنة ! ومع ذلك فبين المصريين من يعملون ويجدون ثم

لا يقتضون شيئاً ! وبين المصريين من يصيبهم المرض فإذا ظهر أنه مانع من العمل أبعدوا عن أعمالهم ، وإذا ظهر أن علاجه قد يطول انقصت أجورهم ، فما بال رئيس الوزراء لا يكون كغيره من الناس ؟ ما باله لا يعتزل العمل إن كان مرضه لا يمكنه من المضى فيه ؟ وما بال أجره لا ينقص كأجر غيره من الموظفين إن كان علاجه يحتاج إلى زمن طويل ؟ وما بال مصالح الدولة كلها توكل إلى من لا يستطيع أن ينهض بها أو يقوم عليها ؟

الله يشهد ما نحب لرئيس الوزراء إلا أن يكون كغيره من الناس فى كل شىء ، فى نعائج الصحة ، وفى نتائج المرض ، وفى نتائج القدرة وفى نتائج العجز .

كل شىء مؤلم ممض فى مصر الآن ، حكومة غنية ، وشعب بائس . رئيس وزارة يمتاز فى مرضه من بقية الناس ، بل من بقية رؤساء الوزارات ، وموظفون فى الدواوين يوكل بكل منهم الخادم والخادمان . والمصريون خارج الحكومة يجدون ويجهدون ، ويحتملون ألوان المكروه لعلهم يعيشون فتضيق بهم الحياة ، وتتقطع بهم الأسباب ، وتفتح أمامهم أبواب من اليأس فإذا نظروا منها رأوا من الآثام والسيئات ما لا نحب أن نتحدث عنه أو أن نفكر فيه . . . !!

(٣٧)

أنباء

يجب(١) أن يعترف خصوم رئيس الوزراء وأصدقاؤه بأنه رجل جلد ، طويل الجلد ، صبور طويل الصبر ، لا يعنيه يأس ولا أمل

(١) ٢٥ – ٤ – ١٩٣٣ ، عدد ٢٣٧٤

ولا يؤثر فى نفسه قنوط ولا رجاء . وإنما هو الحكم والحكم وحده ، قد أراده فظفر به حتى إذا استقر فيه أقسم ليتعلقن به ما قدرت يده على أن تمسك الأزمة ، وتقبض على الأعنة . فمهما تنحت عليه الدواعى إلى الاستقالة فلن يسمع لها . ومهما تنح عليه البواعث على الاعتزال فلن يحتفل بها !

وقد بر بقسمه فهو قائم فى مكانه لا يبرح ، يفسد كل شيء من حوله فى مصر فلا يحفل ، وينعكس عليه كل شيء فى انجلترا فلا يؤبه . وتأتيه النذر من كل مكان وكأن شيئاً لم يأته ، وكأن نذيرا لم يصل إليه ! لم يكد يستقر فى الحكم حتى حاول المفاوضات فقيل له حتى تمنحك الأمة ثقتها ، وتنصبك معربا عنها ، متحدثا بلسانها .

واجتهد فى أن يظفر بهذه الثقة فلم يجد إليها سبيلا ! فكانت قصة الانتخاب وما أدراك ما قصة الانتخاب ، حتى إذا تهيأت الأسباب واجتمع الشيوخ والنواب ، سعى الرجل إلى المفاوضة ، فأخذ الانجليز يرجئونه من شهر إلى شهر ، ومن عام إلى عام حتى إذا أسرف فى الالحاح ، وأغرق فى الإلحاف ، أرجأوه إلى أجل غير مسمى ، وهم يعتذرون بكثرة العمل عندهم حينا ، وبسوء الحال عندنا حينا آخر . وهم يبينون له فى كل حال وهو يفهم عنهم وكأنه لا يفهم(١) أن ليس إلى المفاوضة معه من سبيل ، لأنه لا يمثل مصر ، ولا يستطيع أن يتحدث عنها ، ولا يستطيع أن يلتزمها إذا التزم ، ولا يستطيع أن يأخذها بتنفيذ ما يقبل من معاهدة ، وإبرام ما يمضى من اتفاق ، ولكن رئيس الوزراء ذكى ماهر ، يفهم وكأنه لم يفهم ، ويسمع وكأنه لم يسمع ! فالإنجليز يرفضون وهو يطلب

---

(١) صرح صدقى باشا لمكاتب صحيفة التيمس البريطانية بأنه سينتهز أقرب فرصة لاستئناف المفاوضات — الأهرام فى ١٥ — ٧ — ١٩٣٠ ، وألح فى ذلك طوال مدة حكمه . وعين حافظ عفيفى باشا وزيرا مفوضا فى لندن لهذا الغرض ، ولكن الانجليز رفضوا إجراء مفاوضة معه .

ويستأنف الطلب . والانجليز يأبون وهو يلح ويسرف فى الإلحاح ! وما يزالون فى إبائهم ، وما يزال فى إلحاحه حتى تهن قواه ، وتنقطع به الأسباب . وإذا هو مريض لا يقدر على العمل ولكنة على ذلك يقدر أن يطلب المفاوضات ويجد فى الطلب ، ويصوغ اقتراحات يقدمها إلى المندوب السامى ، ويسافر بها هذا المندوب إلى لندرة ليعرضها على رؤسائه فى وزارة الخارجية . ويلح المقربون إلى رئيس الوزراء عليه فى أن يؤثر نفسه بالصحة والعافية ، ويدع الحكم لمن يستطيع النهوض به ، ولكن بين رئيس الوزراء وبين لندرة أسبابا من الأمل تحمله على ألا يسمع لنصح الناصحين . وعلى أن يبقى فى الحكم لعل اقتراحاته أن تقبل ، ولعله أن يمضى معاهدة مع الانجليز ، ولعله أن يخرج من الحكم مخرجا حسنا ، ولعله أن يسجل فى كتاب استقالته أنه أتم مهمته فأحدث للبلاد نظاما جديدا ، وعقد للبلاد اتفاقا مع الانجليز ، ولكن اقتراحاته ترفض فى لندره وتعلن وزارة الخارجية كما يحدثنا مكاتب الأهرام صباح اليوم أن نبأ المفاوضات(1) مع صدقى باشا لا أصل له مطلقا . ويفسر مكاتب

---

(1) كان بعض الانجليز ، ومنهم المندوب السامى البريطانى فى مصر يرون من الممكن أن تجرى مفاوضات مع إسماعيل صدقى وتعقد معاهدة ، كما فعلت انجلترا مع نورى السعيد فى العراق . وبعضهم عارض الفكرة معارضة شديدة . لأن الجيش الذى رغبت إنجلترا فى إبقائه فى مصر بحجة الدفاع عن قناة السويس لا أثر له فى العراق . ولم تقبل العراق بوجود مستشارين إنجليز فى الوزارات كما أريد من مصر . والعراق ليس لها سودان تطمع فيه انجلترا وتجعله الصخرة التى تتحطم عليها المفاوضات . وليست بها امتيازات أجنبية ومحاكم مختلطة يتطلب الغاؤها مفاوضات دولية شاقة . وهى غير مدينة لأحد فتتخذ إنجلترا من هذا الدين حجة لمراقبة ماليتها. وحتى المطارات التى حصلت إنجلترا على حق استخدامها فى العراق كان يشرف عليها عراقيون .

فمن هنا قويت حجة المعارضين للتفاوض مع إسماعيل صدقى ، وأعلنت إنجلترا أخيراً أن المعاهدة يجب أن يصدق عليها برلمان يمثل الشعب .

الأهرام هذا الإعلان بأن وزارة الخارجية قد رفضت اقتراحات صدقى باشا فى أدب وظرف ، كما تعودت دائماً !

ومن الحق على وزارة الخارجية لصديقها المريض أن ترفق به ، وتعطف عليه ، فلا ترده فى عنف ، وإنما تأبى ما يريد ، وتعلن أن لم تكن بينها وبينه مفاوضات ما . ومهما يكن من شىء فقد فشل رئيس الوزراء فيما كان يريد من مفاوضة الإنجليز للمرة السابعة أو الثامنة ، أو العاشرة إن شئت ! ولم يبق له أمل ما فى أن يعيد الكرة ويستأنف الطلب ، ويأمل فى المستقبل القريب أو البعيد . لأن كل شىء يحول بينه وبين الأمل ، فلم يضعف مركزه السياسى فى مصر كما ضعف فى هذه الأيام وصحته مع الأسف لا تمكنه من أن يحاول تقوية مركزه واسترجاع قوته السياسية .

ند عليه كل شىء ، وأفلت من يده كل شىء ، وأصبح بقاؤه فى فى الحكم لغوا من اللغو ، وفنا من فنون العبث ! وأكبر الظن أنه إنما يبقى فى الحكم حتى تتهيأ الأسباب للذين كانوا يؤيدونه أمس ، لعلهم يجلون من يخلفه اليوم أو غدا .

ومهما يقل أصدقاء رئيس الوزراء ، ومهما تقل أبواقه فلن يستطيع أحد أن يخدع المصريين عن أن بقاء صدقى باشا فى الحكم الآن إنما هو تعلة ليس غير . وقد تبقى هذه التعلة أياما ، وقد تطول أسابيع ، وقد تزول فجأة ، ولكن نزول رئيس الوزراء عن الحكم فى وقت قريب أمر لا بد منه ، ولا مندوحة عنه ، لأنه النتيجة المحتومة الملائمة لطبيعة الأشياء فى مصر رفى بلاد الانجليز .

كل شىء مضطرب حول رئيس الوزراء فى مصر . الشعب منصرف عنه منذ نهض بالحكم ، ولكن انصراف الشعب عنه قد اشتد حتى انتهى إلى أقصاه . وآية ذلك أن وزارته تفزع من كل شىء ، وتعبىء الجيش والشرطة استعدادا لأيسر الأشياء وأقلها خطرا . والانجليز قد نفضوا

أيديهم منه ،وأكدوا أنهم لن يفاوضوه ، وأكدوا مرة أخرى أنهم مستعدون للمفاوضة ولكن مع الوزارة التى تمثل مصر ، وتعرب عن إرادتها ، وتتحدث بلسانها ، وتعاهد فتنفذ مصر ما عاهدت عليه .

وإذن فأمر الوزارة القائمة مفروغ منه رغم ما ستقوله صحيفة صدقى باشا غدا وبعد غد ، وإلى أن يتقدم رئيس الوزراء باستقالته إلى صاحب الجلالة الملك . وكل يوم من الأيام المقبلة خليق أن يغلق فيه باب ، ويفتح فيه باب آخر ، وأن تطوى فيه صفحة وتنشر فيه صفحة أخرى . وسيودع المصريون غدا أو بعد غد وزارة أذاقتهم ألوان الألم وصروف المحن . وسيذكرون وسينسون ، ولكنهم على كل حال سيطوون صفحة أمس ، وسينظرون فى صفحة غد . سيودعون عهدا ويستقبلون عهدا آخر . وإذا كان التذكير ينفع فان التحذير ليس أقل منه نفعا .

وأكبر الظن أن هذا النبأ الذى أذاعته الأهرام صباح اليوم سيوقظ آمالا نائمة ، ويجدد نشاطا قد فتر بعض الشىء وستتهيأ الأحلام وتأخذ زينتها ، وتتشكل بأشكال مختلفة أشد الاختلاف ، ولكنها مغرية أشد الإغراء على كل حال . وستلم هذه الأحلام ببعض البيئات وستتراءى هذه الأحلام لبعض النفوس ، وسيتهيأ قوم للوزارة وإن لم تسع إليهم بعد . وسيستعد قوم للحكم وإن لم يدعهم الحكم إليه بعد . وستكثر الأحاديث ، وسيشتد الجدال .

فمن الحق أن نذكر المصريين ، ومن الحق أن نحذرهم ، ومن الحق على المصريين أن يحذروا ، فمهما يكن ضيقهم بالوزارة القائمة شديدا ، ومهما يكن احتمالهم للوزارة القائمة ثقيلا ، فان من الحق عليهم لأنفسهم ألا يتعجلوا زوال الشر ليقعوا فى شر آخر قد يكون أشد منه نكرا ، وأقبح منه أثرا . وخير لهم أن تطول المحنة على ما هى فيه من ضعف ووهن واضطراب من أن يخيل إليهم أنها زالت فاذا هى تتجدد ، وأنها انجلت فاذا هى تستأنف نشاطها قويا عنيفا .

يجب أن يذكر المصريون ماذا ينكرون من وزارة صدقى باشا ، ويجب أن يعرفوا ماذا يريدون حين يتمنون أن تستقيل هذه الوزارة ، فهم ينكرون تغيير الوزارة القائمة للدستور ، وهم يريدون أن يعود إليهم هذا الدستور . وهم ينكرون بطش الوزارة القائمة بالحرية ، ولسنا نريد حرية الأفراد وحدها ، وإنما نريد حرية الأمة كلها . نريد الحرية البرلمانية ، نريد الحياة النيابية كلها . وهم يريدون أن ترفع عن الحرية هذه الأغلال والقيود ، وأن تعود حياتهم السياسية كما كانت يوم نهض رئيس الوزراء فألف وزارته .

يجب أن يذكر المصريون هذا كله ، وألا يخدعهم عنه الأمل فى زوال المحنة ، وألا تلهيهم عنه الأحاديث والأمانى . هذه الأهرام قد عادت تذيع تفكير الإنجليز فى الوزارة القومية ، وأخذت تتحدث عنها ، وتعلن أنها لا تريد منذ الآن أن تدعو إليها لأنها مع إيمانها بأنها ضرورة من ضرورات الحياة المصرية الآن ، تكره تزيينها والترغيب فيها بعد أن دعت إلى ذلك فساءت بها الظنون . وهذا نوع من الدعوة إلى الوزارة القومية ، فيه شىء من المهارة واللباقة ، وفيه شىء من الاحتياط والاستحياء . ومن المحقق أن صحفا أخرى ستذكر الوزارة القومية ، وستدعو إليها وستلح فى ذكرها والدعوة إليها . ومن المحقق أن أحدا لن يرفض هذه الوزارة القومية ، ولكن بشرط أن تكون نتيجة لإرادة الأمة حرة طليقة ، لا شرطا يمليه الانجليز لتغيير الموقف السياسى الذى نحن فيه .

لن يرفض أحد فكرة الوزارة القومية إذا استفتيت فيها الأمة فأفتت بها ، وإذا دعيت إليها الأمة فأجابت إليها . فأما أن تملى هذه الوزارة القومية على الأمة إملاء من ناحية من النواحى ، أو ناد من الأندية ، أو من حزب من الأحزاب فلن يبسم لها أحد ، ولن يستجيب لها أحد ، ولن يقبل عليها إلا الذين يفكرون فيها ويدعون إليها .

يجب أن يذكر المصريون أنهم ليسوا هم الذين أنشأوا هذه الأزمة السياسية القائمة ، وإنما أنشأها غيرهم ، فيجب على من أنشأها أن يحلها ، وليس لها حل إلا أن ترد الأمور كما كانت يوم نهض صدقى باشا بأعباء الحكم . هنالك وهنالك فحسب يمكن أن تستشار مصر فى الوزارة القومية ، وأن يجرى الأمر فى هذه الوزارة القومية على حكم الدستور ، لا على شىء آخر .

نظن أنه ليس فى هذا الكلام لبس ولا غموض ، ونعتقد اعتقادا لا سبيل إلى الشك فيه أنه يصور تصويرا صادقا رأى كثرة المصريين الذين سيرد إليهم الأمر كله اليوم أو غداً .

(٣٨)

العفو

إذا مرض الممثلون(١) انصرفوا عن التمثيل ، وإذا مرض المغنون كفوا عن الغناء ، وإذا مرض اللاعبون أعرضوا عن اللعب ، وإذا مرض الوزراء تعلقوا بالوزارة وتهالكوا عليها ، وشدوا أجسامهم إلى كراسيها بأمراس من الكتان كما يقول امرؤ القيس .

ومن الممثلين والمغنين من يعتزلون التمثيل ويكفون عن الغناء قبل أن تتقدم بهم السن ، ويدركهم الضعف لأنهم يعلمون حق العلم أن لكل شىء أمدا لا يتجاوزه ، وحدا لا يعدوه . وإنهم إن مضوا فى التمثيل والغناء حتى يدركهم الضعف عجزوا وقصروا وأثاروا فى النفوس عاطفتين مختلفتين : عاطفة السخط عند قساة القلوب المؤثرين لأنفسهم باللذة والمتاع ، وعاطفة الرحمة والإشفاق عند رقاق الأفئدة ، الذين يؤثرون الضعفاء بالعطف والرثاء .

---

(١) ٢٧ - ٤ - ١٩٣٣ عدد ٢٣٧٥

وقد رأينا الممثلة الشهيرة « مارتيه » تترك بيت موليير سنة ١٩١٧ وهى فى أوج مجدها : لأنها كرهت أن تتقدم بها السن فيتحول إعجاب الناس بها رثاء لها ، أو سخطا عليها . ورأينا « سلفان » الممثل العظيم يبقى فى بيت موليير على تقدم سنه حتى يلقاه قوم بالرثاء ، وآخرون بالصفير والعداء .

وكذلك رأينا من رؤساء الوزارات من يحس الضعف أو تعتل صحته اعتلالا يسيرا فيستقيل حتى لا تتعرض مصالح الدولة للخطر ، وحتى لا تصبح كفايته مثاراً للقال والقيل . ورأينا منهم قوما آخرين يلم بهم المرض فيطيل الإلمام ، وينزل بهم الضعف فيطيل الإقامة ، فلا يستقيلون ولا يستمعون لنصح الناصحين لهم بالاستقالة . وإنما يحتفظون بمناصبهم وكأنهم لا يكرهون أن يكون المرض لهم رفيقا فى طريقهم هذه التى يسلكونها فى بطء حتى ينتهوا إلى غايتها وهى اعتزال الحكم راضين أو كارهين .

رأينا من الممثلين أولئك وهؤلاء، ورأينا من رؤساء الوزارات أولئك وهؤلاء، وثارت فى نفوسنا لأولئك وهؤلاء عواطف الرحمة حينا، وعواطف الضيق بهم والسخط عليهم حينا آخر . وكم كنا نحب أن يكره رئيس وزرائنا لنفسه أن يثير هذه العواطف أو تلك . فهذه الصحف قد أخذت أمس واليوم تعلل اضطرابه وتهافته أمام تلك البرقية التى نشرتها الأهرام أول أمس ، واستلحقتها البلاغ أمس بأن صحته قد ضعفت ، وأعصابه قد وهت فأصبح عاجزا عن المقاومة ، قاصرا عن ضبط النفس والسيطرة على الأمور . ولو قد كان صحيحا قويا موفور النشاط ، مسيطرا على نفسه وعلى غيره أيضا ، لما احتاج إلى هذا التصريح الطويل الذى أذاعه فى الصحف أمس ، والذى لا يثبت شيئا ولا ينفى شيئا ، ولا يدل إلا على شىء واحد، هو أن الأمور قد أفلتت منه ، وتفرقت عليه ، فلا يستطيع لها ضبطا ولا تصريفا ! والناس يزعمون أن من أشد أعراض المرض الذى نرجو أن يبرىء الله منه رئيس الوزراء ، النسيان واعوجاج التفكير ، والعجز عن

حسن الاستنباط . وقد كان جماعة منهم يتحدثون أمس فى تصريح رئيس الوزراء ، ولم يكونوا جميعا من خصوم الرئيس ، ولم يكونوا جميعا من أصدقائه ، وإنما كان منهم من يخاصمه ، وكان منهم من يؤيده ، ويسرف فى تأييده . وكانوا جميعا ينكرون هذا التصريح، ينكره بعضهم فى سخط وهم الأصدقاء ، وينكره بعضهم الآخر فى إشفاق وهم الخصوم . ووقفوا جميعاً عند آخر هذا التصريح حين يتحدث رئيس الوزراء عن أسطورة الوزارة القومية ، فيضع لهذه الوزارة شروطا وقيودا كتلك التى وضعها السير برسى لورين منذ عام ، والتى نشرتها الافريكان ورلد ، وتحدثت عنها الأهرام ، وخاضت فيها الصحف منذ أسابيع ، والتى تحتم على الذين يميلون إلى الوزارة القومية أن يؤمنوا بالدستور الجديد ، ويذعنوا لمنفذيه ، ويضعوا أيديهم فى أيدى هؤلاء المنفذين ، والتى ترى أن فى البلاد دستوراً يجب أن يطاع ويحترم . وأن هذا الدستور يقتضى ألا تؤلف الوزارات القومية إلا على اتفاق مع الأحزاب البرلمانية القائمة !

وقف هؤلاء الناس عند هذا الموضع من تصريح رئيس الوزراء ، فضحك بعضهم منه ، ورثى بعضهم له . وقال بعضهم لبعض : لقد نهض رئيس الوزراء بالحكم منذ ثلاثة أعوام ، وفى مصر دستور قائم كان رئيس الوزراء ممن أقسم يمين الاخلاص له والوفاء بحقه . وفى مصر برلمان أنشأه هذا الدستور ، وكان من الحق على كل من يؤلف الوزارات أن يتفق مع أحزابه ، ويجد فى الظفر بثقته والوصول إلى رضاه . فما بال رئيس الوزراء لم يرع هذا الأصل الدستورى يوم ألف وزارته ؟ ما باله لم يذعن للدستور ولم يرع حرمته ؟ وكان قد أقسم ليذعنن له ، وليرعين حرمته . ما باله لم يقم وزارته على رضا البرلمان والاتفاق مع أحزابه ؟ ما باله ألغى ذلك الدستور ، واستحدث مكانه دستورا آخر ، وصرف ذلك البرلمان وأقام مكانه برلمانا آخر ؟ أكان يومئذ يؤمن بأنه يقترف إثما، فمن أظلم من الذين يقترفون الإثم وهو يعلمون أنهم آثمون . أم كان فى ذلك اليوم يؤمن بأنه إنما يأتى أمراً مباحا ، فما بال هذا الأمر يباح له ويحرم

على غيره ؟ ومن الذى زعم أن مقاييس الأخلاق والقانون والنظام تقصر على رجل دون رجل ، وعلى فريق دون فريق فترى خيراً ما يأتيه صدقى باشا ، وترى شراً ما يأتيه غير صدقى باشا .

إن الذين يشرعون للناس هذه السنن السيئة خليقون أن لا يغضبوا ولا يسخطوا حين يلقاهم الناس بما شرعوا لهم من شر . إن الذين يفتحون للناس أبواب الخروج على النظام والاعتداء على الدستور ، خليقون ألا يجزعوا حين يدخل الناس من هذه الأبواب التى فتحوها ، فيهيئوا أنفسهم ليحدثوا مثل ما أحدث السابقون لهم ، والدافعون لهم إلى الشر . إن الذين يعرضون للنظم القائمة فيبدلون فيها ويغيرون لا لشىء إلا لأنها لا تلائم آراءهم وميولهم ومنافعهم ، خليقون أن يعلموا أنهم يفرضون على أمة كاملة هذه الآراء الخاصة والميول الخاصة والمنافع الخاصة ، فهم خليقون أن يلقوا من غيرهم مثل ما لقى غيرهم منهم ، فضلا عن أن تحاسبهم الأمة على ما أهملوا من منافعها وما ضيعوا من حقها ، وما أهدروا من كرامتها .

لقد شرع رئيس الوزراء للطامعين فى الحكم والمتهالكين عليه سنة إلغاء الدستور ، وصرف البرلمان . فلا ينكر أن ينجم فى مصر من أصدقائه أو من خصومه من يفعل اليوم بالدستور الجديد والبرلمان الجديد مثل ما فعل هو أمس . وما دام الطمع فى الحكم والطموح إلى السلطان والجشع إلى المناصب وما تغل من ثروة وجاه ، ما دام هذا كله يبيح للناس أن يحنثوا فى الأيمان ، وأن يلغوا المواثيق والعهود ، وأن يضعوا دستوراً مكان دستور ، ويدعوا برلمان مكان برلمان ، فقد فتح على الأمة باب شر عظيم ، وقد وضعت حياة الأمة على شفاهوة عميقة توشك أن تتردى فيها بسياستها وأخلاقها ونظمها الاجتماعية ، إذا لم يكن لها من الصبر والثبات وضبط النفس والأمل فى المستقبل والثقة بالله ما يعصمها من السقوط .

تحدث أولئك الناس بهذا كله وقال بعضهم لبعض : لولا أن رئيس الوزراء مريض لما نم على نفسه بهذا الحديث . وقال بعضهم لبعض لولا

أن رئيس الوزراء مريض لما قال فى نفسه بلسانه وفى صحيفته ما يقول خصومه فيه منذ ثار بالدستور فألغاه ، ومنذ ثار بالبرلمان ففرقه ، ومنذ ثار بالحرية فألقاها فى أعماق السجون وقيدها بأثقل القيود والأغلال .

ولولا أن رئيس الوزراء مريض لما أنكر على خصومه ما أباحه لنفسه ، ولما نهى الناس اليوم عما كان يدعوهم إليه منذ أعوام . فإلام كان يدعو رئيس الوزراء حين ألف وزارته ؟ كان يدعو إلى الثورة بالدستور وكان يدعو إلى الخروج على النظام . ولو أنه دعا إلى ذلك وألح فيه قبل أن يتولى الوزارة ويظفر بنصر الإنجليز له ، وتأييدهم إياه لكان حق الحكومة القائمة يومئذ أن تقفه أمام القضاء ليسأله عن ثورته بالدستور ، وخروجه على النظام ، ولكنه فعل ذلك وهو رئيس الوزراء فعل ذلك وأزمة الحكم فى يده . فعل ذلك وقوة الدولة مسخرة له فلم يستطع أحد أن يقفه أمام القضاء ، ولا أن يأخذه بما فعل . وإنما استطاع معارضوه الذين كانوا يومئذ وما يزالون ينصرون القانون ، ويؤيدون الدستور ، ويرعون حرمة النظام . استطاع هؤلاء المعارضون أن ينكروا عليه سيرته وهم ما يزالون ينكرون عليه سيرته ، وقد لقوا منه وهم ما يزالون يلقون منه شرا عظيما وبلاء ثقيلا .

بهذا كله تحدث أولئك الناس أمس . ويستطيع رئيس الوزراء أن يثق بأن الناس يتحدثون بهذا وبأكثر منه ، وأن الناس سيتحدثون بهذا وأكثر منه ما دام مستأثرا بالحكم ، مسيطراً عليه . يستطيع رئيس الوزراء أن يثق بأن الذين يزينون له موقفه ، ويصورون له أنه منتصر على طول الخط ، وأن رأى الناس فيه حسن كل الحسن ، يخدعونه ويكذبون عليه . يستطيع رئيس الوزراء أن يثق بهذا ، وأن يرجع به على نفسه وأن يفكر فيه فيطيل التفكير . وهو إن فعل لم يلم هؤلاء الذين يحلمون باالوزارة القومية ويسعون إليها إن فكروا فى أن ينتهزوا الفرص ويثبوا إلى الحكم دون أن يتقدموا إليه بالمودة ، أو يضعوا يدهم فى يده .

فهم لم يريدوا ذلك حين كان قوياً ، فما أجدرهم أن لا يريدوا ذلك وهو ضعيف . وهم حين يتهيأون لتنحيته عن الحكم وخلافته فيه لا يزيدون على أن يفعلوا مثل ما فعل ، لأن مقياس الحكم الآن فى مصر قد أصبح مع الأسف الشديد بفضل صدقى باشا وأمثاله هو القوة ، والقوة وحدها دون النظام ودون الدستور .

أما مصر التى ينجم فيها الطامعون ، ويعبث بحريتها العابثون ، ويطمح إلى إذلالها الطامحون ، فهى ثابتة فى مكانها ، لا تحب الكيد ، ولا تميل إليه . وهى تكره الحكم الذى يأتى من بعيد ، لا من قريب . والذى ينشأ عن العبث بالدستور لا عن الدستور . والذى لا يكون مرآة لإرادتها الحرة ، ورأيها المستقل ، وصورة عزتها وكرامتها .

مصر هذه تكره من رئيس الوزراء ما فعل ، ولا تريد أن تفعل كما فعل ، وإنما تحتفظ بإيمانها وحقها وكرامتها . وهى واثقة أن هذه الحرب الخفية الظاهرة بين الطامعين فى الحكم ، والطامحين إليه ستضعفهم جميعاً ، وستستنفد قواهم جميعاً ، وستقر الأمر بعد قليل فى نصابه ، وترده إلى أهله .

فليفكر رئيس الوزراء إن سمحت له صحته بالتفكير ، وليعمل رئيس الوزراء إن سمحت له قوته بالعمل ، وليجد رئيس الوزراء إن استطاع فى أن يرد عن منصبه هذه النفوس التى تتصل به وتريد أن تثب إليه . هذه النفوس التى قرأت كلام رئيس الوزراء أمس ، واعتداده بقوته ، واشتراطه أن يضع الناس أيديهم فى يده ليصلوا إلى الحكم ، فلم تزد على أن نطقت بهذه الكلمة التى تدل على شىء كثير من الإكبار والتقدير : العفو ... ! !

(٣٩)

غرور

إذا(١) رأيت فى النظام السياسى أو الاجتماعى أو الاقتصادى شراً ، واقتنعت بأن إزالته واجبة ، وبأن إقرار الخير مكانه أمر محتوم ، كان من حقك أن تدعو إلى ما ترى . وكان من الواجب عليك أن تلح فى الدعوى لما ترى . وكنت آثما فى حق نفسك إن كتمت رأيك وأخفيته على الناس . وكنت آثما فى حق الناس إن لم تدلهم على مواطن الشر فى حياتهم ، ولم ترشدهم إلى ما فيه المنفعة والخير .

هذه أوليات يخيل إلى من يقولها أنه لا يقول شيئاً جديداً ، ويخيل إلى من يسمعها أنه لا يسمع شيئاً طريفاً ، لأن ترديدها قد كثر بين الناس فى جميع العصور ، وفى جميع البيئات ، حتى سئمها القائلون والسامعون ، ولكنها على ذلك ما زالت غامضة وما زال غموضها مصدر الشر الكثير فى فى حياة الأمم والشعوب . ولعل غموضها مصدر ما نحن فيه الآن من فساد واضطراب .

فقد نخطىء فى الخلط بين الحق والواجب ، وقد نغلو فى تقدير هذا الحق وهذا الواجب . وقد يضطرنا هذا الخطأ ، وهذا الاسراف إلى أن نريد الاصلاح فنسىء ، ونقصد إلى الهداية فنضل ، ونتعمد الارشاد فنتورط فى الاعتداء .

نقتنع بالرأى فيغرنا هذا الاقتناع ، ويخيل إلينا أننا نحن وحدنا المصيبون ، وأن غيرنا جميعاً مخطئون . ثم لا نلبث أن يملكنا هذا الغرور ويدفعنا إلى إهدار الحرية . وإذا نحن نحاول أن نفرض آراءنا على الناس

---

(١) ٨ — ٤ — ١٩٣٣ عدد ٢٣٧٦

فرضا . وأن نكرههم على ما نحب لهم من الخير إكراها . وإذا نحن نزعم لأنفسنا العصمة ونبرئها من الخطأ ، ونقدس آراءنا تقديسا ، ونتخذ الذين لا يشاركوننا فيها ، ولا يظاهروننا عليها أعداء ، ونسير فيهم سيرة الأعداء .

ولعلك حين تريد أن تفهم الأزمة التي اضطرنا إليها رئيس الوزراء ، والذين يؤيدونه لم تجد لها تفسيراً غير هذا الغرور الذى يتورط فيه أصحاب الآراء فى السياسة والاقتصاد والاجتماع .

ظن رئيس الوزراء وأصحابه أن نظامنا السياسى القديم شر ، لأنه لم يكن يلائم آمالهم وأطماعهم ومثلهم العليا فى الحكم وتصريف الأمور . ورأوا أن فى هذا النظام أصولا يجب أن تزال ، وأن تقر مكانها أصول أخرى . رأوا أن الانتخاب العام المباشر لا يوصلهم إلى الحكم ولا يضمن لهم كثرة الشعب . ورأوا أن سلطة البرلمان إذا اتسعت وبعدت حدودها لا تمكن من البقاء فى الحكم إن أوصلتهم إليه المصادفات ، ورفعتهم إليه الظروف ، فأرادوا تخصيص الانتخاب وتضييقه . وأرادوا تقييد سلطان البرلمان والقص من جناحه ، وحاولوا أن يدعوا إلى ذلك فلم يفلحوا ، وألحوا فى المحاولة فلم يستجب لهم أحد ، ولم يؤمن لهم إنسان .

وكان الإعراض عن معونتهم والانصراف عن دعوتهم مثيرين لسخطهم على هؤلاء الذين يدعون فلا يستجيبون، ويلح عليهم فى الدعاء فلا يحفلون. وزادهم هذا السخط إيمانا بآرائهم وثقة بها ، فألحوا فيها وأصروا عليها . وما هى إلا أن اغتروا بهذه الآراء ، وأسرفوا فى الغرور ، فاعتقدوا أنها وحدها الحق ، وأنها وحدها الخير . وأن غيرها باطل ، وأن غيرها شر . ثم أخذوا يفكرون ويقدرون ، وجعلوا يهيئون ويدبرون ليفرضوا آراءهم هذه على الناس فرضا ، وليدفعوا الناس إلى آرائهم هذه كرها بعد أن أعياهم الإقناع ولم يواتهم الدعاء الهادئ المطمئن .

هنالك أحكم التدبير ، ووثب رئيس الوزراء إلى الحكم فثار بالدستور القديم ، وفرق البرلمان القديم، واستحدث ما استحدث من نظام ،وأجرى

ما أجرى من انتخاب ، وصرف أمور مصر كما يصرفها منذ نهض بالحكم فى قوة وعنف ، وفى إكراه للشعب على ما يريد هو ، وإرغام للشعب على ما يحب هو .

وكانت فى أوربا حركات إصلاحية ،ظاهرها القوة والشدة ، فما أسرع ما وجد رئيس الوزراء لنفسه الأشباه والأنداد ، وماأسرع ما قارنهأنصاره بموسولينى فى إيطاليا ، وهم الآن يقيسونه إلى هتلر فى ألمانيا . ومع ذلك فلم يكن رئيس الوزارة يوم ألغى الدستور إلا خارجا على النظام ، مسيئا إلى القانون ، ومسيئا إلى الأمة كلها . ذلك أن الإصلاح السياسى أو الاجتماعى أو الاقتصادى لا ينبغى أن يفرض على الناس فرضا ، ولا أن تؤخذ به الجماعات وهى كارهة له ، معرضة عنه . ولا أن ترغم عليه الشعوب بقوة الحديد والنار ، بل لا ينبغى للمصلح أن يمس الذين يريد إصلاحهم بشىء من الأذى قليل أو كثير حين يعرضون عما يحمل إليهم من إصلاح . وإذا لم يكن بد من أن يصيب الأذى فى سبيل الإصلاح أحدا من الناس فانما يجب أن يصيب المصلحين أنفسهم ، ويجب علىهؤلاء المصلحين أن يوطنوا أنفسهم على احتمال الأذى والتعرض للمكروه ، بل للموت أحيانا فى سبيل ما يدعون إليه من إصلاح .

وربما كانت هذه الأيام التى تبتدىء العام الهجرى الجديد ، وتذكر المسلمين بتاريخهم حافلة بالعبر والعظات لمن أنساهم الغرور ، فوجب عليهم أن يتذكروا ، فان الداعى إلى الإسلام ، والمؤسس لهذه الدولة الإسلامية لم يؤذ أحدا ، ولم يفرض على الناس دينه فرضا ، ولم يأخذهم بهذا الدين كرها ، وإنما دعا الناس إليه رفيقا بهم ، محبا لهم ، شفيقا عليهم . ولقى منهم فى سبيل هذا الرفق عنفا ، وفى سبيل هذا الحب بغضا ، وفى سبيل الإشفاق قسوة وعنتا . وما زال يدعوهم إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادلهم بالتى هى أحسن ،فيستجيب له خيارهم ، ويلقاهشرارهم بالبغى والعدوان حتى ظهرت كلمة الله وانتشر نوره ، وعز دينه فآمن به الثائرون به والمتنكرون له .

والذين يتمدح رئيس الوزراء بأنه يشبههم ويسير سيرتهم لم يثوروا بنظم بلادهم كما ثار رئيس الوزراء بنظام بلاده . فلم يصل موسولينى إلى حكم إيطاليا إلا بعد أن وصل إلى زعامتها ، ولم يصل موسولينى إلى زعامة إيطاليا إلا بعد أن جاهد جهادا سلميا رفيقا ، قوامه الدعوة إلى الخير والإلحاح فى النصح حتى استجاب له من استجاب ، واقتنع برأيه من اقتنع ، والتفت حوله كثرة إيطالية مكنته من أن يطلب الحكم ويظفر به ، ويخلق إيطاليا خلقاً جديداً .

ولم يصل هتلر نفسه إلى حكم ألمانيا إلا بعد أن دعا إلى رأيه ، واقنع به والتفت حوله هذه الكثرة التى أظفرته بالانتخاب فاضطر رئيس الجمهورية الألمانية إلى أن يلقى إليه أزمة الحكم ، وكان يأباها عليه ، ويذوده عنها فى شدة وإصرار .

بعيد جدا ما بين رئيس وزرائنا وبين المصلحين الذين يستحقون أن يوصفوا بهذا الوصف ، فهو لم يجاهد فى نشر رأيه ، ولم يلح فى الدعوة إليه ، ولم يلق فى ذلك شيئا من الأذى ، ولم يتعرض فى ذلك لشىء من المكروه . وإنما هيئت له الأسباب ، ودبرت له الأمور ، ثم أجلس على كرسى ، وأعطى أعنة الحكم ، وقيل له انطلق فانطلق أمامه ، لا يأتى على شىء إلا عصف به عصفا وعبث به ألوان العبث ، وهو على هذا كله لم يكتف بأن تهيأ له الأمور فى غير جهد ولا مشقة ، بل أخضع أمته لضروب الجهد وألوان المشقة فعكس الآية ، وآثر نفسه بالراحة فى سبيل الإصلاح وآثر أمته بالشقاء والعناء فى سبيل ما يراه إصلاحا .

ولهذا لم يوفق رئيس وزرائنا إلى شىء ، ولم يصلح رئيس وزرائنا شيئا ، وسينزل رئيس وزرائنا عن الحكم فلا يبقى له فى هذه الأمة أثر إلا هذه الذكريات المؤلمة التى تصور ما صب على أمته من عذاب ، وما أنزل بأمته من شر . فأما السياسة التى فرضها فلن تستقر بعد أن ينزل هو عن السلطان ، ذلك لأنه وصل إلى الحكم قبل أن يكون لنفسه هذه القوة الشعبية

الصادقة . وصل إلى الحكم قبل أن يقنع الناس بآرائه فى الإصلاح . وكان يجب أن يكون وصوله إلى الحكم نتيجة لسعيه لا مقدمة له .

سيستقيل صدقى باشا أو سيقال، فينحل من حوله كل شىء ، ويتفرق من حوله كل إنسان ، وتعود الأمور بعده كما كانت قبله .

أما المصلحون حقا فقد اعتزلوا الحكم، بل فارقوا الحياة وبقى إصلاحهم وقوى بعدهم واتسع سلطانه ، لأنهم لم يسلكوا إلى إصلاحهم هذه الطريق التى سلكها رئيس الوزراء ، ولم يؤثروا أنفسهم بهذا الخير الذى آثر به رئيس الوزراء نفسه . فما أجدر الذين يفكرون فى الإصلاح السياسى والاقتصادى والاجتماعى أن يتعظوا بهذا الدرس القاسى الذى تلقيه الأيام على رئيس الوزراء ، وأن يعلموا أن الأمم لا تكره على الخير إكراها ، وإنما تقنع به إقناعا ، وترغب فيه ترغيبا . وإن الله — وقد استأثر وحده بالكمال واستأثر وحده بالقوة والسلطان — لم يكره الناس على الخير ، ولم يدفعهم إليه بالشدة والعنف ، وإنما أمر نبيه أن يدعوهم إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يدفعهم إليه بالحجة والعبرة ، وأن يحتمل فى سبيل ذلك ما احتمل من الأذى ، ويصبر فى سبيل ذلك على ما صبر عليه من مكروه .

أفيؤثر الله الرحمة واللين والدعوة إلى الخير بالتى هى أحسن ، ويأبى الناس إلا أن يكرهوا الأمم والشعوب على مالا تريد ؟

(٤٠)

ناد

أراد(١) صاحب السعادة حمد باشا الباسل وأصدقاؤه بعد أن انفصلوا من الوفد المصرى أن يتخذوا لأنفسهم ناديا سياسيا يأوون إليه ويلتقون فيه

---

(١) ٢٩ — ٤ — ١٩٣٣ عدد ٢٣٧٨

ويجتمعون فيه إلى من قد يرى رأيهم ، ويذهب مذهبهم من الناس . وهذا حق لهم : لا ينازعهم فيه منازع ، ولا يحاربهم فيه أحد . وقد استمتعوا بهذا الحق فأنشأوا ناديهم ، وافتتحوه أمس ، ووسعهم لحسن حظهم ، ولحسن حظ الحرية السياسية صدر الوزارة القائمة على شدة ضيقه بالأندية السياسيةالأخرى ، وما يكون فيها من اجتماع وحديث . وألقى صاحب السعادة حمد باشا الباسل فى ناديه الجديد خطبة سياسية ، ما كنا نحب أن نعرض لها ، وما نحب أن نطيل القول فيها لولا ملاحظات نحب أن نسجلها مسرعين. ولعل هذه الملاحظات تنتهى آخر الأمر إلى ملاحظة واحدة ، وهى أن الخطيب وأصدقاءه يتعمدون الإعراض عن الحقائق الواقعة والانصراف عنها ، ويخلقون لأنفسهم جوا من الخيال غريبا يعيشون فيه ، ويحسبون أنهم يعيشون مع الناس . وهذا الجو الخيالى الخاص الذى لا يعتمد على الحقيقة الواقعة فى قليل ولا كثير ، ليس من شأنه أن يسهل على الذين يعيشون فيه الظفر بالفوز وتحقيق الآمال السياسية. فليست سياسة الشعوب خيالا ولا آمالا ، وإنما هى أعمال قد تستعين بالخيال لتحقيق المطالب الوطنية . وأوضح شىء على أن الخطيب وأصدقاءه قد خلقوا لأنفسهم جوا من الخيال وعاشوا فيه ، هو هذا الاسم الذى سموا به أنفسهم وأسبغوه على ناديهم . فهم يسمون أنفسهم الوفد السعدى ، ويضيفون ناديهم إلى وفدهم السعدى هذا ، وهم يعلمون حق العلم أن هذا الاسم لا يدل على شىء حين يطلقونه على أنفسهم ، وحين يحلون به ناديهم . وليس الوفد اسما ولا لفظا ، وإنما الوفد قوة حقيقية قائمة يستطيع كل إنسان أن ينظر إليها ، وأن يمتحنها وأن يحقق فيها النظر ، ويلح عليها بالامتحان . وهذه القوة لا تقوم على الخيال ، ولا تعتمد على الوهم وإنما تقوم على الناس الذين يكونونها ويجعلونها حقيقة واقعة ملموسة ، تراها كل عين ، وتلمسها كل يد ، وتغص بهـا كل وزارة لا تريد أن تعمل لمصر ، ولمصر وحدها .

هذه القوة مكونة من هؤلاء الأعضاء الذين يتألف منهم الوفد ، ومن هؤلاء النواب والشيوخ الذين تتألف منهم الهيئة الوفدية ، ومن هذه اللجان

المنبثة فى أقطار مصر والمنتشرة فى أرجائها . ومن هذه الملايين التى تؤلف الكثرة العظمى لهذا الشعب الكريم .

هذه هى القوة التى تجعل الوفد وفدا ، والتى تبيح للوفد أن يسمى نفسه وفدا ، والتى تمكن الوفد من أن يتخذ لنفسه فى السياسة خطة ينفذها ، ومن أن يرى خطة أخرى لا تلائم رأيه ومبدأه فيصد عنها وينفر منها ، لأنه يعلم حق العلم أنه مؤيد بهذه الملايين حين يأتى فى السياسة ما يأتى من الأمر ، وأنه مؤيد بهذه الملايين حين يدع من السياسة ما يدع من الأمر ، وأنه معرب عن آمال هذه الملايين ومثلها العليا حين يسعى إلى الاستقلال ويجد فى تحقيقه ، وأنه ناطق بلسان هذه الملايين حين يقول فى السياسة نعم ، وحين يقول فى السياسة لا .

وصاحب السعادة خطيب أمس وأصدقاؤه يؤمنون الإيمان كله بأنا لا نغلو فى ذلك ولا نسرف ، وهم يؤمنون الإيمان كله بأنهم قد يقدمون غداً على أمر من الأمور فلا يقدم معهم أحد ، وبأنهم قد يحجمون غداً عن أمر من الأمور فلا يحجم معهم أحد ، وبأنهم قد يقولون نعم ، فتقول الأمة لا . وقد يقولون لا ، فتقول الأمة نعم . وإذن ففيم التعلل بالآمال ، والتعلق بالخيال ؟ وفيم إطلاق الأسماء فى غير غناء ؟ وفيم رضاهم بالألفاظ وهم يعلمون حق العلم أن الألفاظ كثيراً ما تكون سراباً يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه ... !!

هذا مظهر من مظاهر هذا الجو الخيالى الذى خلقه صاحب السعادة حمد باشا الباسل وأصدقاؤه ، وأخذوا على أنفسهم بالحياة فيه . ومظهر آخر ليس خيراً من هذا المظهر ولكنه مثله سراب ليس من ورائه شىء ، وهو هذا البقاء على حب الوزارة القومية ، وهذا التعلق بأسبابها والتشبث بأهدابها ، وبعد أن أصبح تأليفها على الوجه الصحيح المنتج فى هذه الظروف التى تحيط بمصر شيئا لا أمل فيه ولا سبيل إليه .

إن الذين يذكرون الوزارة القومية جادين غير لاعبين ، ناصحين للأمة غير مستدرجين لها إلى ما لا تحب ، يعلمون حق العلم أن هذه الوزارة لن تكون قومية حقاً إلا إذا قبلها الوفد وهذه الملايين التى تؤيده كل التأييد، وتثق به كل الثقة ، وتطمئن إليه كل الاطمئنان . فاذا كانت الظروف السياسية الحاضرة تمنع الوفد من الاشتراك فى هذه الوزارة ، فمن العبث أن تسمى وزارة قومية ، لأنها ستكون — كما قال بعض الوزراء السابقين — قومية بلا قوم ، وشعبية بلا شعب . وسيكون حظها من هذا الاسم كحظ الخطيب وأصدقائه من اسم الوفد،وكحظ ناديهم من إضافته إلى الوفد...!!

نعم ، إذا أبى الوفد أن يشترك فى هذه الوزارة إلا بعد أن تستفتى فيها الأمة فتفتى بها ، وبعد أن تعرب الأمة بالانتخابات الحرة المطلقة عن رغبتها فيها وحرصها عليها ، فلن تكون هذه الوزارة التى تؤلف اليوم أو تؤلف غدا دون اعتماد على إرادة الأمة وزارة قومية ، ولكنها ستكون وزارة حزبية ، تؤلفها هيئة واحدة ، أو تؤلفها هيئتان أو تؤلفها هيئات مهما تقل فى نفسها فلن تستطيع أن تزيد على أنها تمثل أعضاءها ، ومن يتصل بهم من الأفراد ، وهى بعيدة كل البعد عن أن تمثل كثرة الأمة ، أو أن تمثل من الأمة قلة لها خطر صحيح فى الحياة الديمقراطية الدستورية الصحيحة . وإذن ففيم التعلل بالآمال والتعلق بالخيال ؟ وفيم إطلاق الأسماء فى غير غناء ؟

صاحب السعادة حمد باشا الباسل وأصدقاؤه أحرار فى أن يتعللوا بالأمل، ويتعلقوا بالخيال ، ويسموا أنفسهم كيف شاءوا ، ولكنهم يرون معنا فيما نظن أنهم يتجاوزون الحق ، ويسرفون على أنفسهم حين يضيفون آراءهم إلى غيرهم ، وحين يزعمون على غيرهم ما لم يفعلوا ، ويقولون عليهم ما لم يقولوا . وقد زعم الخطيب أمس أن الوفد أقر بالإجماع منذ عام قبول وزارة تكون مهمتها العود إلى دستور عام ١٩٢٣ وإجراء انتخابات حرة، واستئناف المفاوضات للوصول إلى اتفاق عادل شريف ترضاه البلاد ممثلة فى برلمانها المنتخب انتخابا حرا .

والخطيب وأصدقاؤه يعلمون حق العلم أن إجماع الوفد لم ينعقد فى يوم من الأيام على كل هذا ، وإنما اتفق الوفد على بعضه ، واختلف فى بعضه الآخر . ولولا هذا الاختلاف لما وضعت هذه الجملة وهى « على أن تجرى فى شأن الوزارة بعد الانتخابات أحكام الدستور »

فكيف تجرى أحكام الدستور بعد الانتخابات على وزارة تقيدت يوم تأليفها باستئناف المفاوضات ؟ إن أحكام الدستور حين تجرى على وزارة بعد الانتخابات قد تضطرها إلى الاستقالة قبل أن يجتمع البرلمان ، وقد تضطرها إلى الاستقالة بعد اجتماع البرلمان ، وقبل أن تبدأ فى المفاوضات . فلو قد كان إجماع الوفد منعقدا على كل ما قاله الخطيب لما وضع هذا الشرط إنما وضع ليجعل هذه الوزارة وزارة انتقال ليس غير ، تعيد الدستور ، وتصلح ما تستطيع من الأمور ، وتجرى الانتخابات الحرة ، حتى إذا تمت الانتخابات وظهرت نتائجها ، جرت أحكام الدستور ، وردت أمور الأمة إلى الشيوخ والنواب الذين يمثلون الأمة .

هذا هو الحق الذى لاشك فيه ، وهو الذى يعلمه الخطيب وأصدقاؤه ، وهو الذى تنطق به محاضر الوفد فى جلساته التى عرض فيها لهذا الموضوع . وإذن فما بال الخطيب يلبس الأمر على الناس ، ويضيف إلى غيره آراء لم يروها ، ومذاهب لم يتورطوا فيها ؟

وله ولأصدقائه أن يروا ما يشاءون ، وأن يجدوا فى تحقيق آرائهم ، وأن يجربوا حظهم السياسى منفردين ، وأن يمتحنوا ثقة الأمة بهم ، وتأييدها لهم ، ولكن ليس لهم أن يزعموا أن غيرهم يشاركهم فى هذه التجربة ، أو يظاهرهم عليها . ولو كان الأمر كما يزعمون لما كانت فرقة ، ولما كان خلاف ، ولما وقف الخطيب أمس يفتتح ناديه الجديد .

كل هذا يبين ما قلناه آنفا من أن الخطيب وأصدقاءه يعرضون عن الحقائق الواقعة ، ويخلقون لأنفسهم جوا من الخيال يعيشون فيه .

ويقول الخطيب « إن الوفد إن قبل الحكم حين تدعوه الظروف إليه ، فهو لم يؤلف للحكم . وإنما ألف للنضال » وإذن فمن حسن النضال أن لا يسعى الوفد إلى الحكم ، وألا يلح فى السعى إليه . وألا يظهر من سعيه وإلحاحه فى السعى ما يطمع الانجليز فيه ، ويغريهم به . ويمكنهم من إملاء الشروط عليه . إنما النضال الصحيح أن يحتفظ الوفد بالكرامة القومية والعزة القومية ، وأن يعصم الروح الوطنى من الضعف ، وجذوة المقاومة من الخمود ، وأن يبين للإنجليز وللعالم كله فى وضوح وجلاء أنه فوق الخوف ، وأنه فوق الإغراء ، وأنه أعز وأقوى من أن تضعفه التجارب ، وتفسد عليه المحن أمره . وأنه أثبت على النضال من أن يبلغ منه الانجليز بترغيب أو ترهيب ، وأنه قد رسم لنفسه خطة فهو ماض فى تحقيقها ، لا ترده عنها قوة مهما تكن ، ولا تلهيه عنها حيلة مهما تكن حتى إذا أخفقت التجارب وفشلت المحاولات ،وعرف الانجليز أن أمر مصر يجب أن يكون لمصر ، نزلوا هم عن شروط مصر ، ولم ينزلوها عند شروطهم ، وعلى أحكامهم .

كذلك يكون النضال . ونحن نعلم أنه طويل . ونحن نعلم أنه شاق . ونحن نعلم أنه محفوف بالأذى ، ونحن نعلم أنه مملوء بالخطر ، ولكنا على ذلك كله ، ولذلك كله نعلم أنه النضال الذى يليق بالرجال ، والذى يمكن الأمة من أن تكون أمة حقا ، ويرغم الانجليز على أن يقدروا كرامتها ويرعوا حرمتها ويؤمنوا لها بحقها كاملا غير منقوص .

فليتعجل الحكم من لا يستطيع الصبر عن الحكم ، وليصبر على الأذى من يؤثر العزة والكرامة على الخوف من الأذى ، وليذكر أولئك وهؤلاء أن من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وإن الله لا يضيع أجر العاملين .

(٤١)

قلق

لست(١) أدرى أقلق هذا يعبث بنفس رئيس الوزراء وزملائه ، أم هو شىء آخر أكثر من القلق ، وأشد منه هزا للنفوس وخلعا للقلوب وتشريدا للعقول والألباب ؟ ولست أدرى أيصدر هذا القلق أو هذا الفزع أو هذا الجزع عن ضعف فى أعصاب الوزراء بعد أن ألحت عليهم الحوادث المضنية ، وتعاقبت عليهم الأنباء المخيفة ؟ أم هو يصدر عن تقدير صحيح لموقف الوزارة واضطرابها المنكر بين اليأس والرجاء ؟ ولكن الشىء الذى لا شك فيه هو أن الوزارة فى هذه الأيام شديدة القلق إلى حد اليأس ، وأن الوزراء فى هذه الأيام لا يبتسمون للحياة ، كما أن الحياة السياسية لا تبتسم لهم . ولا ينظرون إلى المستقبل القريب مطمئنين كما أن المستقبل لا يبتهج بقدومهم عليه ودخولهم فيه . وإنما هو يغلق أبوابه فى وجوههم قليلا قليلا ، ويوشك أن يحكم إغلاقها حتى لا ينفذ منها النسيم ... !

أخطأت الأهرام منذ أيام فنشرت رسالة برقية كانت موجهة للبلاغ ، وفسرتها بما تعلم من حقائق الأشياء ، وبما تأمل من ألوان الخيال . ولم تكد تظهر الأهرام بالرسالة وتفسيرها حتى اضطرب الوزراء والمستوزرون ، أولئك هدهم الخوف ، وهؤلاء أحياهم الرجاء ! أولئك رأوا بيوتهم تستقبلهم عابسة مقطبة ، وقد خيم عليها حزن كاسف كثيف . وهؤلاء رأوا دواوين الوزارة تستقبلهم فرحة مرحة ، راضية مبتسمة لهم ، هذه الابتسامة الصفراء التى تبتسمها دائما مكاتب الوزراء للوزراء حين يقبلون عليها لأول عهدهم بالحكم ، وتدل بها على معان كثيرة أظهرها وأوضحها هذا المعنى الذى لا يفطن له وزير ، والذى يجب أن يفطن الوزراء جميعاً له ، وهو

---

(١) ٣٠ – ٤ – ١٩٣٣ عدد ٢٣٧٩

أن النهوض بالحكم ليس تخليداً فيه . وأن الابتسام للحكم إنما هو مقدمة سيتبعها العبوس للاستقالة . ولكن الانسان مغرور . وغروره يلهيه عن واجبه ويورطه فى كثير من الشر ، كان يستطيع أن يبرأ منه لو قدر أنه حين يدخل مكتبه زائر ، لا مقيم .

جزع الوزراء لنبأ الأهرام ، وكان رئيسهم أشدهم جزعا ، فلم يكد يتصل به النبأ حتى خف وكان ثقيلا ، وحتى نشط وكان فاتراً ، وحتى أسرع إلى التليفون فهز الهواء بين القاهرة ولندرة هزا كهربائيا عنيفا يلائم هذه الهزات التى أحدثها نبأ الأهرام فى نفسه ! وأزعج وزيرنا فى لندرة ، وكلفه حركة ونشاطا ، وسعيا واضطرابا ، وبحثا واستقصاء فتحرك وزيرنا واضطرب ، وسعى وزيرنا ونشط ، وبحث وزيرنا واستقصى ، ثم عاد إلى التليفون فهز الهواء مرة أخرى بين لندرة والقاهرة هزا فيه شىء من السخرية ، وفيه شىء من اليأس الحزين .

وتحدث رئيس وزرائنا بعد ذلك إلى الصحف ليهدىء الناس ، ويؤمن الأنصار ، فنشرت « الشعب » حديثه وجلة مذعورة ! ونشرت الأهرام حديثه متحدية متصدية ! وأحس الناس وجل « الشعب » وذاق الناس تحدى الأهرام . فألح الخائفون فى الخوف ، وألح الراجون فى الرجاء . والظاهر أن الوزراء لا يملكون أنفسهم ، ولم يستطيعوا أن يقروا قلوبهم فى صدورهم فسألوا رئيسهم حين اجتمعوا إليه يوم الخميس ، وتحدث إليهم رئيسهم فى هذا الاجتماع كما تقول الأهرام صباح اليوم ، حديثاً لعله هدأ من روعهم بعض الشىء . وسرى عن نفوسهم بعض التسرية ، ثم لم ينقض ليل ويطلع نهار حتى جاءت الأنباء البرقية إلى الصحف عامة بنصيحة المورننج بوست إلى رئيس الوزراء وألحاحها عليه فى أن يستريح ! فاشتد خوف الخائفين ، وعظم رجاء الراجين ، ولم يبق بد من إذاعة الحديث الذى كان بين الوزراء ورئيسهم فى اجتماع الخميس لعله يخفف لوعة الملتاعين من الأنصار ، ويلقى شيئاً من الكآبة على آمال المؤملين من عشاق الحكم

والمتلهفين على المناصب ، ولكنا نؤكد للذين أذاعوا هذا الحديث فى الأهرام ، أو أوعزوا باذاعته أنه لم يخفف لوعة ، ولم يهدىء روعة ، وأنه لم يبعث على آمال المؤملين كآبة ولا تقطيبا ، ذلك أن هذا الحديث كما نشرته الأهرام أشبه شىء بهذه التعلات التى تقدم إلى الجائع ليصبر على الجوع ، وإلى الظمآن ليحتمل الظمأ ، وإلى الخائف ليأمن بعض الأمن ، ولكنها على كل حال لاتعلة تشبع جائعاً ، ولا تنقع صاديا ، ولا تؤمن خائفا مذعوراً .

زعم رئيس الوزراء لزملائه أن الأنباء التى أنبأه بها وزيرنا فى لندن تدل على أن المندوب السامى عائد إلى مصر فمقيم فيها غير منقول منها . وأكبر الظن أن هذا النبأ لم يكد يقع فى قلوب الوزراء حتى برقت أساريرهم ، وانبعثت من صدورهم تنهدات مريحة ، ولكنهم لم يفكروا فى أن بقاء المندوب السامى إن صح لا يستلزم بقاء الوزارات . فصداقة المندوبين السامين فى السياسة ليست ثابتة ولا مطمئنة . ولم يفكروا فى أن تغيير الأعوان الذين يعمل معهم المندوب السامى فى القاهرة يجب أن يدل على شىء . ومن الراجح جدا أن هذا الشىء ليس مما يحب الوزراء ، وليس مما يطيق الوزراء أن يفكروا فيه .

وزعم رئيس الوزراء لزملائه أن اللجنة الانجليزية المصرية لم تنجح فيما أرادت أن تحمل الحكومة الانجليزية عليه من تغيير السياسة البريطانية فى مصر ، ومن توجيه هذه السياسة إلى تغيير النظام القائم ، لأنه لم يحقق ما كان ينتظر من العدل والإنصاف ، ولم يظفر بتأييد الكثرة المصرية له ، أو ميلها إليه .

ولكن رئيس الوزراء وزملاءه لم يفكروا فى أن الأهرام ستنشر لهم هذا الكلام ، وستضيف إليه تعليقا ظريفا ، وتفسيرا طريفا ، وهو أن اللجنة قد ألفت وفدا منها ليلقى وزير الخارجية البريطانية ، ويرفع إليه رأيها فى شئون مصر . وأن هذا الوفد لم يلق وزير الخارجية بعد ، ومعنى

ذلك عند الأذكياء والأغبياء جميعاً أن من التسرع وتعجل الأمور أن يقال إن هذه اللجنة لم تنجح . وإنما يقال ذلك بعد أن يتم اللقاء بين الوفد والوزير ، وتظهر نتيجة هذا اللقاء .

ولم يقدر رئيس الوزراء وزملاؤه أن الأهرام ستضيف إلى هذا التعليق الظريف تعليقا آخر ليس أقل منه ظرفا : وهو أن المندوب السامى نفسه لم يظفر بلقاء وزير الخارجية بعد . ومعنى ذلك أن كل تنبؤ بنجاح خطة سياسية دون خطة . سابق لأوانه كما يقولون . ومعنى ذلك أن شبح الخوف يجب أن يظل قائما أمام الوزارة وأنصارها . وأن وجه الأمل يجب أن يظل مشرقا أمام المستوزرين .

أما المفاوضات والمحادثات ، وأما الاتفاق والمعاهدة ، فقد أبت الأهرام إلا أن تعرض لها تطوعا منها واحتسابا لوجه الله عز وجل . فأنبأتنا بأن الحكومة البريطانية كانت قد أذنت فى أول الشتاء بالحديث بين رئيس الوزراء ودار المندوب السامى حتى إذا انتهى إلى خير ، بدئت المفاوضات ، وبأن هذا الحديث كان قد بدأ بالفعل ولكن ما أصاب الوزارة من أزمة بعد قصة(1) البدارى لم يمكن من المضى فيه . وكلام

(1) كان عمدة البدارى قد أبلغ مأمور المركز عن أحمد جعيدى عبد الحق ، وعلى حسن أحمد أبى عاشور بأنهما خطران على الأمن فألزمهما مأمور المركز يوسف الشافعى بالمبيت بالمركز . وفى أثناء الليل كان يجرى عليهما أنواعا من التعذيب فصنع لجاما من الليف لكل منهما .

وكان يدخل العصا فى طيازهم . فانتهزا فرصة مرور المأمور فى إحدى الجهات وأطلقا عليه النار فسقط قتيلا . وقد حكمت محكمة جنايات أسيوط على أحمد جعيدى بالإعدام شنقا ، وعلى زميله بالحبس مع الأشغال الشاقة المؤبدة .

ولما عرضت القضية على محكمة النقض برياسة عبد العزيز باشا فهمى اعترف الشهود بأن المأمور كان يدق العصا فى طيازهم . (هكذا بالنص) .

وقد تبين لرئيس محكمة النقض أن الحكم الصادر من محكمة جنايات أسيوط قد=

الأهرام هذا تجديد للتحدى الذى تقدمت به إلى رئيس الوزراء والذى لم يستطع رئيس الوزراء أن يرد عليه وسيقبل رئيس الوزراء هذا التحدى . وسيغض الطرف عنه ، وما أكثر ما يغض رئيس الوزراء عينه على بعض الأقذاء .

ونتيجة هذا كله لا تسر ولا ترضى ولا تلائم ما يحب المصريون أن يشعروا به من أنهم كرام على أنفسهم . نبأ يأتى من إنجلترا فتخلع له قلوب ، وتبتهج له نفوس ، ويختلف أولئك وهؤلاء فيما يذهبون إليه من تعليل وتأويل . أولئك يخافون على ما فى أيديهم ، وهؤلاء يطمحون إلى ما ليس فى أيديهم . أولئك يرتقبون المعونة من الانجليز ، وهؤلاء يلتمسون الأمل عند الانجليز . أولئك وهؤلاء يلعبون بالورق ، وموضوع لعبهم هو مصر ، وأيهم ربح فى اللعب نظر إلى مصر على أنها وسيلة لا غاية ، وعلى أنها تكأة لا أكثر ولا أقل ... !

ليس هذا مما يسر ، وليس هذا مما يشعر المصريين بكرامتهم وعزتهم ، وليس هذا مما يقرب الأمد بين المصريين وبين الاستقلال الصحيح .

فما أجدر الذين يخافون أن يخافوا من مصر ، وما أجدر الذين يرجون أن يرجوا الخير من مصر . وما أجدر أولئك وهؤلاء أن يعتمدوا على مصر وحدها ، وأن ينفقوا ما ينفقون من جهد لتمكين مصر العزيزة الكريمة من أن تظفر بحقها من الانجليز الغاصبين ، وما أجدر هذا القلق

=أخطأه التوفيق ، وأرسل ملف القضية لوزير الحقانية على ماهر باشا لبحث إمكان إصدار عفو عن المتهمين . فدرس على ماهر ملف القضية ، وأعد بيانا ردا على سؤال لأحد أعضاء مجلس النواب ، ولكن إسماعيل صدقى لم يوافق على بيان على ماهر ، وبذلك استقال هذا الأخير . وقد أحدثت هذه القضية ضجة هائلة ، وكانت فضيحة للحكومة الإنجليزية التى تدعى الحياد وجيشها يحتل العاصمة ، ومندوبها يشرف على سياسة مصر الداخلية والخارجية .

الذى يعبث بنفوس اليائسين والطامعين أن يكون قلقا على منفعة مصر واستقلالها ، لا على الاحتفاظ بالحكم والوثوب إليه .

(٤٢)

راحة

أما(١) القاهرة فغرقة فى هدوء يشبه النوم ، هو هذا الهدوء الذى يألم فيه الضمير أشد الألم ، ويضطرب فيه القلب أشد الاضطراب ، وتظل فيه الحواس الظاهرة مطمئنة مستقرة كأن ليس من وراء هذا الاطمئنان والاستقرار الظاهرين ضمير فائر ، ولا قلب مضطرب .

وأما أقصى مصر فيقظان ، شديد اليقظة ، متحرك عنيف الحركة ، هائج عظيم الهياج . يشترك فى يقظته وحركته وهياجه ضميره وشعوره ، وقلبه وحواسه الظاهرة جميعاً .

كان هادئاً مستقراً كالقاهرة أمس فاستيقظ واندفعت به يقظته إلى هذه الحركة العنيفة اليوم ، لأن زعيمين من زعماء الشعب قد سعيا إليه يزورانه ، ويجددان العهد به : هما صاحب الدولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد ، والأستاذ الكبير مكرم عبيد . ورئيس وزرائنا المريض يرى هدوء القاهرة فيرضى ويحس حركة الصعيد فيسخط .

لست أدرى إلى أى حد تسمح له صحته بأن يحتمل ما يختلف على نفسه من آثار هذا الرضى الذى لا عمق له ولا ثبات ، ومن آثار هذا السخط الذى يشبه الخوف . ولست أدرى إلى أى حد تسمح له صحته بأن يتدبر فلسفة هذا الهدوء الذى لا يريح ، وفلسفة هذا النشاط الذى لا يطمئن ،

---

(١) ٢٠ – ٣ – ١٩٣٣ عدد ٢٣٣٩

ولكن الشيء الذى لا شك فيه هو أن الحياة السياسية لا تبسم لرئيس وزرائنا المريض عن ثغر عذب جميل . ولعل نظراته الهادئة الحزينة التى لا تخلو من وجل تقع من هذه الحياة السياسية على وجه فيه كثير من العبوس ، وعليه كثير من التقطيب ، لا حظ له من بشر الأمل، ولا من هذه الغبطة التى تدل على القوة وحب البقاء والرغبة فى الاستزادة منه . فقد كانت طرائق رئيس الوزراء منذ وثب إلى الحكم طويلة جداً ، شاقة جداً ، ملتوية جداً . لا يتقدم خطوة إلا اضطر إلى الوقوف ، ولا ينظر أمامه إلا اضطر إلى أن ينظر وراءه ، ولا ينحرف إلى اليمين إلا اضطر إلى أن يتحرف إلى الشمال . وهو كلما تقدم أمامه ، وأخذ منه الجهد وانتهى به الإعياء إلى أقصاه ، نظر فاذا الطريق أمامه ممتدة إلى غير أمد، ملتوية فى غير نظام . فهو يمضى ويرجع ، وهو يأخذ عن يمينه ويأخذ عن شماله . وهو يطيل النظر إلى السماء ، ويطيل النظر فى الأرض . وهو يستمع بأذنيه جميعاً لعله يتبين شيئاً واضحاً من هذه الأصداء التى تصل إليه فلا يتبين شيئاً . ويؤثر هذا كله فى قوته المحدودة فتضعف ، وفى نشاطه فيفتر ، وفى صحته فتعتل . وينسى الطريق الطويلة التى أمامه ، وينسى الطرق القصيرة التى قطعها . وينسى العقاب والصعاب ، وينسى هذه الأصداء المختلطة ويغرق فى علته وآلامه حينا فيستريح فى تعب ويهدأ فى قلق ، ثم يفيق ويسعى سعيا هينا إلى الشفاء ، ويسعى الشفاء إليه سعيا هينا أيضاً . ويؤوى إلى هذا الفندق فى ظل الأهرام ليستكمل حظه من هذه الراحة المتعبة ، ويفتح عينيه لينظر أمامه فاذا الطريق ممتدة إلى غير أمد ، ولينظر وراءه فاذا هو لم يقطع إلا مسافة قصيرة ، قصيرة جداً . ويهبط إلى نفسه يلتمس فيها العدة والزاد لقطع هذه الطريق التى لا تنتهى فاذا صحته ضئيلة فى حاجة إلى العناية . وإذا قوته نحيلة فى حاجة إلى الرعاية وإذا ما بقى له من الجهد أعظم ألف مرة ومرة مما عنده من نشاط ، وهو مكدود يغضب فى غير ثورة ، ويسخط فى غير هياج . وإذا ابتسامة كلها إذعان ترتسم على وجهه الشاحب وجبينه المنقبض .

كذلك يقضى رئيس الوزراء أيامه الآن فى ميناهوس . قد قطع شوطا بعيداً شاقا ، ولكنه ما زال فى أول الطريق . وليس لديه من أدوات السفر ما يمكنه من المضى فى طريقه . كل شىء من حوله ينبئه بأن سياسته قد فشلت وفشلت . فلا هو كسب تأييد الشعب . ولا هو كسب حيدة الشعب ، ولا هو حقق لهذا الشعب من آماله ما إن جحده اليوم فقد يضطر إلى الاعتراف به غدا . ولا هو قادر على أن يصلح ما فات ويستأنف سياسة جديدة تمحو آثار سياسته القديمة كلها أو بعضها .

كل شىء من حول رئيس الوزراء فى السياسة قاتم مظلم حتى فى بيئته الخاصة . أعوانه ضعفاء ، لا تستقل أكتافهم مهما تكن عريضة بحمل هذه الأثقال التى حملها وحده . والناس يحسون ذلك ويخوضون فيه فيسرفون والبرلمان يمشى فى طريقه مشيا رفيقاً ، لا نشاط فيه ولا خصب حتى تصفه الأهرام بأنه مريض مقعد ، والأمة تنظر إلى هذا كله فى سخط ملؤه هذه الكبرياء التى تظهر فى صورة الإشفاق والرحمة لهؤلاء الذين أفنوا فى الإساءة إليها والعبث بمصالحها قوة كان من الخير أن تنفق فى الاحسان إليها والتحقيق لآمالها .

هذه هى راحة رئيس الوزراء الآن فى ميناهوس . ليست هى الراحة التى يستحقها المريض بعد أن أنهكه المرض ، وليست الراحة التى يستحقها المجاهد بعد أن أضناه الجهاد ، ولكن رئيس الوزراء هو الذى اختار طريقه إلى هذه الراحة ، فوقف من أمته كلها هذا الموقف الذى لم يجد عليه خيرا ، ولم يعقبه إلا مرضا وألما وحزنا . وهو الذى بذل صحته كلها فى سخاء يشبه الإسراف ليحقق ما لا سبيل إلى تحقيقه ، ويبلغ ما لا أمل فى بلوغه . فلو أن أحدا استطاع أن يضطر النيل إلى أن يرجع أدراجه ويصعد إلى منبعه بدل أن يجرى هابطا إلى البحر ، لاستطاع رئيس الوزراء أن يضطر الأمة المصرية إلى أن تعرض بوجهها عن آمالها ومثلها العليا فى الحرية الصحيحة والكرامة الصحيحة والاستقلال الصحيح . وإلى أن ترضى بالقليل من

مظاهر الحرية ، ومظاهر الكرامة وأعراض الاستقلال فى ظل الأوصياء المعصومين .

سيجرى النيل دائما إلى البحر ، وستجرى مصر دائما إلى تحقيق آمالها وبلوغ مثلها العليا . وسيتعب دائما ويخفق دائما ، ويكتئب دائما كل أولئك الذين يقدرون لأنفسهم من القوة أكثر مما تملك فيسلكون هذه الطريق الطويلة الشاقة الملتوية التى سلكها رئيس الوزراء .

(٤٣)

خطأ

يظهر(١) أن بعد الدار يؤثر فى تصور الناس الأشياء وحكمهم عليها وإن كانوا من أعلم الناس بها ، وأفهمهم لدخائلها ، كما أن بعد أدوات الحس عن المحسوسات يضعف أثر الحواس بالأشياء .

فصديقنا محمود عزمى من أعلم الناس بمصر ، وبما يحدث فيها من الحوادث ومن يضطرب فيها من الناس . وهو كذلك عالم حق العلم بطبيعة الحياة والأحياء فى هذا البلد ، ولكن عهده بوطنه بعيد ، وداره عن وطنه نازحة ، فهو يتصور الأشياء من بعد ، وينتظر من الناس أكثر مما كان ينتظر منهم لو أنه حديث العهد بهم ، مقيم فيهم ، يراهم كل يوم ويتحدث إليهم كل يوم ، ويرى وقع الحوادث فى نفوسهم ، ويسمع تعبير ألسنتهم عن وقع هذه الحوادث ، واضطراب أصواتهم بما تجد نفوسهم من لذة وألم ، ومن نعيم وبؤس ، ومن سرور وحزن . ويحس فى أثناء هذا كله ما تخفيه الضمائر الخفية من رضى وسخط ، ومن رجاء ويأس ، إذن لانتظر من الناس غير ما ينتظر منهم الآن ، ولطلب إلى طبيعة الأشياء غير ما يطلب إليها الآن ،

---

(١) ١٨ — ٣ — ١٩٣٣ ، ٢٣٣٧

فقد ابتسمت كارها صباح اليوم ابتسامة كلها مرارة وحزن عميق حين رأيته ينتظر أن تكون الصحف الموالية للوزارة أشد من صحف المعارضة إلحاحا على الحكومة فى تغيير نظام السجون بالقياس إلى جرائم الرأى . والإسراع إلى تحسين حال صديقنا توفيق دياب فى سجنه .

ابتسمت ابتسامة كلها مرارة وحزن عميق . لأنى عرفت أن عزمى بعيد عن مصر ، لا يرى الناس فيها ، ولا يرى تأثر الناس بما يحدث من الحوادث ولا فهمهم لهذه الحوادث ولا حكمهم عليها . وهو مع ذلك شديد التأثر كما كان دائما بحبه للمثل الأعلى فى التعاون والتضامن والطموح إلى الخير ، واحتمال التبعات فى سبيلها . فهو إذن ينتظر من الصحف الموالية للوزارة كما ينتظر الناس من الصحف الموالية للوزارات فى أوربا أن تذكر قبل كل شىء أنها صحف وأن الصحف إنما أنشئت لتدعو إلى الخير ، وتلح فيه فتسرع إلى الإلحاح على الحكومة فى أن تقدر كرامة الرأى ، وتعامل توفيق دياب كما يعامل أمثاله فى البلاد التى تقدر الحرية وكرامة العقل . وهو إذن ينتظر من الصحف الموالية للوزارة ألا تتردد فى الاستفادة من موالاتها للوزارة لتستغل قربها من الحكومة فتوجهه فى سبيل الخير ، وتتخذه وسيلة إلى تحقيق العدل والبر والإنصاف الذى لا يختلف الناس فيه ، سواء كانوا من أنصار الحكومة أو من خصومها ومعارضيها .

هو ينتظر هذا كله ، ومن حقه أن ينتظر هذا كله ، لأن طبيعة الأشياء إذا استقامت وجرت على منهج معتدل من حب الحق والخير تقضى على الصحف الموالية للحكومة أن تقف من توفيق دياب ومن نظام السجون هذا الموقف الذى ينتظره منها صديقى عزمى ، ولكن طبيعة الأشياء قد التوت فى مصر ، والمنهج الذى تجرى عليه قد فسد واعوج . وصحف الوزارة لا تستطيع أن تكون أسرع من صحف المعارضة إلى المطالبة بتغيير نظام السجون والإصلاح من أمر توفيق دياب ، لأنها قبل أن تفكر فى الخير لنفسه مضطرة إلى أن تفكر فيما يمكن ومالا يمكن ، فيما يراد ومالا يراد . ثم فيما يقال ومالا يقال

هى مضطرة إلى هذا ، فليس من اليسير عليها أن تصارح الحكومة بالحق ، أو تلح على الحكومة فيما لا تحب . ولو قد فعلت لما لقيت من الحكومة خيرا ، ولأعرضت عنها وجوه تحب أن تقبل عليها ، ولا زور عنها أشخاص تحب أن يلقوها بالبشاشة والإيناس .

هى إذن مضطرة أن ترضى الحكومة قبل أن ترضى نفسها ، وقبل أن ترضى فكرة الصحافة . أتلام فى ذلك أم تعذر عليه ؟ أما أصحاب الأخلاق الذين لا يريدون إلا الفضيلة والفضيلة وحدها فيلومون لأن الحق والخير يجب أن يتقدم على كل شىء حتى على رضى الحكومة عن صحف المعارضة. وأما العمليون والذين يريدون أن يلائموا بين المنفعة والخلق بهذه الأوضاع الاجتماعية التى نسميها مجاملة ، فهم يعذرون ويكتفون من صحف الحكومة بأن تختار لنفسها مكانا وسطا فتجامل صحف المعارضة ، وترفق بالحكومة فلا تسرف عليها بالإلحاح والإلحاف .

ولعلك لم تنس أن وزيرا قائما اليوم كان(١) صحفيا أمس ، فكره أن يشارك الصحفيين فيما كانوا يطالبون به ، ولم يتحرج من إعلان ذلك والجهر به ، لأنه يؤثر أهواء الأحزاب على الخير من حيث هو خير ، والحق من حيث هو حق . وعلى هذا العدل الذى يرتفع فوق خصومة الأحزاب كما يرتفع فوق المنافع كلها .

لو كان عزمى حاضرا أمر القوم وهم يجتمعون ويتجادلون لعرف أنه يسرف حين يطلب إلى الناس أكثر مما يستطيعون . نعم إن المنفعة المحققة لصحف الحكومة تقضى عليها بأن تبذل ما تملك من قوة وجهد لإصلاح نظام السجن والترفيه عن توفيق دياب لأنها موالية اليوم للحكومة ، ظافرة بعطفها ، آمنة بطشها . ولكن من قصر النظر أن تؤمن لهذه الوزارة بالخلود ، فستزول

---

(١) المراد محمد علام باشا ، وكان صاحب امتياز صحيفة الشعب وتنازل عنه بعد أن عين وزيراً للزراعة .

هذه الوزارة من غير شك ، وستؤول أمور الحكم إلى المعارضة . وستصبح صحف الوزارة القائمة صحفا معارضة ، ومن يدرى لعلها تحيد عن القانون، ولعلها تضطر إلى السجن .

أفليس من الكياسة أن تهيء لنفسها منذ الآن سجنا رفيقا لا تشقى به إذا اضطرت إليه ؟ ولكنك تستطيع أن تقنع صحف الحكومة بكل شيء إلا بأن وزارتها ستزول ، وأنها قد تتعرض لما تتعرض له الآن الصحف المخاصمة للحكومة .

وليس يقف خطأ عزمى فى تصور الأشياء والحكم عليها عند هذا الحد، فهو يذكر أن إدارة السجون فى إنجلترا تصدر صحيفة للمجرمين ، وكأنه يتمنى أن تقرب حياة المجرمين السياسيين فى سجون مصر من حياتهم فى سجون البلاد الأخرى. ولو كان عزمى فى مصر ، ورأى الوزراء وسيرتهم، واستمع لأحاديثهم ولما يتحدث الناس به عنهم ، ورأى شجاعة النواب واستئسادهم على الصحف المعارضة حين تقع بعض الجرائم ، ثم فتورهم وتخاذلهم حين يطلب إليهم إصلاح نظام السجون لعرف أن الشاعر القديم لم يخطىء حين قال :

ومكلف الأيام ضد طباعها ... متطلب فى الماء جذوة(١) نار

كلا أيها الصديق ، لم تسرع صحف الوزارة ، ولن تسرع إلى ما أردت أن تسرع إليه من الخير ، ولم تظهر الحكومة والبرلمان ما تمنيت أن يظهرا من الرغبة فى نظام إصلاح السجون ، والترفيه عن المسجونين فى سبيل الرأى وأكبر الظن أن الأمر سيبقى كما هو الآن حتى يديل الله من أحزاب لأحزاب وحتى يولى الله أمور هذه الأمة قوما لا يتخذون الحكم وسيلة إلى التسلط

---

(١) هذا البيت من قصيدة لابن نباتة المصرى يرثى ابنه ، ومطلعها :

حكم المنية فى البرية جارى ... ما هذه الدنيا بدار قرار

والقهر ، ولا يرون السجن أسلوبا من أساليب الانتقام ، ولا يفرقون فى المعاملة بين الأولياء والخصوم ، ولا يعلنون فى غير تورع ولا احتياط أن مصر قدبلغت من الرقى والحضارة مابلغته غيرها من الدول الراقية المتحضرة ثم يرون فى الوقت نفسه فى معاملة المصريين ، والمصريين وحدهم أساليب هى أبعد ما تكون أساليب الحكم عن الرقى والحضارة .

نعم وأكبر الظن أن توفيق دياب سيلقى ما يلقى فى سجنه صابراً كما عرفته ، جلدا كما عرفته ، باسما للخطب كما عرفته ، حتى يغير الله حالا بحال ، وحتى يجعل الله قوما مكان قوم . فإذا لم يكن لك بد من أن تأمل وترجو ، وتنتظر الخير فاجعل أملك ورجاءك فى الله وفى الأمة فاليهما وحدهما يكون الأمل والرجاء ، ومنهما وحدهما ينتظر الخير .

(٤٤)

دعابة

زعموا(١) أن الفيلسوف الألمانى العظيم « كنت » كان عود نفسه أن يخرج للرياضة كل يوم فى ساعة معينة ، لا يتقدم عنها ولا يتأخر . وكان أهل مدينته قد تعودوا منه ذلك . ولما رأوه ذات يوم قد قدم موعد خروجه للرياضة دهشوا واستيقنوا أن حدثا ذا خطر قد ألم بأهل الأرض ، أو بنجوم السماء . ولم تمض أيام حتى عرف أهل المدينة أن الأمر قد كان كما قدروا ، وأن اليوم الذى اضطرب فيه نظام الفيلسوف هو اليوم الذى شبت فيه نار الثورة الفرنسية ، واحتل فيه الفرنسيون حصن الاستبداد والظلم الذى كان يقوم فى باريس وهو البستيل .

وقد لاحظنا أمس خروج الأهرام عن طورها المألوف ، وخطتها المرسومة فيما بينها وبين الحكومة من صلة قوامها المودة والعطف دون الخصومة

(١) ١٦ — ١ — ١٩٣٣ عدد ٢٣٣٨

والمعارضة . وقلنا كما قال مواطنو الفيلسوف الألمانى « لأمر ما قدم الفيلسوف ساعة خروجه » ! أو كما قال العرب القدماء « لأمر ما جدع قصير أنفه »

ثم لاحظت جريدة الوزارة مثل ما لاحظنا فداعبت الأهرام وعاتبتها، ثم لامتها وعنفتها ، ثم طلبت إليها تصريحا مكان تلميح ، وإعرابا مكان إغراب . ثم استعانت الأيام على زميلتها الأهرام فى كلام أقل ما يوصف به أنه حلو حامض ، فيه استعطاف وفيه نذير .

وليس يعنينا ما يكون بين جريدة الوزارة وبين الأهرام من دعابة حلوة مرة ، ومن عتاب خفيف أو ثقيل .

وإنما الذى يعنينا أن الأهرام تحرق الأشواط كما يقول الفرنسيون فهى تتقدم مسرعة إسراع الجواد السابق من الدعابة الخفيفة إلى النقد العنيف . وهى صباح اليوم تصارح الحكومة والإنجليز معاً بخصومة لها ما بعدها إذا لم تتداركها تلك أو هؤلاء .

ويكفى أن تعلم أن الأهرام قد أخذت الحكومة والانجليز فى مقال واحد قصير غير طويل باثنى عشر مأخذا ، بدستة كاملة كما يقولون ! ونحن نحصى لك هذه المآخذ لتعلم أن الأمر جد ، لا هزل فيه إذا لم تتدارك الظروف ما بين الأهرام والحكومة قبل أن يمعن فيها الفساد .

١ — ليس يعنى الانجليز من التعديل الأخير للوزارة إلا ما أصاب وزارة الداخلية ، فالانجليز لا يحفلون بوزارة الزراعة ولا بوزارة الأوقاف (أى بالوزارتين اللتين أسندت أمورهما إلى عضوين من أعضاء حزب الشعب) وإنما يحفلون بوزارة الداخلية ، وقد حرص وزير الداخلية على إرضائهم فاختار لهذه الوزارة وزيرا شهدت له المورنن بوست بالخبرة والدراية والكفاية وطول التجربة ، وهو رجل يعرف أين يضع الانجليز أنفسهم فى مصر ، وأين يضع الوزراء أنفسهم من الانجليز . وهذا الرجل

الذى اختاره صدقى باشا ليرضى الانجليز هو صاحب السعادة القيسى باشا وزير الداخلية الجديد .

٢ — والانجليز يحرصون على أن تجرى السياسة العامة للدولة كما يحبون ويشتهون ،وعلى النحو الذى يحقق مأربهم ويرضى أهواءهم . وهم واثقون بذلك ، مطمئنون إليه ، لأن أمر هذه السياسة إلى رئيس الوزارة وحده ، والانجليز متفقون أتم الاتفاق وأمتنه مع رئيس الوزراء منذ أكثر من سنتين •

٣ — والانجليز يحرصون على أن تدفع الجزية إلى السودان ،وعلى أن ينفق السودان هذه الجزية كما يحب ويرضى دون أن يعترض البرلمان أو الوزارة على شيء من ذلك، ودون أن يطلب البرلمان أو الوزارة إلى حكومة السودان تأدية الحساب عن شيء من ذلك . وصدقى باشا محقق للإنجليز ما يحرصون عليه من هذا كله .

٤ — والانجليز يكرهون أن يذكر البرلمان أو الوزارة ما لمصر على السودان من دين ، أو يطالب البرلمان الوزارة بقليل أو كثير من هذا الدين. وصدقى باشا ضامن للانجليز أن يظل هذا الدين منسيا ما دام ناهضا بأعباء الحكم .

٥ — والانجليز يشفقون أن تطلب إليهم مصر تنفيذ قانون التعويضات الذى أنفقت بفضله ما أنفقت من المال عبثا . وصدقى باشا ضامن لهم ألا تذكر مصر هذا القانون ولا تفكر فيه ، ولا تطالب بتنفيذه .

٦ — والانجليز حراص على أن ينشأ « بور فؤاد » ليكون محطة لخط الهند ، وعلى أن يوصل به الخط العسكرى الانجليزى فى سيناء . وصدقى باشا ضامن لهم تحقيق ما يريدون من ذلك رغم ما يضيع على مصر من المنافع والحقوق !

٧ – والانجليز يخافون أن تتحول مقاولات السكك الحديديةوغيرها عن لندرا وعن الانجليز إلى غير لندرا وغير الانجليز . وصدقى باشا ضامن لهم أن لا تنحرف هذه المقاولات عن طريقها إلى لندرا وإلى الانجليز .

٨ – والانجليز يحرصون على أن تعتبر الشهادات الدراسية الانجليزية كالشهادات الدراسية المصـرية . وصـدقى باشا يحقق لهم من ذلك ما يشتهون .

٩ – والانجليز يرغبون فى أن تساعد مصر الشركات الانجليزية التى تتعرض للافلاس أو الفقر من قريب أو بعيد . وصدقى باشا لا يأبى عليهم ذلك ولا يمانعهم فيه .

١٠ – والانجليز يريدون ألا تنغص عليهم مصر حياتهم بقصة الدين، وارتباط النقد المصرى بالنقد الانجليزى واحتجاز بنك انجلترا للذهب المصرى . وصدقى باشا ضامن لهم ألا يروا فى ذلك إلا ما يحبون .

١١ – والانجليز قد عقدوا مؤتمرهم الاقتصادى ، وراعوا من راعوا من الأمم ، وميزوا من ميزوا من الشعوب ، ولم يحفلوا بمصر . وصدقى باشا ضامن لهم ألا تغضب مصر من ذلك ولا تحتج .

١٢ – والانجليز يريدون أن تميز مصر فى التعريفة الجمركية ، فلا تغلو فى فرض الضرائب على مايرد من بلادهم ليكون لهم الفوز فى المنافسة التجارية . وصدقى باشا زعيم بأن يبلغوا من ذلك ما يريدون وفوق ما يريدون .

فماذا ترى فى هذه الدستة من المآخذ ؟ الست تحس معى أن الأمر بين الأهرام والحكومة قد تجاوز التراشق بالأزهار إلى التقاذف بالأحجار ؟ وليس المهم فى ذلك أن يفسد ما بين الأهرام والحكومة ، وإنما المهم أن

فساد ما بين الأهرام والحكومة لا يأتى عبثا ، ولا يكون سدى ، وإنما هو شيء يدل على ما وراءه من أشياء . وتختم الأهرام ملاحظاتها بملاحظة عامة تختصر كل ما تقدم وهى : إن الانجليز إنما يحرصون على أن تكون إشارتهم أمرا لا يخالف ، ولا يخرج عنه وزير أو غير وزير . وهم واثقون بأن ذلك سيتم لهم ما بقى صدقى باشا فى الحكم . ومعنى هذا أن الأهرام ترى أن صدقى باشا قد تحالف مع الانجليز على أن يحكم بأمرهم فى مصر ، وعلى أن يرعى مصالحهم ولو عرض ذلك مصالح مصر للخطر والضياع . ومعنى ذلك أن بقاء صدقى باشا فى الحكم خطر على حقوق مصر ومصالحها .

فإذا كنت تعرف معارضة شرا من هذه المعارضة فحدثنى عنها ، أما أنا فيخيل إلى أن الأهرام فكرت وقدرت ، وبحثت ونقبت ثم نثرت كنانتها بين يديها كما يقول الحجاج ، واختارت من سهامها أمضاها وأنفذها وأكثرها سما ، ثم رمت بها فى صدر صديقتها الوزارة .

وقد كانت جريدة الوزارة معاتبة صباح اليوم ، وستكون مغاضبة صباح غد إلا أن تجرى الريح بما يهدىء ويريح .

فلننتظر ولننتظر باسمين دائماً .

(٤٥)

مدرسة

أما ناظرها(١) فحضرة صاحب الدولة إسماعيل صدقى باشا ، وأما طلابها فينقسمون إلى ثلاثة أقسام : طلاب مرشحون وهم هؤلاء المستوزرون من أعضاء البرلمان ومن غير أعضاء البرلمان ، لا يشترط فيهم إلا شرط

(١) ١٤ - ١ - ١٩٣٣ عدد ٢٣٣٩

واحد نعرفه جميعاً ونقره جميعاً ، وهو ألا يكونوا من المعارضة ، أو من أنصار المعارضة ! وإنما يظهر فيهم ظهورا واضحا استعداد حسن لتأييد الوزارات مهما تكن ، وتأييد صاحب الدولة صدقى باشا بنوع خاص .

وطلاب عاملون وهم حضرات أصحاب المعالى والسعادة والعزة الذين يختارهم رئيس الوزراء بالفعل ، ويعهد إليهم بتدبير أمور الدولة تحت إشرافه البارع ، وفى ظل سياسته الحكيمة .

وطلاب مفصولون ، إما لأنهم أسرفوا فى النجاح ، أو لأنهم أسرفوا فى الإخفاق أثناء وقت الدراسة والتمرين ، وهم هؤلاء الوزراء الذين ينقلون أو يقالون أو يستقيلون . فنهم من يعمل فى سفارات الدولة . ومنهم من يستريح فى بيته . وأولئك وهؤلاء ينتظرون أن يحتاج رئيس الوزراء إليهم ، فيردهم إلى المدرسة ليستفيدوا من كفايته ، أو ليدربهم ويمرنهم مرة أخرى .

وأما هيئة التعليم فى هذه المدرسة ففرد واحد ، جمع الله فيه أفرادا ، وشخص واحد ألفه الله من أشخاص ، وكفاية واحدة صاغها الله من كفايات . وهذا الفرد المتحد المجتمع ، وهذا الشخص المؤتلف المختلف ، ذو الكفاية المحصورة المنثورة هو حضرة صاحب الدولة رئيس الوزراء ... وقد يعينه أساتذة مساعدون كما يقول الجامعيون ، وقد يعينه مدرسون أيضا . وهؤلاء الأعوان يختلفون ، فبعضهم من المصريين ، وبعضهم من الانجليز ، وبعضهم من الأوربيين بوجه عام .

وأما أمد الدراسة فى هذه المدرسة فيختلف طولا وقصرا ، ويختلف عرضا وضيقا باختلاف ما يستمتع به الطلاب من استعداد للنجاح والتفوق ، أو للإخفاق والعجز . فمنهم من يقضى فى المدرسة شهراً ثم ينقل ، ومنهم من يقضى فى المدرسة عاما ثم يوكل إليه عمل آخر . ومنهم من يقضى فى

المدرسة عامين ثم يخرج ، ومنهم من يقضى شهرين ثم يستقيل . وكذلك أراد الله لمصر المستقلة أن تنشأ فيها هذه المدرسة الغريبة التى لم تسبقنا إليها أمة من الأمم إلا الأمة الإيطالية الصديقة ، والتى لم يؤسسها قبل رئيس وزرائنا إلا زعيم إيطاليا العظيم السنيور موسولينى . فقد لاحظ الناس جميعاً ، وتحدثت الصحف الاوربية المختلفة أن الزعيم الإيطالى قد أنشأ مدرسة للحكم ، يهىء فيها الإيطاليين لفهم النظام الإيطالى الجديد ، فهو يجمع الوزراء ويفرقهم ، وهو يقرهم ويقلقهم ، وهو يريد أن يهىء للفاشسم أجيالا من الوزراء ، إذا خلا منهم جيل خلفه جيل آخر .

ولم يقلده فى هذا النحو من التعليم إلا رئيس وزرائنا العظيم !

أما هتلر فقد نهض بأعباء الحكم فى المانيا ، وأمامه مثلان ، يستطيع أن ينظر إلى إيطاليا فينتفع ، ويستطيع أن ينظر إلى مصر فيستفيد . وأكبر الظن أنه سينظر إلى البلدين جميعاً ، فكلاهما خليق أن يعلم فيحسن التعليم .

ليقل الساسة والصحفيون ما يشاءون فى تفسير هذا الترقيع الذى أحدث فى الوزارة صباح أمس . ليعلله بعضهم بنسيم يهب من اليمين ، أو ريح تعصف من الشمال . ليلتمس بعضهم تفسيره فى عناد حزب الاتحاد ، أو فى طمع حزب الشعب . أما أنا فلا أفسره إلا بشىء واحد : هو أن رئيس الوزراء قد أنشأ مدرسة للحكم ، فهو يحكم من ناحية ، ويعلم الحكام ويخرجهم من ناحية أخرى !

ورئيس الوزراء لم يذهب إلى روما فى الصيف عبثا ، ولم يلق زعيمها العظيم عبثا ، ولم يثن على أساليبه فى الحكم عبثا . ولم يعد بأنه سيستفيد من هذه الاساليب عبثا . فلم يكد يعود من أوربا ويستقر فى مصر أشهرا حتى أظهر أنه قد انتفع بلقاء الزعيم الإيطالى العظيم ، فأبعد عن الوزارة وضم إليها . ثم لم يكد يستقر بعد ذلك شهرين حتى أقصى عن الوزارة وأدنى منها رغم ما ألم به من مرض ، وما احتمل من ألم وسقم .

هى إذن خطة خطها رئيس الوزراء لنفسه فى تسيير سفينة الوزارة ، وهذه السفينة قد يواتيها النسيم فتعتدل وتستقيم ، وقد تعصف بها الريح فترجح وتضطرب إلى أن يأذن الله لها فتستريح وتريح .

وقد تضيق بهذا النحو من التفسير والتأويل ، وتسألنى أن أذهب مذهب غيرى من الكتاب فأجد فى الفهم والتفسير ، ولكن ما رأيك فى أنى لا أحب هذا الجد ولا أميل إليه ، ولا أستطيع أن أكره نفسى عليه . وكيف تريدنى على أن أكتب جادا فى السياسة المصرية إذا لم تكن هذه السياسة نفسها جادة ولا محبة للجد ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يزعم أن سياستنا جادة وهى تقوم على إهمال الشعب وإنكاره ، والإعراض عما يحب ، والإقبال على ما يكره ، والانصراف عما يريد ، والتهالك على ما يأبى ؟ وكيف تريد أن تكون سياستنا جادة ورئيس وزرائنا لا يتحرج من أن يقول فى كتابه الذى رفعه إلى حضرة صاحب الجلالة الملك إنه انتهى من إقرار النظام ، فهو يستطيع أن يدع وزارة الداخلية إلى وزير آخر ؟

أحق إنه يترك وزارة الداخلية لأنه قد أدى مهمته وأقر النظام ؟ أم الحق أنه يدع هذه الوزارة لأنه لا يستطيع منذ اليوم أن ينهض بأعبائها مع ما ينهض به من الأعباء الأخرى ؟ وأخيراً كيف تريد أن تكون سياستنا جادة ، وقد جمع رئيس الوزراء إليه الهيئة البرلمانية لحزبه فأبلغها أنه قرر وأنفذ تعديل الوزارة ، فسمعت الهيئة وتأثرت وهنأت ثم انصرفت لتجدد التأثر والتهنئة والشكر فى مجلس النواب !

لا ، إنما تجد سياستنا يوم تكون أمور الشعب إلى الشعب ، ويوم يقضى فى أمور الشعب جهرة ، ويوم تستشار الهيئات البرلمانية ، ولا يقتصر على تبليغها والاستماع لما تقدم من تحية وتهنئة وشكر وثناء .

فالى أن يأتى هذا اليوم الذى تجد فيه السياسة المصرية فتضطرنا إلى أن نجد فى فهمها وتفسيرها ، بل فى بذل ما نملك من جهد لتقويمها إن

اعوجت ، وتوجيهها إن انحرفت . إلى أن يأتى هذا اليوم يحسن أن نعبث مع سياستنا العابثة .

ستسألنى : ومتى يأتى هذا اليوم ؟ فمن يدرى ؟ لعله يكون أقرب مما تظن وأظن . فلننتظر باسمين .

انتهى

فهرس الأعلام

(م)

ل ، هـ ، و

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

تحت الطبع

غرابيل

لطه حسين

تحقيق وتقديم

محمد سيد كيلانى

رقم الايداع ٢٩٠٦ / ٨٣

دار غريب للطبـــاعة

١٢ شارع نوبار (لاظوغلى ـ القاهرة)

ص ٠ ب ٥٨ (الدواوين) ـ تليفون : ٢٢٠٧٩